▫ انتبه لرأسك! ▫ التقريب والولع بالتنقيب ▫ المرأة الفلسطينية والعمل الجاد في الدعوة والجهاد



AL BAYAN

السنة الثالثة والعشرون . العدد ٢٥١ . رجب ١٤٢٩ هـ . يوليو ٢٠٠٨ م

▫ الكنيسة قنطرة للتنصير

▫ سورية و (الدولة الصهيونية)! ما وراء حديث التسوية؟



علمانيو تركيا

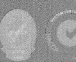
يرتدون حجاب العقل



سيقان دجاج بالبقسماط

والآن دجاج الوطنية متوفر بعدة أصناف تناسب أذواق الجميع
دجاج الوطنية لذيذ، صحي وغذاؤه ١٠٠٪ طبيعي - طبيعي يكون اختيار الأم الأول لعائلتنا.













اكفلني..



بـ ١٠٠٠ ريـال

تساهم بكفالة مشاريع الزاد الخيري ببريدة

لمدة عام كامل

م	المشروع	المبلغ	عدد المستفيدين
١	كفـالـة الأيتـام	١٥٠ ريال	٨٠ يتيماً
٢	كفالة الأسر والأرامل	٢٥٠ ريال	٤١٥ أسرة وأرملة
٣	تفطـير الصـائمين	٥٠ ريال	الصائمون
٤	تسديـد الإجـارات	٢٠٠ ريال	٢٢٠ أسرة فقيرة
٥	إعـفـاف الشبـاب	١٠٠ ريال	٤٠ شاباً فقيراً
٦	صيانة منازل الفقراء	٥٠ ريال	١٢٠ منزلاً
٧	عـلاج الفـقـراء	١٠٠ ريال	تأمين أجهزة للمرضى
٨	الإرشـاد والإصـلاح الأسـري	٥٠ ريال	٣٤٥ أسرة
٩	تدريب وتطوير الأسر المحتاجة	٥٠ ريال	٣٤٥ أسرة

للمساهمة مصرف الراجحي حساب 212608010000739

القصيم - بريدة - طريق الملك سعود

ص.ب / ١٠٤٣٣ الرمز البريدي ٥١٤٣٣

055 3841111

06 3841111

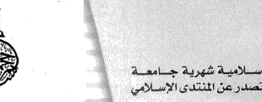


الإدارة النسائية 06 3846111









إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

المراسلات والإعلانات:
الدول العربية:
السعودية:
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف الاشتراكات مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني:
التحرير:
editors@albayan.co.uk
الاشتراكات:
sub@albayan-magazine.com
التسويق:
sales@albayan-magazine.com

عنوان المجلة على الشبكة العالمية: www.albayan-magazine.com

المـوزعـون:

- الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
- الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.
- سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.
- البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
- السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
- السودان: الخرطوم، دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع، هاتف ٧٩٣٢٨٣ - فاكس ٧٩٣٢٨٤ - ص.ب ١١١٦٦ الخرطوم.
- قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
- الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
- المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
- اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

طبعت بمطابع الأهرام التجارية - ٦ أكتوبر

- **افتتاحية العدد**
  - علمانيو تركيا يرتدون حجاب العقل — التحرير — ٤
- **دراسات في العقيدة والشريعة**
  - الكنيسة قنطرة للتنصير — محمد بن شاكر الشريف — ٦
- **السياسة الشرعية**
  - مؤسسة الحل والعقد (١) — د. عبد العزيز كامل — ١٤
- **قضايا دعوية**
  - هل هناك من يملك الوصاية على الدين؟! — محمد بوراس — ٢٢
- **مع الدعاة**
  - حتى يكون العتاب جميلاً — فيصل بن علي البعداني — ٢٨
- **دراسات تربوية**
  - احذروا حلاوة الطاعات! — طه حسين بافضل — ٣٢
- **تأملات تربوية**
  - التأهيل لا التدليس — د. محمد عبد الله الدويش — ٣٦
- **أفق أخضر**
  - الثقافة الشفاهية (١-٢) — د. عبد الكريم بكار — ٣٨
- **نص شعري**
  - كأن غزة ليست أخت قاهرة! — محمود مفلح — ٤٠
- **المسلمون والعالم**
  - سورية و (الدولة الصهيونية!) — حسن الرشيدي — ٤٤

الحسابات:
- السعودية: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة ـ شارع الأربعين ـ حساب مجلة البيان رقم ٧/٢١٠٠
- مصرف فيصل الإسلامي ـ حساب رقم: ٠٠٢ ـ ٤٥١٤ ـ ٤٢ ـ ١٠٩
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي ـ حساب رقم ٦٣٤٩٣٤
- الإمارات: بنك دبي الإسلامي ـ (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤
- قطر: بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ١١١١٠٠٥٤٢٣٠٠١



قلوب غُلْف

القلوب أنـــواع، منها: القلب الأجرد، ومنهـــا: القلب المنكوس، ومنها: القلب الأغلف. والقلب الأغلف: هو القلب المغطَّى بالحُجُب، الذي لا يخلص إليه من الحق شيء؛ فهو قلب لا يبصر النور على الرغم من وجوده، ويرى الأشـيــاء على غير حقيقتها، بل بما يناقض حقيقتها. فإذا لم يمكن لهذا القلب أن يدرك حقيقة التوحيد الذي هو أوضح من ضوء الشمس في رابعة النهـــار وضوء القمر في ليلة البدر؛ فإن مَنْ يأمل أن يتصرف صاحب هذا القلب بغير ما يمليه عليه؛ فهو كمن يأمل أن يجني من الشوك العسلَ.

في الأســــابيع القليلة الماضية، دهمتنا كثير من التصرفات الناتجة عن تلك القلوب العمياء، نلتقط منها ثلاثة تصرفات.

التصرف الأول: قادم من وراء البحار؛ حيث صار الوعد بقهر صاحب الحق ونصر الظالم ورقةً رابحة في يد من يريد الوصول إلى البيت الأبيض، حيث يتسابق المرشحان الديمقراطي والجمهوري في قطع الوعود بضمان أمن اليهود المغتصبين لأرض المســلمين في فلســطين، مع التوعد بالويل والثبور وعظائم الأمور لمن يقف في سبيل ذلك ولو كان من الفلسطينيين الذين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم واغتُصِبت أراضيهم وديارهم.

وأمـــا **التصـرف الثاني:** فهو قـــادم من أرض كانت فـــي يوم ما من الزمن عاصمة الخلافة الإســلامية الأمينة على شرع الله ودينه، حيث تحكم المحكمة الدستورية بعدم جواز دخول الطالبات للجامعة بالحجاب الإسلامي! مع أن المحكمة ليس من اختصاصها النظر في المضمون وإنما تنظر في الشـــكل فقط، والتغيير الدستوري الذي أقره البرلمان هو تغيير لا غبار عليه من حيث الشـــكل؛ لأنه أتى بإرادة الأغلبية الشعبية الممثَّلة في البرلمان، التي تُعَدُّ في النظام الديمقراطي صاحبة الحق الأصيل في التشريع ولا تدانيها سلطة أخرى في ذلك، فضلاً أن تسمو عليها.

وأمـا **التصرف الثالث:** فهـــو قادم من قلب العروبة النابض؛ حيث يقر بعض نواب الأمة بتجريم ختان الأنثى استجابة لأجندة أممية وغربية، على الرغم من نص الدستور على أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدرُ الرئيس للتشـــريع، وليس في أي مذهب من مذاهب الفقه الإسلامي - على مدى التاريخ الإسلامي في شرق العالم أو غربه - مَنْ قال من العلماء بمنع ختان الأنثى؛ فهل يمكن أن نجد تفســيراً مقنعاً لهذه التصرفات وما شابهها إلا أنهم قالوا كما قالت اليهود: ﴿ ... قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة: ٨٨]؟!

■ المسلمون والعالم
- لماذا ينتحر الجنود الأمريكيُون العائدون من الحرب؟! د. أحمد إبراهيم خضر ٤٨
- فرق الموت الصهيونية «المستعرفيم» أ. د. يوسف كامل إبراهيم ٥٢
- المجتمع الأمريكي والنفوذ اليهودي د. عبد العزيز صقر ٥٦

■ مرصد الأحداث ٦٢

■ حدث وحديث
انتبه لرأسك! د. يوسف بن صالح الصغير ٦٧

■ قصة قصيرة
البطاقة العقيد: مشعل مغربي ٦٨

■ دراسات إعلامية
الرأي العــام: ماهيتـــه، قياســه، والتأثير فيه د. عبد الله علي الشرمان ٧٠

■ بأقلامهن
المرأة الفلسطينية والعمل الجاد جميلة عبد الله الشنطي ٧٤

■ في دائرة الضوء
الدولة الصفوية في إيران التاريخ والمنهاج أ. د. محمد أمحزون ٨٠

■ تيارات فكرية
استشراف المستقبل عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عبد الله محمد المديفر ٨٨

■ الورقة الأخيرة
التقريب والولع بالتنقيب د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ٩٤

سعر العدد:

السعودية ١٠ ريالات	قطر ١٠ ريالات	الأردن ٧٥ قرشاً
الكويت ٨٠٠ فلس	اليمن ١٠٠ ريالاً	الإمارات العربية ١٠ دراهم
مصر ٥ جنيهات	السودان ٢٠٠ دينار	البحرين دينار واحد
المغرب ١٢ درهماً	سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة	فلسطين نصف دولار أمريكي

أوروبا وأمريكا ٢,٧٥ يورو أو ما يعادلها

الاشتراكات:

السعودية ودول الخليج	١٢٠ ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧ يورو
أوروبا	٥٥ يورو
البلاد العربية وافريقيا	٤٥ يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥ يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠ يورو



علمانيو تركيا يرتدون حجاب العقل

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وبعد:

للحجاب في تركيا قصة طويلة محزنة، تبدأ من قوانين أتاتورك، ولا تنتهي عند مروة قاوقجي، أو خير النساء (اسم زوجة رئيس الجمهورية عبد الله جول).

ذهبت (مروة قاوقجي) للدراسة في الجامعة، فلم يُسمَح لها بسبب ارتدائها الحجاب، فذهبت للدراسة في أمريكا بحجابها، ثم عادت إلى بلادها لتترشح في البرلمان وتفوز بمقعد حَرَمها منه حرسُ العلمانية الأوفياء، وبسبب حجابها أيضاً، بل نُزعت منها جنسيتها، فرحلت من جديد إلى أمريكا.

ومنذ ما يقرب من ثمانين عاماً، كان البوليس التركي يقوم بنزع الحجاب عن النساء بالقوة وعقابهن أحياناً، امتثالاً لقانون أتاتورك. وهلك أتاتورك واندثر قانونه، ولكن بقي منع الحجاب وحظره قائماً في مؤسسات الدولة الرسمية. وخلال عقود متتالية، طُرد مئات العسكريين من الجيش بسبب ارتداء زوجاتهم للحجاب، وفُصلت أعداد متزايدة من الموظفات في أجهزة الدولة بسبب الحجاب.

في عام ١٩٨٧م، صدر قانون يمنع دخول المحجبات إلى الجامعات، ونُفِّذ القانون في أكثر من ٨٠ جامعة تركية، فامتنعت كثير من الطالبات عن الذهاب إلى الجامعة، واحتالت بعضهن على القانون فارتدين شعراً مستعاراً بدلاً من الحجاب كما فعلت ابنة رئيس الجمهورية عبد الله جول، وبعضهن كُنَّ يخلعن الحجاب على عتبة الجامعة.

وقبل أشهر قليلة، وافق البرلمان التركي على تعديلات دستورية لمادتين في الدستور، ولم تشر التعديلات صراحة إلى الحجاب، ولكنها أكدت حق جميع المواطنين في الاستفادة من مؤسسات الدولة دون تمييز، وأكدت كفالة حق التعليم لجميع المواطنين ما دام أنهم لم يخالفوا الدستور. وحسب هذه التعديلات يصبح منع المحجبات من دخول الجامعات غير دستوري، وهو ما أثار حفيظة حرس العلمانية ونقمتهم، فسارعوا إلى رفع الأمر إلى المحكمة الدستورية لتفصل فيه. ومن المعروف أن الحرس العلماني التركي يتركز في الجيش والقضاء وإدارة الجامعات.

ولنا مع قضية الحجاب في تركيا وتداعياتها الأخيرة عدة وقفات.

الوقفة الأولى:

لماذا الحجاب؟ إن العلمانيين في تركيا وغيرها لا يقصدون من مصطلح «الحجاب» ما يُقصد به شرعاً، بل يقتصر الحجاب حسب رؤيتهم على غطاء الرأس، فلو سحبت الطالبة غطاء الشعر منحسراً عن معظم شعرها إلى الخلف لَدخلت جامعتها بلا حرج، ولو تركته يغطي معظم شعر رأسها ويكشف بعضه لما تمكّنت من الدخول.

إن الحجاب على الرغم من مكانته، لا يعدو أن يكون أمراً ضمن منظومة من الأوامر والنواهي الشرعية، فلماذا تركزت العداوة ضده على نحو لافت؟

إن أهمية الحجاب (وخطورته) في سياق الحرب على الإسلام؛ تكمن في كونه مظهَراً من المظاهر الإسلامية التي تُبرز للعيان مدى ارتباط الشعوب الإسلامية بدينها ومستوى ذلك الارتباط، وهو مظهر يمتلك - كغيره من المظاهر الإسلامية - القدرةَ على التذكير والإيقاظ والإنعاش لكل من لعب الشيطان برأسه وأغْرته الشهوات أو أضلّته الشبهات.

وعندما زار صحفي ألماني مصر ومكث بها عدة أعوام أثناء حكم عبد الناصر؛ كان الحجاب معياراً أساسياً يقيس به مستوى تأثير الإسلام في حياة الشعب، فكتب يقول:



«... ويكفي أن تعلم أنه منذ عشرين عاماً فقط كانت كل النساء تقريباً يرتدين الحجاب. أما اليوم؛ فإنه حتى في أكثر المناطق شعبية لم نعد نرى الحجاب»[1].

وألمح قرار المحكمة الدستورية الأخير إلى كون الحجاب من رموز الإسلام السياسي، وهو ما يهدد نظام الدولة العلماني؛ وهذا يؤكد خطورة المظاهر الإسلامية وشعبيتها وانتشارها على العلمانيين؛ إذ إن شعبية هذه المظاهر تعد بمنزلة استفتاء غير مباشر على النظام العلماني برُمّته، وربما تكون الخطوة التالية هي المطالبة باعتبار الإسلام ديناً رسمياً ومصدراً للتشريع.

إن كراهية العلمانيين للإسلام تقودهم إلى مسارات ومسالك يَبْدون فيها قِمماً في التفاهة والفراغ الذهني والبلادة العقلية، إنهم يطالبون المرأة بنزع غطاء رأسها؛ بينما يضعون عقولهم في حُجُب من الكراهية والرجعية إلى الكفر.. ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وإلا فكيف يمكن قبول مواجهة المحكمة الدستورية لتعديلات وافق عليها ٤١١ نائباً برلمانياً مقابل رفض ١٠٣ نوّاب فقط؟ كما أن الحجاب ليس غريباً عن المرأة التركية، فنسبة المحجبات في تركيا لا تقل عن الثلثين، وحسب تصريحات بعض مسؤولي حزب العدالة تصل النسبة إلى ٨٠٪ من النساء التركيات، ونسبة مماثلة من النساء تدعم رفع الحظر على الحجاب. كما أن نحو ٨٠٠ ألف طالبة جامعية يرتدين الحجاب ويمثلن ٢٥٪ من إجمالي الطالبات الجامعيات في تركيا، بل إن نسبة المحجّبات في حزب الشعب الجمهوري العلماني الذي أشعل الحرب الأخيرة تبلغ ٤١٪ من عضوات الحزب؛ إذن: في أيِّ جدار يضرب الحرس العلماني رؤوسَهم؟

إن العلمانية في تركيا جاءت كياناً مسخاً مستنسخاً من العلمانية الأوروبية، فهو أشبه ما يكون بـ (النعجة دوللي)، فاقدٌ للقدرة على الاستمرار، ترتبط كينونته في الأساس بعداوته للإسلام، فلو التفت عن الإسلام إلى غيره لَهوى الكيان العلماني التركي تماماً، فهو يستمد حياته وبقاءه من نفث سمومه على كل ما هو إسلامي في تركيا، ويحتل الحجاب مكان الصدارة في لائحة العداء العلمانية.

الوقفة الثانية:

إن حرب الحجاب في تركيا لا تؤتي ثمارها حلوة أبداً لمن يقودها، ففي كل مرة يصابون بخيبة وتراجع، ولِمَ لا ونحو ٨٠٪ من النساء في تركيا محجبات بعد كل ما بذلوه من مجهودات خارقة وما سنوه من قوانين، فإن أغلبية النساء التركيات محجبات؟

وعندما وقف العلمانيون بصلابة ووقاحة رافضين دخول محجبة (مروة قاوقجي) للمرة الأولى إلى البرلمان، كانت عاقبتهم دخول محجبة أخرى قصْرَ الرئاسة نفسه بعد سنوات، وهي (خير النساء) زوجة عبد الله جول.

إن الحرس العلماني في تركيا وغيرها من البلاد الإسلامية يريد اجتثاث الأمة من تاريخها وأصولها، وهو ما لا يمكن أن يحدث مهما حاولوا وبذلوا. لذا؛ فإن إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح تقتضي التساؤل عن الأسباب التي دعت المرأة إلى التخلي عن حجابها، وليس عن الأسباب التي تدفع النساء إلى العودة إليه حالياً، فإن انحرافاً فرعياً في التاريخ لا يتجاوز سبعين أو ثمانين عاماً (متوسط عمر رجل واحد) لا يمكن بحال أن يقضي على أصل متجذِّر منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان، كشجرة ضخمة أصلها ثابت وفرعها في السماء: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

الوقفة الثالثة:

الرافضون للإسلام في بلاد الإسلام يمثِّلون فئة ثابتة متكررة، تتغير في أسمائها وألقابها وتتوافق في أفكارها وطموحاتها، إنهم يتحرقون شوقاً لرؤية الإسلام في أبعد مكان من قلوب الناس وحياتهم، وتحتل المرأة المسلمة موقعاً مهماً في قائمة أهدافهم، فهي بالنسبة لهم وسيلة وغاية.

وهم يتدرجون في خطابهم (النسوي) ويتلونون بما يناسب حالهم، فهم في بلد يركزون على خروج المرأة وقيادتها للسيارة وكشفها لوجهها واختلاطها بالرجال في أماكن العمل والتعليم، وهم في بلد آخر ينادون بتحريم الختان وتأخير سن الزواج وتقليص قوامة الرجل على زوجته، وفي بلد ثالث يطاردون حجاب «فلة» (دمية الأطفال) في المحالِّ والطرقات، وفي تركيا يحرِّمون ارتداء الحجاب في الجامعات: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

إن مواجهة ما يحدث في تركيا تبدأ بالاستفادة من دروسه، وما لم يتعظ أهل الدين ودعاته ويأخذوا حِذْرهم ويشحذوا عزيمتهم؛ فإن ما يحدث في تركيا سيحدث في بلاد أخرى ولو بعد حين. إن «مسرحية حرب الحجاب» ذات فصول عديدة، لكن فصولها من البداية وحتى النهاية تُعرَض جميعها في الدول الإسلامية، ومن أراد أن يتعظ بـ «فصله» فليُراقب الفصل التالي في بلدٍ مجاور!

(١) عودة الحجاب، ج ١، ص ٢٨٨.





الكنيسة قنطرة للتنصير



محمد بن شاكر الشريف

تجتاح العالم الإسلامي هذه الأيام موجة متصاعدة من التخاذل أمام النصارى سواء أكان ذلك في بناء الكنائس على أرض المسلمين أو الطلب من بابا الفاتيكان إلى بعض الدول الإسلامية بالسماح ببناء الكنائس في تلك الدول مع ذكر المسوغات لهذا الطلب الذي يحاولون أن يصوروه بأنه طلب له ما يسوغه من الأمور التي تجعله منسجماً مع ما يسمى بـ (حقوق الإنسان) وقبل التعرُّض لبيان الحكم الشرعي من بناء الكنائس وكذا المعابد الشركية في أرض المسلمين؛ فإنه من المستحسن الإشارة إلى بعض الحقائق المتعلقة بتمسُّك النصارى بدينهم وبمدى حرصهم على ارتياد كنائسهم.

من المعلوم أن النصارى لا يذهبون - في عاداتهم المتَّبعة - إلى الكنيسة إلا يوم الأحد من كل أسبوع، وبقية أيام الأسبوع الستة لا علاقة للنصارى بالكنيسة إلا نادراً، وذلك بعكس ما عليه المسلمون؛ حيث يرتبطون بالمسجد في اليوم الواحد خمس مرات. ورغم ضآلة الفترة الزمنية التي يرتبط فيها النصراني بالكنيسة مما يمكنه من الوفاء بهذا الارتباط لو أراد من غير أن يؤثر على مصالحه وارتباطاته الدنيوية؛ فإننا نجد أن الإحصاءات المتعددة تبيِّن انحسار إيمان النصراني بالنصرانية وغلبة الإلحاد على الكثيرين منهم، وأن من بقي منهم على نصرانيته فلا يكاد يذهب إلى الكنيسة إلا قليلاً، حيث يقدِّر الباحثون أن أعداد المسلمين الذين يذهبون إلى المساجد يوم الجمعة في لندن أكثر من أعداد النصارى الذين يذهبون إلى الكنائس يوم الأحد فيها، على الرغم من أن أعداد النصارى في لندن يفوق أعداد المسلمين سبع مرات. وقد ذكرت شبكة (محيط) الإخبارية وموقع (رسالة الإسلام) وغيرهما من المواقع نقلاً عن أحد الباحثين قوله: «إن نسبة الذين يؤمنون في أوروبا بوجود إله أقل من (١٤٪) من عدد السكان، وإن نسبة الذين يذهبون إلى (القدَّاس) - أي الصلاة عندهم - مرة في الأسبوع في فرنسا - بنت الكاثوليكية وأكبر بلادها - أقل من (٥٪) من عدد السكان؛ أي: أقل من ٣ ملايين؛ أي: أقل من نصف عدد المسلمين الفرنسيين».

وجاء في المصدر نفسه «أن (١٠٪) من كنائس إنجلترا معروضة للبيع، وفي ألمانيا توقف القدَّاس في ١٠٠ كنيسة أي: (٣٠٪) من كنائس إبراشية آيسين وحدها، وفي إيطاليا بلد الفاتيكان غنَّت المطربة (مادونا)! في إحدى الكنائس التاريخية بعد أن تحوَّلت إلى مطعم وملهى ليلي»، مضيفاً: «إن تلك المؤشرات تدل على إفلاس الكنائس الغربية في



عقر دارها» ا. هـ. وليس هناك من شك في أن كون دين النصارى ديناً لا عقلانية فيه وهو قائم على تخيلات ليس إلا، لا يقرُّها عقل صحيح، إلى جانب وقوع القساوسة في حمأة الرذيلة والشذوذ والتحرش الجنسي، وهو ما بات أمراً معلوماً مشهوداً للناس؛ وذلك من أسباب كفر كثير من النصارى بدينهم أو ابتعادهم عن الكنيسة التي صارت تمثل في أحيانٍ كثيرة ملاذاً آمناً للقساوسة يمارسون فيه الفاحشة مع الأطفال أو النساء، في صورة يندى لها كل جبين.

إن الإلحاح النصراني على بناء الكنائس في أرض المسلمين في حين لا يذهب الكثيرون منهم إلى تلك الكنائس في بلاد الغرب، حتى توشك كثير من الكنائس أن تقفل أبوابها لعدم وجود من يرتادها من النصارى أو قلّتهم؛ لَيَضَع علامات استفهام كثيرة أمام هذا الإلحاح الذي لا يفسره إلا الرغبة في استخدام هذه الكنائس لتكون قواعد الانطلاق للتنصير؛ لتعويض النقص الكبير في أعداد النصارى بمرور الزمن.

وقد ذكرت دراسة نصرانية بريطانية أنه بعد عقدين من الزمن سوف يُقفَل ما يقارب (٢٠٪) من الكنائس الموجودة هناك، وذلك بسبب ارتفاع تكلفة إصلاحاتها وهجر الكثيرين لها. وأشارت الدراسة إلى أن كل أسبوع يتم إغلاق كنيستين. وأظهرت الدراسة تراجعاً ملحوظاً في عدد الحضور في الكنائس، بينما ذكرت بعض الصحف عن قساوسة قولهم: (إن هناك مئات الكنائس لا يدخلها سوى العشرات كل يوم أحد)، في حين يندر التردد عليها في باقي أيام الأسبوع[1].

"الكنائس في بلاد الغرب تباع وتتحول إلى ملاهٍ ليلية ومطاعم"

حتى إن هناك بعض البلديات في دولة مثل بلجيكا لا تمانع في تحويل بعض الكنائس التي لم يعد يدخلها أحد إلى مساجد. كما يُذكَر أن الكنائس في ألمانيا تواجه خطر البيع والاستفادة منها في أمور أخرى في ظل التناقص الشديد والتراجع المذهل في عدد من يرتادون الكنائس؛ حيث تشير بعض الدراسات إلى أن نحو (٣٠٪) من كنائسها ربما يتعين بيعها لأغراض تجارية، وقد سبق أن تحولت إحدى الكنائس؛ الكبيرة في ألمانيا إلى مطعم تقدَّم فيه الخمور نتيجة عدم إمكانية توفير المال لاستمرار عمل الكنيسة، رغم أنها حاولت عن طريق السماح بإقامة حفلات زواج (ديسكو) ماجنة من أجل جمع المال للبقاء بلا طائل، حتى أصبح من الأمور المعتادة تحويل كنائس إلى بنوك ومحلات بيع أثاث الحدائق وأسواق ضخمة (سوبر ماركت).

والأمر في الدانمارك لا يختلف عن ذلك، بل ربما كان أسوأ من ذلك بكثير؛ حيث جرى عرض العديد من الكنائس للبيع بعد أن أصبحت فارغة لا يدخلها إلا الأشباح؛ فالناس هناك قد أداروا ظهورهم للكنيسة، وقد دعا إحجام النصارى الشديد عن الذهاب إلى الكنيسة بعض المتحمسين للكنيسة إلى صناعة ما يسمونه كنيسة متنقلة وذلك أشبه ما يكون بالخيام الكبيرة حتى تذهب الكنيسة نفسها إلى النصارى في أماكنهم ومنتدياتهم، وشعارهم في ذلك «إذا لم يذهب الناس إلى الكنيسة، فالكنيسة يجب أن تذهب إلى الناس»، ورغم كل هذا الضمور في النصرانية وفي كنائسهم نجدهم يجتهدون في فتح الكنائس في بلاد المسلمين وبنائها؛ أملاً في الوصول من وراء ذلك إلى تنصير المسلمين، وبخاصة في ظل التدهور الاقتصادي الذي تعيشه كثير من بلاد المسلمين مما يدفع بعض ضعيفي الإيمان إلى القبول بذلك مما يؤمِّن لهم مستوى اقتصادياً مناسباً أو يساعدهم في الزواج أو يفتح لهم طريق الهجرة إلى بلاد الغرب حيث الرفاهية والثراء والعيش الرغيد.

لقد بلغت بالكفار الجرأة مبلغاً عظيماً، حتى إن رأس الكفر في العالم بابا الفاتيكان - الذي قدح في الإسلام ورسول رب العالمين في محاضرته الخسيسة - لَيطالب بافتتاح كنائس في بلاد الحرمين للعمالة النصرانية الأجنبية المقيمة على أراضيها، وهذا أمر تطير فيه الرؤوس ولا يكون، وقد عصم الله - تعالى - هذه البلاد من أن يكون فيها دينان، مع أن هؤلاء النصارى المقيمين لا يكادون يدخلون الكنائس في بلدانهم التي أتوا منها.

"أعداد النصارى يقلون، ومرتادي الكنائس منهم يتناقص باستمرار والإلحاد ينتشر في قطاعات كبيرة منهم"

ولعل الدراسات الحديثة والتقارير الصادرة عن مؤسسات بحثية بخصوص تناقص أعداد النصارى في مقابل زيادة أعداد المسلمين؛ حتى إن بعضها يذهب إلى أن القارة الأوروبية النصرانية سوف تتحول عما قريب إلى قارة إسلامية؛ هو ما يقضُّ مضاجع الصليبيين ويمثِّل كارثة كبرى بالنسبة لسدنة الصليب، وهو ما يدعو سدنتهم وقساوستهم إلى الرغبة في

(١) نقلاً عن شبكة إسلام اون لاين، نشرت بتاريخ ١١/مايو/٢٠٠٨م.

الإكثار من عدد الكنائس وخاصة في بلاد المسلمين؛ لتكون سداً أمام تحول النصارى إلى دين الإسلام ولتكون من جانب آخر بوابة خلفية يحاولون من خلالها القيام بعمليات التنصير.

لقد اتخذت استراتيجية التنصير في الآونة الأخيرة عدة مسارات متنوعة وبخطوات متسارعة؛ بدءاً من دعوى الحوار بين الإسلام والكاثوليكية، بينما هم لا يعترفون بالإسلام ديناً؛ مروراً باتهام الإسلام بأنه دين إرهابي قائم على العنف والقسوة، إلى شنِّ حرب عسكرية على بلدان إسلامية بزعم القضاء على الإرهاب المتوقع من تلك الدول، إلى محاربة المؤسسات الخيرية التي تعتني بفقراء المسلمين والتي تنشط بالدعوة بين صفوف غير المسلمين، والتدخل في منعها وإغلاقها بزعم أن أموالها تستخدم في تمويل الإرهاب، إلى الطعن في رسول رب العالمين خير من وطئ الثرى ﷺ والاستهزاء به، إلى تمزيق المصحف وإهانته؛ كل ذلك بهدف إماتة الغيرة في نفوس المسلمين والحمية لدينهم، حتى يسمع المسلم سبَّ الله - تعالى - وسبَّ رسوله ﷺ وسبَّ دينه ويُهان كتابه؛ من غير أن يحرك ساكناً أو تتحرك نفسه للدفاع عن دينه، وأخيراً السعي في بناء الكنائس في بلاد المسلمين؛ وكل ذلك يجري في منظومة واحدة وإن تنوعت صورها، حتى يحقق هؤلاء المشركون - الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر - ما يوسوس إليهم شياطينهم به؛ من تحويل العالم كله إلى النصرانية، ويرون أن ذلك العمل حق لهم، كما ذكر ذلك بابا الفاتيكان الحالي في خطاب له ودافع عما عدَّه حق الكنيسة الكاثوليكية في نشر رسالتها التنصيرية بين غير النصارى (ومنهم بالدرجة الأولى المسلمون) وأصحاب المذاهب النصرانية الأخرى، ودعا إلى بذل الجهد في سبيلها حتى الموت. كما ذكرت وثيقة أطلقها الفاتيكان مؤخراً أن: «التنصير بالإنجيل حق وواجب وتعبير عن حرية الأديان».

ويؤكد البابا على التلاحم بين النصرانية والتنصير فيقول: «النصرانية دائماً متداخلة مع تنصير غير النصارى حتى لو كان الثمن هو الشهادة». والشيء الغريب الذي يدعو إلى السخرية من هؤلاء ومن أحلامهم الطائشة أنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على النصرانية في بلادهم، ولم يستطيعوا أن يضمنوا ولاء النصراني لدينه وعقيدته، فكيف يأملون ويسعون في تحويل العالم كله إلى النصرانية؟! وكيف يطالبون ببناء الكنائس في بلاد المسلمين وهم يهجرون كنائسهم في بلادهم؟! وهؤلاء ممن ينطبق عليهم قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وبعد هذه المقدمة التي تتناول حال النصرانية في العالم وموقف أتباعها منها ومن ارتياد الكنائس؛ نعود إلى الحديث عن الأحكام الشرعية التي تتناول هذا الأمر.

- الكنيسة تُجمَع على كنائس، وهي مكان تَعبُّد أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى. وقد قسَّم أهل العلم البلاد بالنسبة لديانة من يسكنها إلى ثلاثة أقسام: حرم، وحجاز، وما عداهما.

فأما الحرم؛ فهو مكة وما طاف بها من جوانبها، وحدُّه من طريق المدينة دون التنعيم على ثلاثة أميال، ومن طريق العراق على سبعة أميال، ومن طريق الجعرانة على تسعة أميال ومن طريق الطائف على عرفة من بطن نمرة على سبعة أميال، ومن طريق جدة على عشرة أميال، فهذا حدُّ ما جعله الله - تعالى - حرماً؛ لما اختص به من التحريم وباين بحكمه سائر البلاد(1). ويختص الحرم بعدة أحكام باين فيها سائر البلدان، والذي يتعلق بموضوعنا من ذلك: منع من خالف دين الإسلام من معاهد وذميٍّ من دخوله؛ لا مقيماً فيه ولا ماراً به، وهذا قول جمهور أهل العلم، ويدل عليه قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. وجوَّز أبو حنيفة دخولهم إليه إذا لم يستوطنوه، والآية دالة على عكس ذلك إذ هي منعت قربانهم من المسجد وليس من استيطانه فقط(2).

- وأما الحجاز؛ فقد قال الأصمعي: سُمِّي حجازاً لأنه حجز بين نجد وتهامة. وما سوى الحرم منه يختص بعدة أحكام، والذي يتعلق بموضوعنا منه أنه لا يستوطنه مشرك من ذميٍّ ولا معاهد، وأجازه أبو حنيفة وهو

"النصارى يعملون على تنصير المسلمين من خلال استراتيجية ذات مسارات متعددة"

"اتفاق العلماء من جميع المذاهب على عدم جواز بناء معابد شركية، كنائس وغيرها، في جزيرة العرب سواء كانوا أهل ذمة أو مستأمَنين أو معاهَدين"

(1) الأحكام السلطانية، لأبي الحسن الماوردي، ٢٠٨. والأحكام السلطانية، لأبي يعلى، ١٩١. والميل يعادل في مقاييسنا الحاضرة تقريباً من ٢ كم.

(2) انظر: الأحكام السلطانية، لأبي الحسن الماوردي، ٢١١. والأحكام السلطانية، لأبي يعلى، ١٩٥.

مردود بما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»[1]. وقال ﷺ في المرض الذي مات فيه: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»[2].

وقال أيضاً: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب»[3]، وكان هذا آخر ما تكلم به، وأخرج البخاري في صحيحه: «أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز»[4]. قال مالك في الموطأ: «قال ابن شهاب ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج واليقين أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب، فأجلى يهود خيبر». وضرب لمن قدم من أهل الذمة تاجراً أو صانعاً مقام ثلاثة أيام ويخرجون بعد انقضائها؛ فجرى به العمل واستقر عليه الحكم؛ فمنع أهل الذمة من استيطان الحجاز ولا يمكَّنون من دخوله ولا يقيم الواحد منهم في موضع منه أكثر من ثلاثة أيام[5].

قال القرطبي: «وأما جزيرة العرب، وهي مكة والمدينة واليمامة واليمن ومخاليفها؛ فقال مالك: يخرج من هذه المواضع كل من كان على غير الإسلام، ولا يمنعون من التردد بها مسافرين، وكذلك قال الشافعي رحمه الله، غير أنه استثنى من ذلك اليمن، ويُضرَب لهم أَجَلٌ ثلاثة أيام كما ضربه لهم عمر - رضي الله عنه - حين أجلاهم»[6]. قال النووي في شرح حديث «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»: «وأخذ بهذا الحديث مالك والشافعي وغيرهما من العلماء، فأوجبوا إخراج الكفار من جزيرة العرب، وقالوا: لا يجوز تمكينهم من سكناها، ولكن الشافعي خصَّ هذا الحكم ببعض جزيرة العرب وهو الحجاز، وهو عنده مكة والمدينة واليمامة وأعمالها دون اليمن وغيره مما هو من جزيرة العرب؛ بدليل آخر مشهور في كتبه وكتب أصحابه. قال العلماء: ولا يمنع الكفار من التردد مسافرين في الحجاز، ولا يمكنون من الإقامة فيه أكثر من ثلاثة أيام، قال الشافعي وموافقوه: إلا مكة وحرمها فلا يجوز تمكين كافر من دخوله بحال، فإن دخله في خفية وجب إخراجه، فإن مات ودفن فيه نبش وأخرج ما لم يتغير، هذا مذهب الشافعي وجماهير الفقهاء»[7]. قال ابن حجر: «الذي يمنع المشركون من سكناه منها (أي: جزيرة العرب) الحجاز خاصة: وهو مكة والمدينة واليمامة وما والاها، لا فيما سوى ذلك مما يطلق عليه اسم جزيرة العرب؛ لاتفاق الجميع على أن اليمن لا يمنعون منها مع أنها من جملة جزيرة العرب، هذا مذهب الجمهور»[8].

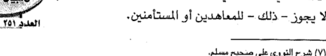
والمراد من ذلك: بيان اتفاق أهل العلم من سائر المذاهب على منع أهل الذمة من سكنى الحرم والحجاز، وإذا كان أهل الذمة من اليهود والنصارى ممنوعين من دخول الحرم مطلقاً، ومن البقاء في الحجاز أكثر من ثلاثة أيام؛ فغيرهم من المشركين من غير أهل الكتاب ممنوعون من باب أَوْلى، وإذا كان المشركون كلهم ممنوعين من البقاء في جزيرة العرب على الوجه المتقدم تفصيله؛ فمنعهم من بناء كنيسة أو معبد من معابد المشركين في هذه البقعة من الأرض أَوْلى وأَوْلى؛ إذ ليس كل ما جازت سكناه لأهل الذمة جاز لهم بناء كنيسة فيه، والمنع من بناء كنيسة أو معبد للمشركين في جزيرة العرب مما اتفق عليه أهل العلم.

- وأما ما عدا الحرم والحجاز: فهو يشمل بالنسبة للمشركين أقساماً ثلاثة: قسم أحياه المسلمون، وقسم ملكه الغانمون عنوة، وقسم صُولح عليه أهله.

القسم الأول: فأما القسم الذي أحياه أو مصَّره المسلمون مثل: البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة ونحو ذلك مما أنشأه المسلمون في القديم أو الحديث، فهذه البلاد صافية للإمام إن أراد أن يقرَّ أهل الذمة بالسكنى فيها جاز، فلو أقرَّهم على أن يحدثوا فيها بيعة أو كنيسة أو يظهروا فيها خمراً أو خنزيراً أو ناقوساً لم يجز، وإن شرط ذلك وعقد عليه الذمة كان العهد والشرط فاسداً، وهو اتفاق من الأمة لا يعلم بينهم فيه نزاع[9]. وحقوق أهل الذمة عند المسلمين أَوْلى وآكد من المعاهَدين والمستأمَنين؛ لأن أهل الذمة من رعايا دار الإسلام ومواطنيها، فإذا لم يجز لأهل الذمة مع ذلك إحداث كنيسة أو بيعة في المدن التي أنشأها المسلمون؛ فمن باب أولي لا يجوز - ذلك - للمعاهدين أو المستأمنين.

”ما أنشاه المسلمون من المدن لا يجوز أن تبنى فيه معابد يشرَك فيها بالله تعالى“

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم (٣٣١٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٢٨٢٥). ومسلم في صحيحه، رقم (٣٠٨٩).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن من حديث أبي عبيدة بن الجراح، قال الألباني: صحيح؛ انظر: حديث رقم: ٤٦١٧، في صحيح الجامع.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٢١٧٠).
(٥) الأحكام السلطانية، لأبي الحسن الماوردي، ٢١٢. والأحكام السلطانية، لأبي يعلى، ١٩٦.
(٦) تفسير القرطبي: ٨/ ١٠٤، والمخاليف: جمع مخلاف وهي قرى اليمن.


(٧) شرح النووي على صحيح مسلم.
(٨) فتح الباري.
(٩) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ٣/ ١١٧٨.

وقد نقل ابن القيم كثيراً من أقوال أهل العلم التي تدل على ما تقدم، ثم علَّق عليها بقوله: «وهذا الذي جاءت به النصوص والآثار هو مقتضى أصول الشرع وقواعده؛ فإن إحداث هذه الأمور إحداث شعار الكفر، وهو أغلظ من إحداث الخمَّارات والمواخير، فإن تلك شعار الكفر، وهذه شعار الفسق، ولا يجوز للإمام أن يصالحهم في دار الإسلام على إحداث شعائر المعاصي والفسوق، فكيف إحداث موضع الكفر والشرك؟»(١).

وذلك أن الإسلام هو دين الحق وكل ما عداه من الدين باطل، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه، واليهود والنصارى بعد مجيء الإسلام يكفرون ببقائهم على دينهم وترك الدخول في الإسلام، لا ينكر هذا أو يجادل فيه إلا من رضي بترك الإسلام وراءه ظهرياً.

والنصارى لا يوحدون الله في كنائسهم ولا يعبدونه بل يشركون به، ويعبدون معه غيره، والمسلمون مأمورون بعبادة الله والدعوة إلى ذلك ومنع الشرك بالله في الأرض حسب طاقتهم واستطاعتهم، فالإسلام في دعوته لغير المسلمين إنما يريد لهم الخير والسعادة الأبدية، فمن كان هذا توجهه وله قدرة واستطاعة على تحقيق ذلك فكيف يُلام عليه ويطلب منه التقاعس عن أداء هذا الأمر؟ وأقل ما يمكن عمله في هذا الجانب هو عدم مساعدتهم على شركهم والتي منها عدم السماح ببناء كنائس ومعابد في أمصار المسلمين يشركون فيها بالله - تعالى - ويسبّونه.

وقد أورد ابن القيم سؤالاً فقال: «فإن قيل: فما حكم هذه الكنائس التي في البلاد التي مصَّرها المسلمون؟

قيل: هي على نوعين؛ أحدهما: أن تُحْدَث الكنائس بعد تمصير المسلمين لمصر؛ فهذه تُزال اتفاقاً.

والثاني: أن تكون موجودة بفلاة من الأرض، ثم يمصِّر المسلمون حولها المصر، فهذه لا تُزال، والله أعلم»(٢).

وقال ابن قدامة: «وما وجد في هذه البلاد (التي مصَّرها المسلمون) من البِيَع والكنائس، مثل: كنيسة الروم في بغداد، فهذه كانت في قرى أهل الذمة (قبل التمصير)، فأُقرت على ما كانت عليه»(٣).

وأما البلدان التي أسلم أهلها عليها فحكمها حكم ما مصَّره المسلمون.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في تفسير التمصير: «يكون التمصير على وجوه، فمنها: البلاد التي يُسلِم عليها أهلها؛ مثل: المدينة والطائف واليمن، ومنها: كل أرض لم يكن لها أهل فاختطها المسلمون اختطاطاً ثم نزلوها؛ مثل: الكوفة والبصرة وكذلك الثغور، ومنها: كل قرية افتتحت عنوة، فلم يرَ الإمام أن يردَّها إلى الذين أخذت منهم، ولكنه قسمها بين الذين افتتحوها؛ كفعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر، فهذه أمصار المسلمين، التي لا حظَّ لأهل الذمة فيها، إلا أن رسول الله ﷺ كان أعطى خيبر اليهود معاملةً لحاجة المسلمين كانت إليهم، فلما استُغني عنهم أجلاهم عمر، وعادت كسائر بلاد الإسلام، فهذا حكم أمصار العرب، وإنما نرى أصل هذا من قول رسول الله ﷺ: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»(٤).

القسم الثاني: وأما القسم الذي ملكه أو فتحه المسلمون من أرض الكفار عنوة؛ أي: بالقوة؛ فقد اختلف أهل العلم في جواز عقد الإمام الذمة لهم مع إبقاء معابدهم التي وجدت قبل الفتح بأيديهم، «فمنهم من قال: لا يجوز تركها بأيديهم بل يملكها المسلمون يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، ومنهم من قال: يجوز إقرارهم فيها إذا اقتضت المصلحة ذلك؛ كما أقرَّ النبي ﷺ أهل خيبر فيها، وكما أقرَّ الخلفاء الراشدون الكفار على المساكن والمعابد التي كانت بأيديهم.

ومنهم من قال: يخير الإمام بين الأمرين بحسب المصلحة، قال ابن تيمية: «وهذا قول الأكثرين، وهو مذهب أبي حنيفة، وأحمد في المشهور عنه، وعليه دلَّت سنة رسول الله ﷺ حيث قسم نصف خيبر وترك نصفها لمصالح المسلمين»(٥).

القسم الثالث: وأما القسم الذي صُولح عليه أهله فهو على ما صُولحوا عليه؛ فإن صولحوا على إبقاء معابدهم المتقدم بناؤها بأيديهم بقيت بأيديهم ولا يجوز انتزاعها منهم بعد ذلك من غير سبب يوجبه؛ كنقضهم للعقد. وإن صُولحوا على جواز أن يحدثوا كنيسة إذا احتاجوا إليها فينبغي الوفاء لهم بما صُولحوا عليه.

"أرض الصلح يعمل فيها من حيث إبقاء المعابد أو استحداثها أو هدمها على حسب ما جاء في الاتفاق"

«وما فُتح صلحاً نوعان؛ أحدهما: أن يصالحهم على أن الأرض لهم ولنا الخراج عنها فلهم إحداث ما يحتاجون فيها؛ لأن الدار لهم، والثاني: أن يصالحهم على أن الدار للمسلمين ويؤدون الجزية إلينا؛ فالحكم في البِيَع

(١) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ٣/ ١١٨٥.
(٢) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ٣/ ١١٨٥.
(٣) المغني والشرح الكبير: ١٠/ ٦١٠.

(٤) الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام.
(٥) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ٣/ ١١٩٠.

والكنائس على ما يقع عليه الصلح معهم من إحداث ذلك وعمارته»[1].

وفي جميع الأحوال المتقدمة فإنه لا يجوز إحداث كنيسة أو بيعة أو معبد من معابد المشركين في أرض المسلمين إلا أن يكونوا في قرية يسكنونها منفردين وصُولحوا على جواز إحداث كنيسة أو بيعة، أو أن الصلح بين المسلمين والمشركين تمَّ على أن تكون ملكية بلادهم باقية في أيديهم وللمسلمين خراجها، أو صُولحوا على مال يبذلونه - وهي الهدنة - فحينئذ يمكنهم إحداث ما أرادوه واحتاجوا إليه، ولا يمنعون منه؛ لأن الدار دارهم، وأقوال أهل العلم من المذاهب المتعددة تكاد تتطابق في أحكام هذا الباب ولا يوجد خلاف بينهم إلا في بعض التفاصيل التي لا علاقة لها بأصول الأحكام في هذا الباب.

وقد نقل بعض الناس عن أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - فأطلق عنه القول بجواز بناء كنيسة في بلاد المسلمين ولم يبين ما الذي أجازه أبو حنيفة، وهو بذلك يروم إلى جعل المسألة خلافية، وكأنه يقول: قد اختلف أهل العلم في ذلك، ومن حقي أن أختار من كلام أهل العلم ما أراه محققاً لمقاصد الشرع ونحو ذلك من الكلام، لكن بالرجوع إلى كتب الحنفية يتبين وجه الحق في ذلك، ويظهر أنه لا خلاف بينهم وبين الجمهور في عدم جواز إحداث معابد المشركين في أمصار المسلمين؛ ففي فتح القدير للكمال ابن الهمام شرح الهداية للمرغيناني (مع مراعاة الاختصار لما لا نحتاج إليه في ذلك): «ولا يجوز إحداث بيعة ولا كنيسة في دار الإسلام... وهذا في الأمصار دون القرى؛ لأن الأمصار هي التي تقام فيها الشعائر فلا تعارض بإظهار ما يخالفها، وقيل: في ديارنا يمنعون من ذلك في القرى أيضاً؛ لأن فيها بعض الشعائر، والمروي عن صاحب المذهب يعني: أبا حنيفة [في جواز الإحداث إنما هو] في قرى الكوفة؛ لأن أكثر أهلها - آنذاك - أهل الذمة، وفي أرض العرب يمنعون من ذلك في أمصارها وقراها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)» [فالمذكور جوازه عن أبي حنيفة هو ما كان في قرى الكوفة، وعلل ذلك بأن أكثر أهلها أهل الذمة، مع أن من فقهاء مذهبه من يخالفه في ذلك]. قال الشارح ابن الهمام في شرحه للكلام المتقدم: «وقيّد المصنف عموم دار الإسلام بالأمصار دون القرى؛ لأن الأمصار هي التي تقام فيها الشعائر، فإحداثها فيها معارضة بإظهار ما يخالفها فلا يجوز، بخلاف القرى، ثم ذكر أن في قرى ديارنا أيضاً لا تحدث في هذا الزمان».

ثم ذكر المصنف وتبعه الشارح أن أهل الذمة لا يمكَّنون من نقل معبدهم من مكانه إلى مكان آخر، وعلَّلوا أن النقل إحداث لمعبد شركي في مكان لم يكن فيه، وإليك كلامهم: «غير أنهم لا يمكَّنون من نقلها من مكان إلى آخر؛ لأنه إحداث في الحقيقة في ذلك المكان المنقول إليه فلا يجوز».

وذكر الشارح أن أمصار المسلمين ثلاثة، وقال: «ما مصَّره المسلمون كالكوفة والبصرة وبغداد وواسط؛ فلا يجوز فيه إحداث بيعة ولا كنيسة ولا مجتمع لصلاتهم ولا صومعة؛ بإجماع أهل العلم، ولا يمكَّنون فيه من شرب الخمر واتخاذ الخنازير وضرب الناقوس». فذكر إجماع أهل العلم على أن الإحداث في أمصار المسلمين لا يجوز، ثم قال: «**وثانيها**: ما فتحه المسلمون عنوة؛ فلا يجوز فيها إحداث شيء بالإجماع»، فذكر الإجماع أيضاً.

وذكر اختلاف أهل العلم فيما يفعل في المعابد المقامة قبل الفتح واختار أن تجعل: «كنائسهم مساكن، ويمنع من صلاتهم فيها ولكن لا تُهدم»، ثم قال: «**وثالثها**: ما فتح صلحاً؛ فإن صالحهم على أن الأرض لهم والخراج لنا جاز إحداثهم، وإن صالحهم على أن الدار لنا ويؤدون الجزية فالحكم في الكنائس على ما يوقع عليه الصلح؛ فإن صالحهم على شرط تمكين الإحداث لا يمنعهم، إلا أن الأَوْلى أن لا يصالحهم إلا على ما وقع عليه صلح عمر - رضي الله عنه - من عدم إحداث شيء منها». فقد بيَّن جواز إحداثهم للمعابد لو وقع الصلح على ذلك لكنه يقول: إن الأَوْلى أن لا يصالحهم على جواز الإحداث بل يصالحهم على عدم جواز إحداث شيء كما فعل عمر رضي الله عنه.

ثم تحدَّث الشارح بتفصيل عن الكنائس التي وجدت في أمصار المسلمين - بما يتضح فيه مذهب الحنفية بجلاء - وعن كيفية وجود هذه الكنائس؟ فقال: «إنا رأينا كثيراً منها [الكنائس] توالت عليها أئمة وأزمان وهي باقية لم يأمر بهدمها إمام، فكان متوارثاً من عهد الصحابة رضي الله عنهم، وعلى هذا لو مصَّرنا برية فيها دير أو كنيسة [قبل التمصير] فوقع في داخل السور فينبغي أن لا يهدم؛ لأنه كان مستحقاً للأمان قبل وضع السور، فيحمل ما في جوف القاهرة من الكنائس على ذلك؛ لأنها كانت فضاء فأدار العبيديون عليها السور ثم فيها الآن كنائس، ويبعد من إمام تمكين الكفار من إحداثها جهاراً في جوف المدن الإسلامية،

(١) المغني والشرح الكبير: ١٠/٦١١.

فالظاهر أنها كانت في الضواحي فأدير السور عليها فأحاط بها، وعلى هذا فالكنائس الموجودة الآن في دار الإسلام غير جزيرة العرب كلها ينبغي أن لا تهدم؛ لأنها إن كانت في أمصار قديمة فلا شك أن الصحابة أو التابعين حين فتحوا المدينة علموا بها وأبقوها، وبعد ذلك ينظر؛ فإن كانت البلدة فُتحت عنوة حكمنا بأنهم أبقوها مساكن لا معابد، فلا تهدم ولكن يمنعون من الاجتماع فيها للتقرب، وإن عرف أنها فتحت صلحاً حكمنا بأنهم أقروها معابد فلا يمنعون من ذلك فيها بل من الإظهار»، أي: لا يمنعون من الاجتماع فيها للتقرب ولكن يمنعون من إظهار ذلك.

ثم بيَّن الشارح معنى قول أبي حنيفة فقال: «والمروي عن صاحب المذهب يعني أبا حنيفة - رضي الله عنه - كان في قرى الكوفة؛ لأن أكثر أهلها أهل ذمة، بخلاف قرى المسلمين اليوم، ولذا قال شمس الأئمة في شرحه في كتاب الإجارات: الأصح عندي أنهم يمنعون عن ذلك في السواد، وإن كان هو في السير الكبير قال: إن كانت قرية غالب أهلها أهل الذمة لا يمنعون، وأما القرية التي سكنها المسلمون اختلف المشايخ فيها على ما ذكرنا، فصار إطلاق منع الإحداث هو المختار فصدق تعميم القدوري منعها في دار الإسلام»[1].

وفي حاشية رد المحتار كلام قوي جداً في الرد على من قال بجواز إحداث الكنائس في القرى قال: «لا يجوز إحداث كنيسة في القرى، ومن أفتى بالجواز فهو مخطئ، ويحجر عليه قوله: (ولو قرية في المختار)، نقل تصحيحه في الفتح عن شرح شمس الأئمة السرخسي في الإجارات، ثم قال: إنه المختار، وفي الوهبانية: إنه الصحيح من المذهب الذي عليه المحققون، إلى أن قال: فقد علم أنه لا يحل الإفتاء بالإحداث في القرى لأحد من أهل زماننا بعدما ذكرنا من التصحيح، والاختيار للفتوى وأخذ عامة المشايخ، ولا يلتفت إلى فتوى من أفتى بما يخالف هذا، ولا يحل العمل به ولا الأخذ بفتواه، ويحجر عليه في الفتوى، ويمنع؛ لأن ذلك منه مجرد اتباع هوى النفس، وهو حرام؛ لأنه ليس له قوة الترجيح، لو كان الكلام مطلقاً، فكيف مع وجود النقل بالترجيح والفتوى، فتنبَّه لذلك، والله الموفق»[2].

وهناك تعقب في حاشية رد المحتار على منع الإحداث فيما فتح عنوة قال: «ليس على إطلاقه أيضاً بل هو فيما قسم بين الغانمين أو صار مصراً للمسلمين، فقد صرح في شرح السير بأنه لو ظهر على أرضهم وجعلهم ذمة لا يمنعون من إحداث كنيسة؛ لأن المنع مختص بأمصار المسلمين التي تقام فيها الجُمع والحدود، فلو صارت مصراً للمسلمين منعوا من الإحداث، ولا تترك لهم الكنائس القديمة أيضاً، كما لو قسمها بين الغانمين لكن لا تهدم، بل يجعلها مساكن لهم؛ لأنها مملوكة لهم، بخلاف ما صالحهم عليها قبل الظهور عليهم، فإنه يترك لهم القديمة ويمنعهم من الإحداث بعدما صارت من أمصار المسلمين»[3].

فهذه أقوال علماء من أكبر علماء الحنفية علماً وإحاطة بالمذهب، وكتب المذهب كلها تجري على ذلك، ولولا الإطالة التي تكون غير مناسبة في مقال وليس كتاباً لنقلت من كتب الحنفية أقوالهم في ذلك التي تبين اتفاقهم على ذلك الكلام، فهل تجد فيها هذا الإطلاق والموافقة على جواز الإحداث في أمصار المسلمين كما أوهم من أفتى بذلك واحتج بأبي حنيفة؟!

قال: ابن عابدين الحنفي: "من أفتى بجواز إحداث كنيسة في قرى المسلمين فهو مخطئ ويُحْجَر عليه في الفتوى"

وخلاصة الكلام المتقدم:

١ - أن ما مصَّره المسلمون فلا يجوز إحداث كنيسة أو بيعة فيه باتفاق أهل العلم، وأن ما وجد من ذلك في بعض أمصار المسلمين فقد كان قائماً قبل التمصير، فلما مُصِّر المصر وامتد واتسع دخلت فيه هذه المعابد فلم يجب هدمها؛ لأنها سابقة على التمصير.

٢ - ما فتحه المسلمون عنوة أي: بقهر السيوف فالذي جرى به عمل الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن لا تهدم المقامة قبل الفتح وتظل كنيسة كما هي، وللحنفية رأي أنها لا تهدم لكن لا تصير كنيسة بل تصير سكناً (وهناك قول بوجوب هدمها)، وأما الإحداث فالذي عليه جمهورهم أنه لا يجوز، وهناك قول عند الحنفية أن المنع من الإحداث

(١) المصر في الاصطلاح: بلدة كبيرة فيها سكك وأسواق، وفيها والٍ يقدر على إنصاف المظلوم من الظَّالم والنَّاس يرجعون إليه في الحوادث، وتصلى فيها الجُمع وتقام فيها الحدود، وأما القرية في الاصطلاح فهي: العمارة المجتمعة الَّتي ليس فيها حاكم شرعي ولا شرطي ولا أسواق للمعاملة، والمصر بلا شك أعظم من القرية.

(٢) حاشية رد المحتار، لابن عابدين، ٤/ ٣٨٥.

(٣) حاشية رد المحتار، لابن عابدين، ٤/ ٣٨٦.

مختص بما قسم بين الغانمين، أو صار مصراً للمسلمين، لكن لو ظهر عليهم وجعلهم أهل ذمة فإنه يجوز لهم الإحداث، وهذا القول عندهم ليس على إطلاقه؛ فلو صارت مصراً بعد ذلك مُنعوا من الإحداث، ولا تترك لهم الكنائس القديمة أيضاً لكنها لا تهدم وإنما تصير مساكن لهم، ومع ذلك فإن القول بجواز الإحداث في أرض العنوة لم يوافقهم عليه أحد من علماء المسلمين.

٣ - ما صُولح عليه المشركون فإنه يُوفَّى بما صولحوا عليه من إبقاء القديم وإحداث الجديد.

● شبهات لا وزن لها:

هناك من يذكر بعض الشبهات على ما تقدم تقريره وهي شبهات لا وزن لها، فمن ذلك:

١ - أن عدم السماح ببناء معابد للمشركين يعني رفض الآخر وعدم السماح بحرية التدين أو ممارسة ما يعتقده من عبادات:

وهذا تصوير فاسد للقضية، فلو كانت المسألة على ما يصورونه من أنه رفض للآخر لما وجد في بلاد المسلمين من يدين بغير الإسلام، ولخُيِّر هؤلاء بين الإسلام، أو ترك البلاد والهجرة منها، أو القتل، كما حدث في الأندلس (إسبانيا) مع المسلمين حينما غلب عليها النصارى. وأما القول بعدم حرية التدين فقول ساقط؛ فإن أحداً منهم لم يجبر على ترك دينه. وأما المنع من ممارسة ما يعتقده من عبادات فبإمكان الواحد منهم أن يعبد بما شاء - لو أراد - في بيته وسكنه وليس يمنعه من ذلك إلا تكاسله هو عن أداء ما يعتقده من العبادة، وليس هناك تلازم بين ممارسة ما يعتقده من عبادات وبين بناء معابد للمشركين في بلاد المسلمين.

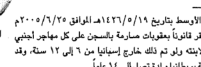
٢ - أن النصارى في الغرب يسمحون للمسلمين ببناء المساجد فينبغي أن يعاملوا بالمثل:

أولاً: المسلمون يُمنعون من كثير من أمور دينهم ولا يسمح لهم بها، فالحجاب - مثلاً - تمنع منه النساء المسلمات في كثير من بلاد النصارى كما حدث في فرنسا وغيرها، والمسلمون ممنوعون أيضاً في أمريكا من الزواج بزوجة ثانية؛ لأن القانون الأمريكي يمنع من ذلك، وهناك بلدان تمنع ختان الإناث رغم أنه أمر مشروع في ديننا، بل بلغ من طغيانهم أنهم يحاولون إلزام المسلمين به في بلادهم عن طريق قرارات الأمم المتحدة، بل بلغ الأمر بدولة مثل بريطانيا وإسبانيا أن تفرض عقوبة صارمة بالسجن على من يختنون بناتهم ولو حدث ذلك خارج البلاد[1]. ومن جانب آخر فليس من المعقول أن نكافئ دول الغرب على تمسكها بقانونها العَلْماني الذي يتيح لكل طائفة أن يكون لها معابدها الخاصة بها بأن نخالف (قانوننا الخاص) ونبيح لهم ما تمنعه الشريعة، وليس معنى أن يوافق هؤلاء على ظهور رموز التوحيد في بلادهم أن نوافق نحن على ظهور رموز الشرك في بلادنا.

٣ - فتوى أحد العلماء بجواز بناء الكنيسة في أمصار المسلمين بناء على حق ولي الأمر في ذلك انطلاقاً من فقه السياسة الشرعية؛ التي تقوم على رعاية مقاصد الشرع ومصالح الخلق:

وهذا لا شك كلام ساقط لا قيمة له؛ إذ هو مجرد تصورات من قائله ليس فيه قال الله - تعالى - وقال رسوله ﷺ، وهو في الوقت نفسه مخالف لما تقدم نقله من الأدلة ومن أقوال أهل العلم. وأما القول: إن هذا السماح من حق ولي الأمر في ذلك انطلاقاً من فقه السياسة الشرعية؛ فالمعلوم أن ولي الأمر مهما بلغ فليس من حقه مخالفة الأحكام الشرعية، وأنه لا طاعة له فيما خالف فيه الشريعة، وأن عصيانه فيما خالف فيه الشريعة هو الواجب المتعين. وأما الزعم بأن هذا العمل يُعدُّ من رعاية مقاصد الشرع؛ فهذا من الكذب على الدين؛ إذ ليس في السماح بإعلان شعار الكفر في أمصار المسلمين أي رعاية لمقاصد الشرع بل هي على الضد من مقاصد الشرع. وأما القول: إن هذا من مصالح الخلق فقد يكون هذا صواباً بالنسبة للكفار وأن ذلك مصلحة لهم، لكنه في الوقت نفسه ليس فيه مصلحة للمسلمين بل فيه المفسدة، ولست أدري بأيِّ فقه تغلب مصلحة مئات أو ألوف على مصلحة مئات الألوف أو الملايين!

نسألك اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلى أن تبرم لهذه الأمة أمرَ رُشْدٍ يُعزُّ فيه أهل طاعتك ويُذَلُّ فيه أهل معصيتك، ويُؤمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر، إنك قريب مجيب يا ذا الجلال والإكرام!



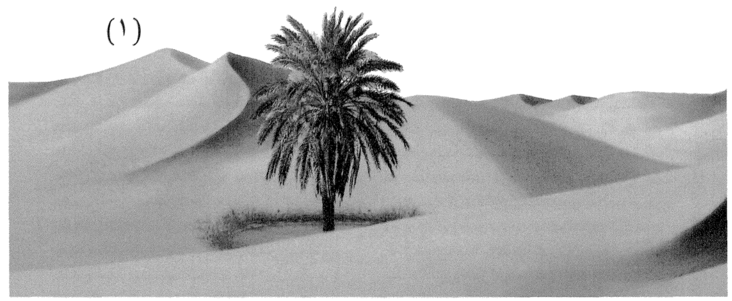
(١) نشرت جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٩/٥/١٤٢٦هـ الموافق ٢٥/٦/٢٠٠٥م أن البرلمان الإسباني أقر قانوناً بعقوبات صارمة بالسجن على كل مهاجر أجنبي يجري عملية الختان لابنته ولو تم ذلك خارج إسبانيا من ٦ إلى ١٢ سنة، وقد سبقتها إلى تلك العقوبة بريطانيا ولمدة تصل إلى ١٤ عاماً.



مؤسسة الحل والعقد

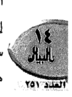
من أضاعها؟ ومن يعيدها؟

(١)



د. عبد العزيز كامل
kamil@albayan.co.uk

عندما انفرط عقد الأمة بإسقاط الخلافة العثمانية منذ ما يزيد على ثمانين عاماً؛ تناثرت أجزاؤها على شكل كيانات ودويلات متنافرة المناهج.. متعددة الوجهات، فقامت الدول القومية والوطنية، ونشأت ملكيات وجمهوريات وإمارات وسلطنات، لا تجمعها إلا الفُرقة ولا تُحرِّكها إلا الأهواء. وقد كان الواجب على علماء الأمة وعقلائها منذ وقعت كارثة انفصال السلطان عن القرآن؛ أن يتداركوا خطر هذا الأمر من بدايته، فيتداعوا إلى بذل المستطاع لإعادة شعوب الأمة إلى الانتظام في سلك جامعة سياسية شرعية جديدة؛ كما أمر الله، وكما هو معروف من وجوب نصب إمام عام عند موت القائم بالأمر أو غيابه، إلا أن ذلك السعي الجماعي الجاد لم يحدث إلا من بعض الغيورين كالشيخ (محمد رشيد رضا) الذي حاول جاهداً أن يعيد نظم ما انفصم ورقع ما انقطع، لكن محاولاته لم تكلَّل بالنجاح؛ لأن الوهن الذي غلب على رموز الأمة وقتها كان أقوى من بأس الشيخ وأمضى من عزيمته، حيث انتقل الوهن من شرايين القادة السياسيين إلى عروق القادة الدينيين، ثم تكررت محاولات هنا وهناك، ولكنها لم تكن أسعد حظاً من محاولة الشيخ (رشيد رضا)؛ لأن أكثر تلك المحاولات كان يرتبط بمصالح أشخاص أو هيئات، أكثر منه ارتباطاً بمصالح الأمة، ولم يكن ذلك يعني شغور الزمن وقتها من الرموز العلمية، كشغوره من القيادة السياسية العامة؛ فقد كانت هناك شريحة لا بأس بها من أهل العلم ورموز الدعوة؛ لكن تلك الرموز تفرَّق جمعها في شتات الكيانات الجديدة التي أحدثها الأعداء في الداخل والخارج.



أُسُّ البلاء:

كان ربط العلماء بعجلات الكيانات المتناثرة المتفرقة ربطاً محكماً هو الضمانة الوحيدة لاستمرار أزمة الفرقة في الأمة كلها؛ حيث لا اجتماع لها دون اجتماع عليهم، وما داموا متفرقين في شتات الحكومات؛ فهيهات هيهات أن يعود ما فات من الوحدة الشرعية الجامعة للمسلمين؛ لأن أكثر تلك الحكومات الحادثة وقتها كان بقاؤها وحضورها يعتمد على ذهاب الكيان السياسي الإسلامي الجامع وغيابه، ووهن الكيان العلمي الشرعي الموحَّد؛ حيث اعتبرت غالب الأنظمة المستبدة المتحكمة في أمور المسلمين أنَّ السَّعي لاستعادة هذا الكيان الإسلامي بقسمَيْه - السياسي والعلمي - أو تكوينه أو حتى الاهتمام به؛ هو خط أحمر لا يُسمح بتجاوزه لا نظرياً ولا عملياً.

وإمعاناً في استبعاد الجامعة الإسلامية أو الخلافة من العودة إلى ضمير الأمة فضلاً عن واقعها؛ أُنْشِئت (الجامعة العربية) على أسس عَلْمانية؛ لتكون رابطةً بديلةً لشعوب العرب وحكوماتهم، ثم أُنْشِئت (منظمة المؤتمر الإسلامي)؛ للإيهام بأنَّ هناك رابطة سياسية عامة ومؤثرة تجمع شعوب العالم الإسلامي وحكوماته، لكن الجميع يعلم أنَّه لا الجامعة جمعت العرب على وحدة من أي نوع، ولا المؤتمر كان له أيُّ أمر في تسيير أيِّ أمر، وكأنَّ شأن هذه الأمة قد دُبِّر على أنْ يظلَّ تحت قيادة زعامات وقيادات ما يُفرقها أكثر مما يجمعها، في شكل حكومات وطنية صِيغتْ سياساتها كلها على أن تظل حبيسة وأسيرة «الوطن الأصغر»، دون اكتراث بشأن الوطن الإسلامي الأكبر، وهو ما حوَّل هذه الحكومات مع الوقت إلى مستوطنات معزولة عما حولها، قد توطنت على الانعزالية والأَثَرة والانفصال، وتقديس «الحدود» السياسية الجغرافية، وكأنها من حدود الله التي من تعدَّاها فقد ظلم نفسه!

وقد مرت على الأمة عقودٌ طويلةٌ تحت قيادات هذه «الولايات غير المتحدة»، فصارت ككيان ضخم يسير إلى غير وجهة، أو كشركة عملاقة لكنها بلا رأس مدبِّر ولا عقل مفكِّر، شركةٌ بلا إدارةٍ وبلا إرادة، ولذلك لم يكن غريباً أن تتداعى على هذه الشركة كل أنواع الاختراق السياسي والعسكري والاقتصادي والاعتقادي والثقافي والسلوكي؛ حيث أصبحت كالجسد المُصاب بمرض فقدان المناعة، فلا قدرة له على الصمود أو المدافعة في أيِّ مجالٍ من مجالات الاختراق.

إذا أمعنَّا النظر في أُسِّ ذلك البلاء؛ وجدنا أن سببه الأكبر هو توسيد الأمر إلى غير أهله، ومعلوم أن الأمر إذا وُسِّد أو أُسند إلى غير أهله فإن ذلك مُؤْذِن باختلال كل شيء منتظم، بدءاً من شؤون الأسرة، ومروراً بشؤون المجتمع والدولة، وصعوداً إلى حال الأمة، وانتهاء بأحوال الدنيا كلها، حيث يجيء اختلال أمر العالم بذلك الشأن الشاذ، ولذلك كانت إجابة النبي ﷺ لمن سأله: متى الساعة؟ أن قال له: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهْلِه فانتَظرِ السَّاعَة»(1).

وقد وُسِّد الأمر إلى غير أهله في أكثر أوطان المسلمين، عندما اختلت المعايير التي يُختار بها الرجال، أو بمعنى أدق: عندما استُبعِد الأُمناء الحكماء الخُبراء الذين من شأنهم أن يختاروا ويراقبوا القادة من الرجال، وهم الشريحة التي اصطُلِحَ على تسميتها في الشريعة بـ (أهل الحل والعقد) والمكونة من العلماء والحكماء وأهل الرأي والتأثير، والتي تعد طائفة العلماء هي العمود الفقري لها.

لقد أوجد غياب أو تغييب هذه الهيئة أو المؤسسة أو المجموعة الخاصة من الأمة المسماة بـ (أهل الحل والعقد)؛ خللاً في هيكلية تسيير الأمور في الأمة بمجموعها، فصارت كرعيةٍ بلا راعٍ، أو كسفينةٍ بلا رُبَّان، وهو ما أوقع الأمة في ظرفٍ استثنائي طويل، غير طبيعي وغير معقول.

فالأمة التي كان يجمعها منذ هاجر نبيها ﷺ كيان واحد تحت لواء الشريعة، أو أكثر من كيان لكن تحت ذلك اللواء؛ تعددت كياناتها بتعدد لواءاتها التي كان أكثرها ولا يزال مجافياً للشريعة أو منافياً لها؛ بسبب استبعاد حَمَلتها وحُماتها وإقصائهم عن وظيفتهم التي حدَّدها كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهدي الخلفاء الراشدين(2).

وبعد أن فُرِّغ مكان الولاية العلمية (أهل الحل والعقد) على المستوى العام للأمة، وجرت المحاولات لإبقائه غائباً مع تغييب الولاية السياسية العامة؛ استمر إصرارٌ عنيدٌ وجديد من غالب الحكومات الوطنية والقومية الحادثة؛ على تغييب الدور السياسي للولاية العلمية وتقييده حتى في داخل تلك

(1) أخرجه البخاري، برقم (59).

(2) سيأتي تفصيل عن هذا التفسير.



الأُطُر الحكومية الضيقة، لينفرد الساسة والعَلْمانيون فقط بالحلِّ والعقد في شؤون الأمة دون رقيب أو حسيبٍ من نواب الأمة ونقبائها الحقيقيين، ولا شك أنَّ هذا كان سرَّ بقاء البلاء المدخول على الأمة منذ غياب الدور الفاعل للعلماء في قيادتها، وفي التصدي لأمر الحل والعقد فيها.

ولكن بلاءً أكبر وظاهرة جديدة بدأت في السنوات الأخيرة، وهي أنَّ تلك القيادات السياسية العازلة والمعزولة في كثير من البلدان هي نفسها بدأ يختفي دورها وتأثيرها هي الأخرى في كثير من بلدان المسلمين، عن طريق اغتيالات أو انقلابات أو عمليات غزو تُسقط بها الحكومات، أو عن طريق شلل تام للقدرة على التحكم في الأمور، وهو توجه نحو إفساد الدنيا بعد إبعاد الدين، والعجيب أنه لم يحدث إلا في بلاد المسلمين، مثلما صار مؤخراً في بلدان (كالصومال وأفغانستان والعراق والشيشان وفلسطين)، وهو ما أوجد فراغاً في القيادة السياسية إلى جانب الفراغ القديم في مكان القيادة العلمية! فصارت تلك البلدان المبتلاة بلا قيادة سياسيةٍ ولا دينية، وهو الأمر الذي فرض ضرورة أن تنتدب طائفة من الشعب في مثل تلك الظروف الطارئة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، مثلما صار من حركة طالبان والمحاكم الإسلامية وحركة حماس ومجاهدي الشيشان والمجاهدين في العراق.

وقد غلب على هذا الفريق المنتدب للإنقاذ أنه كان من طائفة أهل العلم أو تلاميذهم، أو نتاج دعوتهم من الحركيين



أو المجاهدين، ففي تلك الحالات المذكورة برزت هذه الحركات لمحاولة ملء الفراغ الناشئ عن غياب السلطة بصورة حادة، أقول: لو كان لمؤسسة (أهل الحل والعقد) وجود وتأثير في الأمة - على المستويات العامة أو الخاصة - لقلَّل ذلك الكثير من فداحة مثل تلك الأزمات، لكن غيابها فاقم من فداحتها.

إنَّ النِّظام السياسي الإسلامي الذي لن تستقيم حال الأمة إلا به؛ قد جعل لهذه الشريحة المسماة بـ (أهل الحل والعقد) صلاحيات لا يصلح أن تُعطَّل أو تُبدَّل، فلهم منزلة مستوحاة من صريح القرآن وصحيح السنة، لا يمكن أن يتخطاها إلا خاطئ أو يتعداها إلا عدو، فأمر الأمة على الحقيقة يؤول إليهم، وصلاحها - بعد توفيق الله - موقوف عليهم، فهم الذين يولُّون ولاتها، ويُقرُّون أو يقيِّدون قادتها ويراقبون أداءهم ويقومون أخطاءهم، ولا يصلح لأحد في الأمة كائناً من كان أن يقطع في أمر ذي بال دونهم، أو يُصدر قراراً مصيرياً دون الرجوع إليهم؛ فهم على الحقيقة (أولو الأمر)؛ إما انفراداً أو شراكةً، على حسب ما اختلف أهل العلم في تفسير المراد بـ (أولي الأمر) في قول الله - تعالى -: ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، حيث ذهب بعضهم إلى أن المراد: «العلماء»، وقال بعضهم: «الأمراء»، وقال آخرون: هم العلماء والأمراء، وأكثر هؤلاء نصوا على أن أمر الأمراء يرجع في النهاية إلى العلماء[1]، واستدل من رجحوا أن الأمر يعود إلى العلماء بقول الله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال القرطبي: «يدل على صحته قوله - تعالى -: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩]، فأمر الله - تعالى - بردِّ المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة»[2]، وقال ابن القيم - رحمه الله -: «والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء؛ فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول؛ فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء».

ولما غاب هؤلاء العلماء أو غُيِّبوا عن ساحة التأثير في مجريات الشؤون العامة للأمة؛ اختلطت الأمور، واعوجت السبل، وغشيت الرؤية؛ لأن الناس من خاصة أو عامة لم يعد لهم إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف مرجع يرجعون إليه، أو هيئة يصدرون عن رأيها ويردون الأمر إليها، وذلك في أكثر بلدان العالم الإسلامي، حيث الكل مشغول عن الكل

(١) انظر أقوال أهل العلم في: تفسير القرطبي الآية (٥٩) من سورة النساء، وكذلك في تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير القرطبي: (٣/١٨٣٠).



في عالم السياســة العَلْمانية المعزول عن الدين وعن مصالح مجموع المسلمين.

يمكننا أن نرصد الكثير والكثير من آثار عزل (مؤسســة أهــل الحل والعقد) عن توجيه الأمة، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد أولاً من وقفات إيضاحية مع ماهية هذه المؤسسة المغيَّبة، وأبعاد تأسيسها في النظام الإسلامي، وكيفية تكوينها وشــروط أعضائها ووظائف كيانها المختص بخصائص تُمَيِّز أعضاءها بوصفهم أهلاً للشــورى والرأي والحل والعقد في الإســلام عن غيرهم في أي نظام آخر، إذ لهذه المؤسسة في كل ذلك أبعاد اعتقادية وأخلاقية، تتناسب مع أمة تميزت عن كل الأمم بأنها خير أمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

إن هناك إجماعاً مــن علماء الأمة على اعتبار الولايات من أمر الطاعات والقربات التي تفتقر إلى التأســيس على أصول الشــريعة، فهي ليســت مجرد مناصب توزَّع بمحض الهــوى المتَّبع أو المصلحة المتوهمة، وليس أمرها - كما يهوى العَلْمانيــون وغير الدينيين - صوراً شــكلية لوظائف نفعية قائمة على قواعد دنيوية بحتــة لا علاقة لها بالدين عقيدة أو شــريعة، بل كل أمور الولايات العامة على أمة الإســلام؛ بــدءاً من الإمامة العظمى، وحتى عضوية مجالس الشــورى الجامعة لأهل الحل والعقد، بل حتى إمامة الناس في الجُمع والجماعات والحج؛ كلها من أمر الشريعة، ولا مدخل للمعايير الدنيوية الصرفة فــي صياغتها أو صناعتها، إلا بما يخدم غرض العبودية لله، يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «فالواجب اتخــاذ الإمارة ديناً وقُربة يُتقرب بهــا إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رســوله من أفضل القُرُبات، وإنما يَفْسُــدُ فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرئاسة أو المال بها»[1]، فالولايات العامة في الإسلام جزء من منظومة العبودية، التي يقوم عليها منهجه في كل شيء.

وهــذه الولايات لا تقوم في ذلك المنهج الحق إلا بالدين، ولا يقوم الدين إلا بها، ولهذا حرص أعداء الشريعة الظاهرين مــن اليهود والنصارى، مع حلفائهم من المنافقين والعَلْمانيين في عصرنا؛ على الفصل التام بين المناصب السياســية وبين الديــن، وحرصوا على تثبيت الفرق بين الولاية الإســلامية الشرعية، وبين المناصب المرتبة على معايير عَلْمانية دنيوية،

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، للإمام ابن تيمية، ص (١٧٠).

مفرقين في ذلك بين ما أسموه (المجتمع المدني)[2] و(المجتمع الدينــي). مع أن النظام الإســلامي الذي نتطلــع إليه هو نــظــام لا يقوم على أي دين، إلا ديــن الحق الذي يدين به الســواد الأعظم من الأمة، والذي تُعد سياسة الناس به من أُصُول الإســلام الثابتة، لكن هؤلاء العَلْمانيين وغير الدينيين نجحوا في التنفير من اقتران الديــن بالدولة، مخوِّفين من «الثيوقراطيــة» أو (الدولــة الدينية) التــي كانت تقوم على جهل وجشــع رجال الدين في الدول النصرانية في العصور الوســطى، فحقَّق أولئك المنافقون بفصلهم الدين عن الدولة ما كان يشــتهيه ويدعو إليه أســلافهم من تبعيض الدين وجعله عِضين كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قول الله - تعالى -: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[الحجر: ٩٠ - ٩٣]

ومعنــى جعلوا القرآن عضين: أي: جعلوه أجزاءً، يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعض[3].

إن جــزءاً كبيراً من مصائب الأمــة ونوائبها في العقود بل القرون الأخيرة، إنما نشــأ من التهاون في أمور الولاية العلمية، حيث انتهى ذلك أولاً إلى ســقوط الولاية السياسية العامة المتمثلة في الخلافــة، ثم وهن ما هو أهم منها، وهو الولاية الأعمّ والأهمّ التي تعرف بـ (ولاية أهل الحل والعقد) التي تضبط مسار الأمة.

ويُعدُّ غــيــاب دور أهــل الــحــل والعــقــد - وعلى رأســهم العلــمــاء - مــن النوازل الـمُلِمَّة التــي لم تأخذ نصــيبها الكافي من البحــث والتأصيل والبحث عن حلول، حيــث لم يُناقش حلها نقاشــاً علمياً وعمليــاً جاداً، فضلاً عــن تطبيق ذلك الحل وتفعيله في واقــع الأمة. ولهذا؛ فإن من واجبات الوقت (العلميــة والعملية) في نظري؛ أن يمعن الباحــثون وأهــل الـعلم الـنـظر في جوانب هذه المســألة التــي أرى مــن خلال رصــد آثار انعزالها أن خطر غيابها كان أشــدَّ من غــياب الخلافة نفــسها؛ لأن الخلافــة

(٢) (المجتمع المدني): مصطلح غربي قام على المفهوم العَلْماني للمجتمع، وقد نشأ في مقابل (المجتمع الديني)، والمجتمع المدني تقل فيه سلطة الدولة وتزداد سلطة الأفراد، حيث يتخلى كل منهم عن قناعاته واعتقاداته الخاصة لصالح المجموع، فهو - كما يعرفه جوك لوك أحد الرموز الكبار للفكر الليبرالي - «تكوين عدد من الناس جماعة واحدة، يتخلى كل منهم عن سلطة تنفيذ الطريقة الطبيعية التي تخصه ويتنازل عنها للمجتمع».

(٣) انظر: تفسير القرطبي، والدر المنثور، تفسير الآية ٥٩ من سورة الحجر.



مـــا كان لهـا أن تبقى في هــــــذا الاختفاء الذي ناف عن ثمانين عاماً لو كان للأمة مؤسسة قائمة للحل والعقد، تُعيد بناء ما انهدم، وترميــم ما انثلم على هدي من نور الوحي، وحكمة في النظر إلى الواقع.

من هم أهل الحل والعقد؟

تنوعت الإطلاقات التي استعملها العلماء للتعبير عن (أهل الحــــل والعـقد)، فهم عند بعض العلمـــاء (أهل الاختيار)[1]، وعند بعضهم (أهل الاجتهاد)[2]، وبعضهم يُطلِقُ عليهم وصف (أهل الشوكة)[3]، وآخرون يصفونهم بـ (أهل الشورى)[4]، بينما يطلق بعض العلماء عليهم (أهل الإجماع)[5]، أما التعبير الأشمل والأكمل فهو تعبير القرآن الذي يصفهم بـ (أولي الأمر) كما في قول الله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِـي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النســاء: ٥٩]، غير أن (أولي الأمر) وصفٌ يشــــمل أصحاب الولاية السياسية، وأهل الولاية العلمية، أي: العلماء والأمراء، ومع أن هذا هو الأرجح في تفسير الآية، إلا أنـــه يبقى - على هذا القـــول - أن أهل الحل والعقد هم شطر (أولي الأمر) على الأقل، بل هم الشطر الأعم والأهم.

إن تلك الإطلاقات والتسميات والمصطلحات المذكورة؛ كل منها يضـــيف وصفاً أو وظـــيفة لهذه الهيئة الـهامة المسـماة بـ (أهل الحل والعقد)، فهم الذين يختارون، وهم الذين يشيرون ويستشارون ويجتهدون، ويُؤخذ برأيهم فيما عليه يجتمعون.

أما ذلك المصطلح نفســـه (أهل الحل والعقد)؛ فإن أول من عُرف أنه اســـتعمله هو الإمام أبو الحســــن الأشـــعري الـمُتوفَّى ســـنة ٣٣٠هـ وذلك في ســـياق كلامه عن اختلاف الفِرَق في الإمامة[6]، ثم استعمله القاضي أبو بكر الباقلاني الـمُتوفَّى سنة ٤٠٣هـ، ثم شـــاع المصطلح عند علماء الفقه والأصول والعقائد والتاريخ والسياســـة الشرعية، ولكن أكثر من استعمله منهم الإمامان البارزان في السياسة الشرعية: أبو الحسن الماوردي الشـــافعي الـمُتوفَّى ٤٥٠هـ، وأبو يعلى الفرَّاء الحنبلي الـمُتوفَّى ســـنة ٤٥٨هـــ في كتابيهما اللذين سُمِّي كل منهما بـ: (الأحكام السلطانية).

وأهل الحل والعقد بحسب الوظائف الموكولة إليهم دينياً وواقعياً؛ يشملون العلماء العاملين وأهل الرأي والاختصاص الأكفاء، وأهل القدرة والوجاهة والتأثير في الناس، فهيئتهم تجمع العلماء والزعمـــاء والوجهاء، ولكن موقع العلماء منهم هو موقع الصدارة - على ما يأتي بإذن الله -.

وإذا جئنــــا إلى تعريـــف (أهل الحل والعقـــد) فمفتاح التعريف الصحيح هنا هو مفردتا (الحل) و (العقد)، فالفئة التي يُوســـد لها ويُســـند إليها حل أو عقد في شـــيء يتعلق بجماعة المسلمين العامة، في الشؤون السياسية أو القضائية أو التشـــريعية أو التنفيذية في زمن الحرب أو الســـلم من منطلقات شرعية؛ هي أَوْلى الناس بهذه التسمية، وقد اكتفى أكثر العلماء الســـابقين في تفسير المراد بأهل الحل والعقد بالوصف الذي أطلقوه عليهم، ولم يخوضوا كثيراً في شـــرح ذلك المصطلح المستحدث في مبناه، والقديم في معناه.

وهذه بعض الأقوال التعريفية القديمة لهذه الفئة المهمة في الأمة، مع ملاحظة أنها تعريفات بالمواصفات والوظائف التي يلحظها صاحب كل تعريف:

- عرَّفهـــم ابن عابدين في حاشـــيته بأنهم: «أهل الرأي والتدبير»[7]، فهو يلحظ هنا معنى الفهم الســـديد المســـنود ببأس شديد.

- وعرَّفهم الفخر الرازي بأنهم: «أهل الاجتهاد في الأمور الشرعية»[8]، وإلى ذلك ذهب الإمام السبكي.

- وأشار الماوردي إلى المقصود بأهل الحل والعقد من خلال تقسيمه إياهم إلى صنفين من الناس، هم الموكول إليهم القيام بالأمر في المســـائل العظام مثل: نصب الإمام، إذ قال: «وإن لم يقم بذلك أحد؛ خرج من الناس فريقان؛ أحدهما: أهل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمـــة، والثاني: أهل الإمامة حتى يُنصب أحدهم للإمامة»[9]، وقريبٌ من ذلك ذهب أبو يعلى الفراء.

- ويصف ابـــن تيمية أهل الحل والعقـــد بأبرز ما يراه

---

(١) من العلماء الذين أطلقوا هذا الوصف الإمام الماوردي في الاحكام السلطانية، انظر ص (٥). والاحكام السلطانية، للفراء، ص ٦، ٢٦. وسماهم عبد القاهر البغدادي (أهل الاختيار والعدالة) في كتابه «الفرق بين الفرق»، ص ٢١١ - دار الآفاق الجديدة.

(٢) يُطلِق هذا الوصف عليهم الشيخ عبد القاهر البغدادي في كتابه «أصول الدين»، انظر ذلك في: الجزء الأول، ص (٢٧٩).

(٣) وهو المصطلح الذي يستعمله الإمام ابن تيمية كثيراً، انظر: منهاج السنة النبوية (١/١٤١).

(٤) وهي التسمية التي كانت مستعملة ومتداولة في عصر الصحابة رضوان الله عليهم.

(٥) ويسميهم بذلك الإمام القرطبي، انظر: تفسيره للآية (٥٩) من سورة النساء.

(٦) انظر: مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الاشعري (٢/١٤٨). وكتاب الإبانة، له، ص ٢٥٨.

(٧) حاشية ابن عابدين (٤/٢٦٣).

(٨) المحصول في أصول الفقه (٢/٢٠)، تحقيق: طه العلواني.

(٩) الاحكام السلطانية، ص ٥.

شــرطاً لازماً لهم، وهــو القدرة بمعناهـــا العلمي والعملي فيقول: «الإمامة عندهم - أي: أهل السـنة - تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها، ولا يصير الرجل إماماً حتى يُوافقه أهل الشوكة الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة»[1].

وقد عــرَّف بعض المعاصرين مصطلح أهل الحل والعقد في عبارات متنوعة تعكــس الأوضاع المعاصرة، ومن هؤلاء: أبو الأعلى المودودي، حيث عرَّفهم بقوله: «هم كل من له رأي من المسلمين؛ سواء كانوا علماء مفكرين، أو زعماء سياسيين، أو محافظي أقاليم، أو قضاة محاكم، أو رؤساء مجالس مدن أو قرى، أم نواباً برلمانيين، وباختصار شديد: تجب طاعة كل من كان صاحب أمر بين المسلمين، وكل من لا يستقيم الحال في حياة المجتمع المســلم بنزاعه ومخالفته بشرط أن يكون من المســلمين وأن يطيع الله ورســوله»[2]. ويُلاحَظ هنا أن كلامه يتجه إلى تعريف أهل الحل والعقد في حال الاستقرار ووجود الدولة الإسلامية.

وعرَّف الدكتور فتحي الدريني أهل الحل والعقد بقوله: «هم المنوط بهــم تدبير مصالح الأمة علــى الوجه الأجدى والأكمل، ولا يتم ذلك عقلاً إلا أن يتوافر فيهم من الشــروط ما يمكنهم من تحقيق الغاية مــن وجودهم، وأن تُراعى تلك الشروط عند اختيارهم»[3].

- وإذا حاولنا اختصار عبارات السابقين واللاحقين في تعريف جامع للصفات والوظائف التي أشاروا إليها؛ فيمكننا أن نقــول: إن أهل الحــل والعقد (هم الفئــة المؤهلة علمياً وعمليــاً للإبرام أو النقض في الأمور المهمة للأمة بحســب مقتضى الشريعة الإسلامية).

يشار إلى أن عدم اعتبار هذه المعايير في الهيئات البديلة التي جاءت مع تبديل شــرع الله هو المسؤول عن كل مصائب الأمة في كل المجالات. وهي معايير تتوزع إلى شروط نذكرها هنا لنقارن بها واقعنا، ولنصل بها إلى ما ينبغي أن يكون في أي مشروع إعادة لمؤسسة أهل الحل والعقد.

أهل الحل والعقد وشروط التأهيل:

إنَّ كل كيان كبير جاد لا بد أن تكون في مقدمة مسيرته فئة من ذلك النــوع القائد الذي يملك القــدرة على النظر وإعطاء الــرأي وتوجيه الدفة. ولكــن مواصفات تلك الفئة تختلف باختلاف الشروط المشــترطة فيها بحسب الديانة أو المذهب السياسي أو الفكري أو العقدي، فبِغضِّ النظر عن المسميات المختارة لأهل الرأي والمشورة في الكيانات المختلفة؛ فإنها في الحقيقة تمثل أهل حلٍّ وعقد فيها؛ سواء كان ذلك قـائـمـاً على الإســلام والسنة، أو على الفسوق والـبـدعـة، أو حتى على الكفر والإلحاد، فكل كيان متماسك له (أهل حل وعقد) مهما كان اسمه ووصفه. ولكن فئة أهل الحل والعقد في الإسلام لها شروطٌ تميِّزها عن غيرها من فئات القيادة المعروفة في النظم والكيانات غير الإسلامية.

إنَّ هناك شــروطاً يعدها أهل العلم من شروط الصحة التي لا بد من استيفائها في الرجل حتى يكون من أهل الحل والعقد في أمور خير أمة أخرجت للناس:

ومن هذه الشروط:

▪ **الإســلام:** لا خلاف في اشتراط الإسلام لأهلية الحل والعقد، وذلك بحيث لا يُعرف عن الشخص تلبُّس بكفر أصلي، ككفر اليهود والنصارى، أو كفر طارئ بردَّة أو زندقة أو نفاق أكبــر ظاهر، فالكافــر لا يؤتمن على الصــدق في نصيحة المسلمين، فكيف يؤتمن على قيادتهم وتوجيههم؟! ولهذا نهى الله - تعالى - عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، كما قال الله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَــالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِــنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وهي تشــمل كل (مَنْ دوننا) أي: ليــس مثلنا، وقد قال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُــولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النســاء: ٥٩]؛ فقوله - تعالى -: ﴿ مِنكُمْ ﴾ معناه «من جنسكم ومن ملتكم أيها المسلمون!»[4].

ولما هان الإسلام على بعض أهله أو المنتسبين إليه؛ ضموا إلى برلماناتهم ومجالس شوراهم الكفار من اليهود والنصارى، كما أدخلــوا الخارجين من الملة من الملحدين والشــيوعيين والليبراليين المنفلتين، لا بوصفهم أفراداً فحسب؛ بل أحزاباً وتكتــلات تملك صلاحيــة تكوين الحكومــات إذا «فازت» بالأغلبية في الانتخابات النيابية؛ ســواء أعطوها لأنفسهم

(١) منهاج السنة النبوية (١/ ١٤١).

(٢) الحكومة الإسلامية، لأبي الأعلى المودودي، ترجمة: أحمد إدريس، ص ٧٠، المختار الإسلامي.

(٣) خصائص التشريع الإسلامي، للدكتور فتحي الدريني، ص ٤٣٧، مؤسسة الرسالة.

(٤) انظر: الاستقامة، للإمام ابن تيمية (٢/ ٢٩٥).



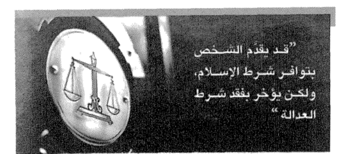
بالتزوير والخداع، أو أعطاها لهم السوقة والرعاع.

■ **البلوغ والعقل:** وهو ما يسمى بـ (أهلية الأداء). والبلوغ معـــروف، وأما العقل فالمقصود به هنا: «القوة الذهنية التي تمكّن الإنســـان مـن إدراك الأمور علـــى وجهها الصحيح، أو هو الغريزة التـي يتـهيأ بها الإنســـان لفهم الخطاب»[1]، وبهذين الشـــرطـين يخـرج مـن إطار المؤهلين للحل والعقد في شـؤون الأمة صنـفان، وهما: الأطفال والسفهاء، فالطـفل - وإن أُعطـــي العـهد عنـد بعضـهم - يحتاج إلى من يدبر له، لا أن يدبر هو للعامة، والســفيه غير الرشـــيد لا يصلح للمشـــورة وإعطاء الـــرأي، ولو كان في نظـــر بعض الناس «عاقلاً»، بمعنى: أنه غير مجنون.

■ **الرجولــة:** أي: الذكورة جنســـاً، والنضوج نوعاً، فولاية المرأة لا تصلح للرجـــال؛ لأن الولاية - ولو صغرت - تقتضي إعطاء الحق في تنفيذ الرأي على الآخرين ولو بغير اختيارهم، وهذا هو معنى القوامة التي أســـندت إلى الرجال في الأُسر الصغيرة، فما الحال في الأمة الكبيرة؟ وقد قال النبي ﷺ: «لن يفلح قـوم ولّوا أمرهـم امرأة»[2]، وهـو نص صريح في أن المرأة لا تتولى الولايات العظمى، وهو ما انعقد عليه الإجماع[3].

وشـــأن أهـل الحـــل والعـقد لا يقل عن شـــأن الإمامة أو القيـــادة العامة؛ لأن أهل الحـــل والعقد هم الذين يحلون ويربطون ويوجهون ويؤثـــرون في الزعماء والقادة، وقد نص جمع من أهل العلم صراحة على استبعاد النساء من مجالس الحل والعقد؛ لأن النســـاء وإن اســـتُؤنس برأيهن في بعض القضايـــا، إلا أن وضعهن في مقام من يُرجع إليه في الأمور العظـــام ليس مـن المعـروف. قـــال الجويني - رحمه الله -: «فما نعلمه قطـعاً أن النســـوة لا مدخل لهن في هذا الأمـــر، ولو استُشِرْنَ في هذا الأمر[4] لكان أحرى النساء وأجدرهن بهذا الأمر فاطمة، ثم نســـوة رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ونحن بابتداء الأذهان نعلـــم أنه ما كان لهن في هذا المجال مخاض في منقرض العصور ويكر الدهور»[5].

وإذا كان بعضهـــم في عصرنا ينافح عما يســـميه (حق المرأة في المشاركة السياسية) وعلى أعلى المستويات القيادية؛ فالله يعلـــم أن كفاحهم ودفاعهم ليس حماســـاً ودفاعاً عن



المرأة بقدر ما هو حماس ودفاع عن الفكر الغربي وموقفه من تولية الزعامة للنساء على الرجال بدعوى المساواة!

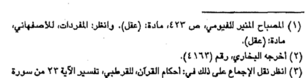
■ **العلـم:** ولا يكاد هذا الشـــرط يشترط في أحد - عدا التصدّي للتعليم والإفتاء - إلا في أهل الحل والعقد من حيث الجملة، والمقصود به بالطبع العلم بالشـــرع، فهذا هو المراد بالعلم إذا أطلق، قال ابن حجر - رحمه الله -: «المراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمـــره وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه»[6].

وأصـــل العلم: «إدراك الشـــيء بحقيقتـــه»، فمن أدرك الأشياء بحقيقة العلم الشرعي؛ فهو العالم، ويكون ربانياً إذا كان عاملاً بما يعلم.

والقدر المطلوب من العلم فيمن يُرشَّح لدور الحل والعقد يختلف في العلماء عن غيرهم، بمعنى: أنَّه لا يشترط في كل شخص من أهـل الحل والعـقد أن يكون قـادراً على الإفتـاء أو الاجتهاد أو الاســـتنباط، ولكن المطلـــوب هو القدر الذي تعرف به الكليات والأصول، أو علـــى الأقل القابلية لإدراك مدلـــولات العلم عند الحاجة إلى ذلـــك؛ إذ إن مجموع أهل الحـــل والعـقد يدخـل في جملتهم مـــن ليس من العلماء ولا مـــن طلاب العلم، بل هنـــاك اختصاصات أخرى تتطلب علوماً وتخصصات أخـــرى، يكونون أهل الذكر فيها، ولو لم يكونوا من أهل العلم الشرعي؛ كالفاقهين في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع والشؤون العسكرية والإعلامية، ونحو ذلك.

غير أن حـــدَّ العلم المطلوب في هؤلاء هـــو العلم الذي لا يعذر المســـلم فيه بجهله؛ كأصول التوحيد وأركان الإيمان والإسلام وأصول الشريعة والمعلوم منها بالضرورة.

لكـــن الوصول إلى رتبة الاجتهاد - ولو بشـــكل نســـبي يناسب العصر والمصر - يشترط في بعض أهل الحل والعقد على الأقل، وليس في جميعهم، فقد اشترط وجود مجتهدين فـــي مجالس الحل والعقد جمع من أهل العلم، قال الشـــيخ


(١) المصباح المنير للفيومي، ص ٤٢٣، مادة: (عقل). وانظر: المفردات، للأصفهاني، مادة: (عقل).

(٢) أخرجه البخاري، رقم (٤١٦٣).

(٣) انظر نقل الإجماع على ذلك في: أحكام القرآن، للقرطبي، تفسير الآية ٢٣ من سورة النمل. والفصل في الملل والنحل، لابن حزم (٤/ ١١٠).

(٤) يقصد اختيار من يصلح للإمامة أو الولاية العامة.

(٥) غياث الامم، للجويني، ص (٦٢).

(٦) فتح الباري (١/ ١٤١).

رشـيد رضا: «أما العلم فيعنون به علم الدين ومصالح الأمة وسياسـتها، وإذا أطلقوه كان المراد به العلم الاسـتقلالي المعبر عنه بالاجتهاد، ويفهـم من كلام بعضهم أن الاجتهاد في الشرع شـرط في مجموعهم، لا في كل فرد منهم، فقد قال فـي (الروض): «وأصلهـا أن يشـترط أن يكون فيهم مجتهد»[1].

■ **العدالة:** وهي شـرط يزيد عن الإسـلام، فقد يُقدَّم الشـخص بتوافر شرط الإسـلام، ولكن يؤخر بفقد شرط العدالـة، فالفجار - وليس الكفار فقط - لا يصلحون لولاية أمر المسـلمين، ولا للحـل والعقد في شـأنهم، وقد عُرفت العدالة بأنها: «الاستقامة على طريق الحق اختياراً، عما هو محظور ديناً»[2]. وقد عرفها علماء الشريعة بتعريفات عديدة قريبة من التعريف المذكور[3]، لكن القاسم المشترك بين هذه التعريفات هو الاجتناب الظاهر للكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر. وحقيقتها: «التحلِّي بالفرائض والفضائل، والتخلِّي عن المعاصي والرذائل وعما يخل بالمروءة».

وقد قال باشـتراط العـدالة في أهل الحل والعقد - ولـو كانوا من غير العلماء - جمع غفيـر من أهل العلم، منهم: الماوردي وأبو يعلـى والنووي[4] وابن تيمية وابن القيم وابن حجر[5]، وغيرهم كثير.

وهذا الشرط يترتب عليه أن أيَّ صاحب انحراف واضح فـي الاعتقاد أو الفكر أو السـلوك لا يجوز لأحد أن يرفعه إلى رتبة من أَمَرَ الله بطاعتهم وقرن ذكرهم في تلك الطاعة باسمه - تعالى - وباسم رسوله ﷺ.

■ **القدرة والتمكن:** بمعنى: أن يكون أهل الحل والعقد في مجموعهم قادرين على إنفاذ ما يخلصون إليه من رأي، حتى إذا احتاجوا إلى حشد القوى في قضية مصيرية؛ حشدوها باقتدار، وبعض مهام أهل الحل والعقد تقتضي ذلك؛ كنصب الإمام المناسـب أو خلعه إذا لم يكن مناسـباً. ولأهمية هذا الشـرط عدَّه ابن خلدون من أبرز الصفات المطلوبة في أهل الحل والعقد، وقال: «إن الشورى والحل والعـقد لا تكون إلا لصاحب عصبيـة يقـتـدر بـها على حل أو عـقـد أو فـعـل أو ترك، وأما من لا عصبية له، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً، ولا من حمايتها، وإنما هـو عيال على غيره؛ فأي مدخل له في الشورى؟»[6].

وقد شدَّد ابن تيمية على هذا الشرط، حتى إنه وصف أهل الاختيار بأهل الشوكة في عدد من المواضع في مؤلفاته[7].

ولكن هذا الشـرط لا يعني بالضرورة أن يكون أهل الحل والعقـد في ذواتهم أقوياء وأهل تمكـين، فإن هذا ربما يكون أقـرب إلى الخيال، في حق آحاد العلماء، ولكن القوة المطلوبة فيهـم هي قوة الموقف وصلابته وثباتـه، وهذا هو دافع القوة فيمـن وراءهم، وهو فـي حد ذاته من أنجع وسـائل التغيير للأصلح في الأمة، حيـث ينحاز الناس من خاصة وعامة إلى الرأي الصواب الصلب؛ حتى يكتسب قوة وتكتب له قدرة على التغيير، ولعل من أبلغ مـا يدل على ذلك مواقف أعلام الأمة كالإمـام أحـمد والعز بن عبد السـلام وابن تيمية وغيرهم، حيث أسسـت مواقفهم الثابتة لمواقف أوسـع انتشاراً وأكثر تأثيراً على مستوى الأمة، وهذا يمثل في الحقيقة عامل القوة الأكبر في التغيير.

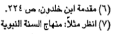
قـال القرطبـي - رحمه الله -: «أهل الحـل والعقد هم من أهل التمكـن؛ إما بالقوة أو بالفعـل»[8]، يعني: أن لديهم وسـائل القدرة الفعلية، أو أسبابها التي تفعل لو فعِّلت، وتعمل لو وجدت من يعمل لأجلها.

ولا شـك أن مجموع هذه الشـروط تثمـر - ولا بد - أوصافاً لازمةً ومطلوبة فيمن يتأهل لعضوية تلك المؤسسـة التي نراهـا غائبة في آثارها وتَجَسُّـدها، وإن كانت قائمة في أشخاصها وإمكانية إيجادها، وهي الأوصاف التي تثمر الحكمة والرأي، والتمكن من النظر في مصالح المسـلمين، والقدرة على جمعهم على الرأي السديد[9].

ومن مجمل تلك الشـروط المعتبرة في أهل الحل والعقد نعلـم حجم الجناية التـي جناها على الأمـة أولئك الذين حشـروا في المجالس النيابية والتشريعية والشورية - وتحت قبـة واحدة - أخلاطـاً تجمع بين العقلاء والسـفهاء وبين الأبرار والفجار، وبين النساء والرجال وأحياناً أشباه الرجال من مخرومي المروءة ومعدومي الأمانة، وهو الأمر الذي كان منبعاً للفتن، ومصدراً لتأخر الأمة في كل المجالات.

وإلى بقية في عدد قادم بإذن الله.

(١) انظر: روض الطالبين، للنووي (٣/٤٣). والخلافة، للشيخ رشيد رضا، ص ٢٤.
(٢) انظر: الكليات، لأبي البقاء الكفوي، ص ٦٣٩، مؤسسة الرسالة.
(٣) راجع: الاحكام السلطانية، لأبي يعلى، ص ٢٠. والأحكام السلطانيـة، للماوردي، ص ٦. وغياث الامم، ص ٦٢. وحاشية ابن عابدين (٥/٤٦٥).
(٤) مغني المحتاج (٤/١٣١).
(٥) فتح الباري: ١/١٤١.



(٦) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٢٤.
(٧) انظر مثلاً: منهاج السنة النبوية (٤/٣٨٨، ٤٠٧، ٤٦٥)، و (٨/٣٣٦، ٣٣٩، ٣٥٦).
(٨) تفسير القرطبي: (٤/١٦٥).
(٩) انظر: الاحكام السلطانية، للماوردي، ص ١٤.





هل هناك من يملك الوصاية على الدين؟!

محمد بوراس

لقد كانت حرية التفكير ومشروعية البحث العقلي الحر من المعالم الكبرى التي تُبرز الوجه الحضاري للإسلام في تأسيسه لنظرية المعرفة القائمة على قاعدة المسؤولية، كما تجسدها الآية القرآنية الكريمة: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾.

[الإسراء: ٣٦].

وإذا كان التفكير بمفهومه العقلاني يرتبط بهذه القاعدة داخل المنهج الإسلامي؛ فإن تجلياته على مستوى الممارسة الفردية والجماعية محكومةٌ بمجموعة من القيم والمفاهيم التي تؤصل للوظيفة الحضارية للإنسان المسلم، وهي مفاهيم ثابتة وقيم راسخة وشمولية تمثل في جملتها تصوراً واضحاً للكون والإنسان والحياة وللارتباطات التي تقوم بينها.

وبذلك؛ فإن الإسلام أعطى الإنسان الدورَ الفاعل في بلْوَرة أي مشروع حضاري، انطلاقاً من ملاءمةٍ نظرية وعملية لمفاهيم «التوحيد» و «الاستخلاف» و «ختم النبوة» مع معطيات الواقع بوصفه إطاراً تاريخياً لتكوّن الوعي والممارسة في حدودهما الطبيعية، أي أن الوجود الإنساني بمعناه - الأنطولوجي - إنما يتحدد من خلال وعي الفرد بنفسه لكونه ذاتاً عاقلة تمارس نشاطها في دائرة إمكانياتها الوجودية.

والإنسان في التصور الإسلامي كائن تتحدد هويته من خلال الوظيفة التي يؤديها والدور الذي يمارسه، فهو «الخليفة» الذي اختاره الله - سبحانه وتعالى - لحمل أمانة ثقيلة يكون بموجبها عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً، وذلك بتهيئته نفسياً وفكرياً لتلقِّي الخطاب الإلهي وتمثُّله في واقع الحياة منهجاً وقانوناً.

ومن هنا كانت الرسالات السماوية في دعوتها إلى



التوحيد تهدف إلى صياغة «الإنسان الحضاري» الذي يستطيع التفاعل مع الوجود، انطلاقاً من الوعي بكينونته الذاتية ليحقق دوره الرسالي. وقد جاءت الرسالة الخاتمة لتكملة مشروع البناء الذي بدأته الرسالات السابقة، معلنةً وصول الإنسان إلى غايته في درجات الرشد، وقد فتحت أمام العقل آفاقاً واسعة لتطوير إمكاناته والانطلاق بقدراته في سبيل الرقي بوعيه الوجودي بذاته وبالعالم والأشياء.

وبذلك تبلور مفهوم «الحرية» ليمثل قاعدة لانطلاقة الفكر الإنساني في مجال المعرفة، مع تأكيد ضرورة التوقف عند حدود معطيات الوحي وحقائقه المطلقة، لكونه محور كل معرفة وأساسَ كل فعل معرفي، ومن ثم فحرية الفكر مبدأ أساسي يعطي للعقل فاعليته داخل منظومة من القيم والمبادئ العامة التي تجعله يسهم في الرقي بعطاءاته وترشيد انطلاقته.

هل هناك من يكون متحدثاً باسم الإسلام؟ ومن وراءه؟

وإذا كان الإسلام قد بلور مشروعه الحضاري على أساس مركزية الإنسان في هذا الوجود، ومكانة العقل بوصفه طاقة فاعلة، وقبل هذا وذاك مرجعية الوحي؛ فإن نظريته في المعرفة ومنهجه في كشف الحقيقة يعتمدان بدرجة كبيرة على إنكار الوسائط وإلغاء كل أشكال الوصاية على العقل والوجدان، بحيث لا توجد طبقة من الكهان أو علماء الدين يعدون أنفسهم مُلَّاكاً للحقيقة المطلقة، والمصدرَ الأوحد للمعرفة، والمرجعَ النهائي في التفسير؛ لأن سلطتهم مستمدة من الله؛ ولأن علمهم مستلهم منه بشكل مباشر، فحق التفكير وممارسة النظر العقلي في المجالات كلها مكفول لكل شخص عن طريق الحث على البحث في حقائق الموجودات، والتدبر في آيات الكون، والدعوة إلى الاجتهاد في أمور الدين والدنيا في حدود مقاصد الشرع وقواعده، وهو في ذلك كله يؤكد على مبدأ الحرية في ظل سيادة مبدأ المسؤولية. ولكن هل هذا كله يكفي لتبرير مقولة طالما سمعناها تصدر من هذه الجهة أو تلك، مفادها: (لا أحد يملك الحق في تنصيب نفسه متحدثاً باسم الدين)؟

والواقع أن هذه المقولة تأتي في سياق حملات التحريض العلماني ضد تيارات الصحوة الإسلامية ومشروعها الحضاري، حيث ينبري العلمانيون بين الفينة والأخرى متهمين الدعاة - في دعواتهم إلى «الحل الإسلامي» - أنهم يريدون احتكار المشروعية الدينية وفرض الوصاية على الناس، من خلال تفسيرهم الخاص والمؤدلج للنصوص الدينية، أو كما قال أحدهم: «دعاة تطبيق الشريعة يريدون أن يصبحوا «كهنة آمون» من جديد؛ لأنهم وحدهم الذين يملكون تفسير الشريعة، وإقامة (الثيوقراطية) الدينية، حيث سيطرة رجال الدين، والحكم بالحق الإلهي»[1]. والحق أن هذه المقولة إنما تقدَّم بهذه الصورة لتسويغ الطروحات العلمانية، ومن ثم تأكيد حتمية الحل المشبوه الذي تبشر به؛ بحجة الحفاظ على قدسية الدين من عبث العابثين! فإلى أي حد يمكن عدُّها مقولة منطقية تحمل في داخلها عناصر المعادلة الصحيحة لحل إشكالية المرجعية في الحقل المعرفي الإسلامي؟

لا بد أن الوصول إلى إدراك حقائق الأشياء، والتعمق في فهم القوانين التي تتحكم في علاقاتهم الداخلية؛ يستوجب التسلح بالأدوات المنهجية الكفيلة بفتح مغاليقها وتيسير الوصول إلى بواطنها، وهذا كله مشروط بمدى القدرة على إعطاء العقل فاعليته وتنشيط قدراته الفكرية في التحليل والاستنباط والمقاربة والاستقراء. وإذا كان الدين في جوهره مُعطًى إلهياً تتحقق من خلاله عبودية الخلق لله - سبحانه وتعالى - فإن تنزيله في الواقع البشري يقتضي - بعد انقطاع الوحي واكتمال الرسالة - تفعيلَ الآلية النصية وتحرير طاقتها المذخورة، عن طريق الفقه الإيجابي الذي يمارس من خلاله العقلُ دورَه الاجتهادي في قراءة النص والواقع، ومن ثم تشكيل الرؤية المنهجية في التعامل مع معطياتها وفق المحددات العامة للخطاب الشرعي ومقاصده الكلية، وهذه مهمة مناطة بالإنسان الخليفة، اعتباراً لمسؤولية التكليف التي يحملها؛ لأن الدين إنما أُنزل لأجله، والرسالة موجهة إليه، والخطاب خاص به.

ودوره في ذلك لا ينحصر عند حدود التلقي بعد توفر شرط الإيمان، بل يتجاوزه إلى دور التبليغ؛ إذ بعد ختم النبوة وانقطاع الوحي صار لزاماً، حتى تستمر الدعوة وتتواصل عطاءاتها عبر توالي الأجيال؛ أن يوجد من يؤدي هذا الدور، بحيث يكون في مقام الوارث لتركة النبوة، المسؤول عن تبليغ رسالتها وإيصال خطابها إلى العالمين، كما قال الرسول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[2].

ومسؤولية التبليغ هنا عامة تشمل جميع المكلفين،

---

(١) مجلة (فكر)، ع ٢٨، ديسمبر ١٩٨٥م، ص ٧٣ - ٧١.

(٢) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو.



ولا تختص بها طبقة دون أخرى، غير أن ثمة ضوابط وشروطاً ينبغي تحققها فيمن يتصدى لهذه المهمة؛ في مقدمتها: توفر الأهليـــة العلمية، والقدرة على تمثــل القيم الدينية والمبادئ الشــــرعية، والتعبير عن جوهر الرسالة الحقيقي بشكل تتم فيـــه الملاءمة بين مضامينها الفكريـــة الداخلية وما يتفاعل داخل المجتمع من تغيرات وتحولات تعبِّر عن تاريخية الواقع الإنســـــاني. ومن ثم؛ فهذا يفرض إيجاد قنوات للتواصل مع هذا المجتمع، من أجل تقريب المفاهيم الإســـلامية إلى عقله ووجدانـــه، بما يجعله يتعامل معها بمنطق الاقتناع، لا مجرد التلقي الحرفي الذي يحمل في طياته معنى التقليد والاتباع، انطلاقاً من احترام مبدأ الحرية في الاختيار الاعتقادي التي حرص الإســـلام على تدعيمها من خلال نصوصه المتواترة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إضافة إلى فســـح المجال أمام كل الأســـئلة الممكنة التي قد تطرح بإزاء هذه المفاهيم وكيفية اشتغالها.

ما حقيقة الدعوة والتبليغ؟

إن مهمة التبليغ والدعوة بمفهومها الشمولي لا تنحصر عند حدود الوعظ والإرشاد بالمفهوم الضيق، بل تتسع لتشمل كل نشاط شـــرعي هدفُه تقديم الصورة الحقيقية للإسلام ومبادئه لتتركز فـــي الوعي الجماعي بديلاً حضارياً وفكرياً يحكـــم التصور والفعل. وهي تبعاً لذلك لا تنحصر في طبقة من الناس يمارسونها بشكل كهنوتي نصراني، يكونون بمثابة المرجـــع النهائي، وإنما هي مَجال مفتوح لكل المســـلمين في إطار مسؤولية تنتظمهم جميعاً داخل فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، علـــى أن ذلك لا ينفي وجود هيئة علمية متخصصة في شـــؤون الدعوة والتبليـــغ، تؤدي وظيفة دينية اجتماعية تدخل ضمن المســـؤولية المناطة بالعلماء، دون أن يعني ذلك وجود تشـــكيلة (إكليريكية) من رجال الدين تكون لهم السلطة المطلقة مرجعيةً دينية تفرض تفسيرها الخاص للدين، ومن ثم تكون لها الوصاية على قضاياه.

فهذا الشـــكل الكهنوتـــي الذي عرفتـــه النصرانية من خلال التســـلط الكنســـي في القرون الوســـطى؛ لا يجد له مكاناً داخل الإســـلام ومنظومته الفكرية؛ فوظيفة الفـــقيه أو الداعية لا تتجاوز إطار الاجتهاد البشـــري الخاضع لمعيار الخطأ والصواب، وتخضع فوق ذلك لمجموعة من الضوابط والشـــروط التي تجعلهـــا أكثر تماهياً مع الواقع الإنســـــاني بتحولاته المختلفة التي تُفرض عليها ســـيرورة معينة، سواء على مســـتوى أدوات التبليغ أو وسائله، أو مستوى الخطاب ذاتـــه وكيفية أدائـــه، وذلك كله مرتبط بضـــرورات التغيير وحاجـــات المجتمع المتطورة، مما ينفي وجود أي شـــكل من أشـــكال الثبوتية والجمود، ويحـــول دون تكريس النموذجية ذاتها الجاهـــزة في تطبيق النصـــوص وتنزيلها في الواقع، ومن ثَم يؤدي إلى تجديد الآلية الاجتهادية ونبذ كل أشـــكال التقليد.

وهذا في حد ذاته يؤكد انتفاء التركيز السلطوي للمؤسسة الدينيـــة - على افتـــراض وجوده - من حيـــث انتفاء مبدأ «العصمة» التي لم تُجعَل لأحد من بعد النبي ﷺ؛ فكلٌّ بشـــر يجتهـــدون، فيصيبون ويخطئون. وإن كانت ثمة ميزة للعلماء والفقهاء والدعاة؛ فهي مسؤولية التبليغ، وأمانة الدعوة التي حملوهـــا من موقع التكليف الرباني، فعِلْمهم وفقههم المتصل بالجانب الدينـــي، وتخصصهم في المباحث الدينية؛ كل ذلك يفرض عليهم أداء دور المبلغ أو الداعية أو المفتي، في حدود قدراتهم المعرفية، ومـــدى تمكنهم علمياً من صياغة مواقف اجتهادية تتماشى مع مستجدات الواقع الاجتماعي المتطور.

وهذا هو الدور الذي اضطلع به العلماء والفقهاء والدعاة والمجتهـــدون على مدار التاريخ الإســـلامي الطويل، دون أن يدعـــي أحد منهـــم أن رأيه هو الحقيقـــة المطلقة أو الحكم النهائي، وقد كان أئمة المذاهب يؤكـــدون دائمـــاً أن آراءهم لا تعدو كونها اجتهادات بشرية يجوز عليها الخطأ والصواب، ولذلك فهـــم يؤمنون بحتمية الخلاف والاختلاف وضرورته، ويتقبلونه بروح علمية ســـمحة، ويدعون فوق ذلك إلى عدم تقليدهـــم بدون دليل. يقول الإمام أبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠هـ): «حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي؛ فإننا بشـــر نقول القول اليوم، ونرجع عنـــه غداً»[1]، ويقول الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ): «إنما أنا بشـــر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيـــي؛ فكل ما وافق الكتاب والســـنة فخـــذوه، وكـــل ما لم يوافق الكتاب والســـنة فاتركوه»[2]، ويقول الإمام أحمـــد (١٦٤-٢٤١هـ): «لا تقلدني، ولا تقـــلد مالكـــاً، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا»[3].

وهذه كلها مواقف تنطلق من إدراك عميق لأبعاد العملية الاجتهادية والدور الحقيقي للمجتهد لكون عمله جهداً بشرياً لا يسلم من النقص مهما بلغ من درجات العلم والفقه، ولذلك

(١) الشعراني: «الميزان»، ج١، ص٥٥.
(٢) ابن عبد البر، الجامع، ج ٢، ص ٣٢.
(٣) ابن القيم، إعلام الموقعين، ج ٢، ص ٣٠٢.

فليس لأحد مهما كان أن يدّعي لنفسه العصمة مقدّماً رأيه واجتهاده على أنه الكلمة الفصل، والحكم النهائي الذي لا يقبل الرد ولا يحتمل النقد أو المعارضة، ولكن حسبه أن يقول مع الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ): «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب » فذلك أقرب للموضوعية وأدعى للقبول.

سلبيات التعصب المذهبي وخطره:

ما طرأ على الأمة الإسلامية في عصور انحطاطها الفكري، من سيادة التقليد، والتعصب المذهبي، وغياب الروح النقدية والمنهج العقلاني، إلى درجة وجد فيها أمثال أبي الحسن الكرخي الحنفي (٢٦٠ - ٣٤٠هـ) الذي أعلن بكل جسارة قائلاً: «كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤوَّل أو منسوخ»؛ فهذا لا يمثل سوى ردة حضارية كان لها أسوأ الأثر على مردود العقل الإسلامي وعطاءاته الفكرية بعد إغلاق باب الاجتهاد، لتعيش الأمة حالة من الجمود والانغلاق ما تزال تأثيراتها السلبية سارية المفعول إلى يومنا هذا.

ولهذا كانت حركات التجديد في الفكر الإسلامي - التي لم ينقطع خطها التاريخي منذ البعثة النبوية إلى الآن - تحمل بشكل عنيف على تيارات الفكر الجامد ودعاة القوالب الجاهزة ممن يسهمون في تكريس منطق ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة والنهائية، حيث لا يكون ثمة موجِب منطقي لقيام فعل اجتهادي ما دام أن هذه الحقيقة قد ترسخت وتوضحت كل معالمها، ليكون الاجتهاد في مثل هذه الحالة مجرد عمل عبثي أو نوعاً من النزق العقلي الزائف.

ومن هنا تفرض الوصاية على العقل والحجر على الفكر بدعوى: حفظ قدسية النص وحماية ثوابت الدين!

غير أن طبيعة هذا الدين وعناصر الحركية والفاعلية التي يملكها، تأبى إلا أن تحفز العقول وتستنهض الهمم للنظر - وإعادة النظر - فيما يطرحه الواقع من إشكالات، وما تفرزه الحياة من قضايا ومستجدات تستدعي دائماً الرجوع إلى النص والبحث في ثناياه عن كل ما يتيحه من إمكانيات وما يقدمه من مفاتيح تمكّن الناظر فيه من إعطاء تصور كامل لكل قضية مطروحة، يمكن عدّه في كثير من الأحيان الحل المناسب، دون أن يعطي ذلك مسوغاً لإغلاق الباب أمام أي اجتهادات أخرى محتملة قد يكون دليلها أقوى وأحكم، وتسهم في بلورة الرؤية الشاملة المتعددة الأبعاد، مما يسهم في فهم أوسع وأكثر استيعاباً للقضية.

وإذا كان قد تأكد أن الاجتهاد واجب شرعي في حق كل من استكمل شروطه ورأى في نفسه القدرة على التصدي له، ومن ثم فهو حق مكفول لكل مسلم؛ فإن ذلك يدحض كل ادعاء يرمي إلى تسويغ حق فرض الوصاية على الآخرين باسم الدين بأي وسيلة من الوسائل، أو العمل على تعطيل آليات العقل والحد من دوره في تأسيس رؤية الحاضر والمستقبل؛ انطلاقاً من التفاعل مع معطيات النص والواقع، وكذلك يردُّ بشكل حاسم على كل من يتهم دعاة الإسلام ومفكريه وعلماءه بأنهم يشكلون طبقة «الإكليروس الديني» في الدين النصراني التي تمارس سلطةَ الهيمنة الفكرية عن طريق الاستفراد بحق الوصاية على الدين.

الإسلام دين شامل لا يمكن قصره على جانب محدود:

إن خطأ أولئك الذين يعيبون على الحركات الإسلامية المعاصرةِ نهجَها الدعوي الإصلاحي القائمَ على أساس اجتهادي، متهمين إياها باستغلال الدين لأغراض سياسية وأيديولوجية معينة، ومن ثم محاولة فرض الوصاية على هذا الدين، انطلاقاً من تنصيب أنفسهم ناطقين رسميين باسمه دون أن يكون أحد قد خولهم هذا الحق؛ إنما يقوم على فهم ناقص يعود في الأصل إلى عدم القدرة على استيعاب فكرة (شمولية الدعوة الإسلامية) من جهة، وضرورتها الحضارية من جهة أخرى، وما يستتبعه ذلك من شروط وتبعات.

إن الإسلام في جوهره دعوة شاملة لا يمكن قصره على جانب دون آخر، كما لا يمكن حصره في دائرة «الدين» بمفهومه العبادي الشعائري كغيره من الأديان المنتشرة على

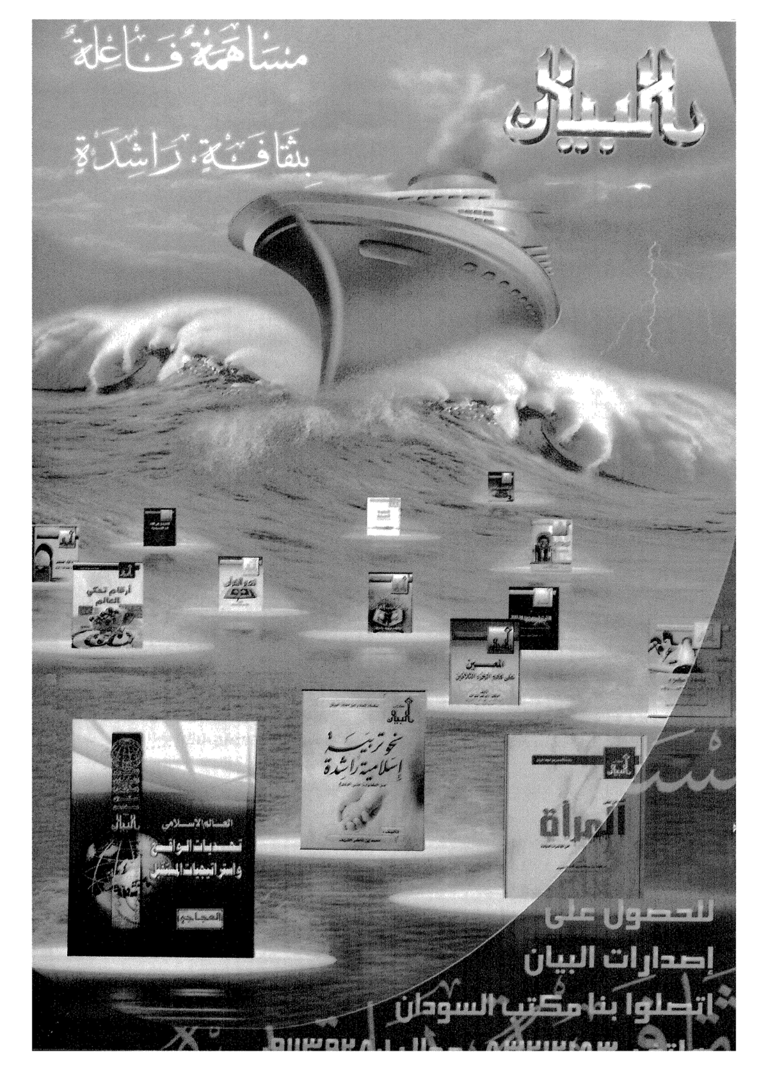
وجه الأرض، فعندما يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]؛ فهذا لا يعني فقط أنه يشمل جميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، بل يدل أيضاً على شموليته لكل نشاط ينخرط فيه هؤلاء الناس، لكونه منهاج حياة تتكامل داخله كل عناصر التصور الذي يكوِّنه عن الإنسان والكون والحياة.

فهو منهج شامل يقدم رؤية متكاملة الأبعاد عن كل مجال من مجالات النشاط الإنساني، ومن ثم فإن حامل هذا المنهج والسائر به والداعية إليه؛ يجب أن ينضبط لمبدأ الشمولية في التبليغ في إطار شروط محددة يقتضيها برنامج التغيير وضروراته الزمانية والمكانية، بحيث لا يسقط في الاختزالية ولا تسيطر عليه روح التجاوز والاستبعاد، بمعنى أنه لا يُخضِع منهجَه الدعوي لتعليمات معينة يتقمص فيها دورَ الواعظ الديني بمفهومه العامي، متجاوزاً بذلك وظيفته الأساسية: داعيةً يأمر بالمعروف أياً كان هذا المعروف وأنى وُجِد، وينهى عن المنكر بجميع أنواعه وعلى اختلاف أشكاله أينما كان.

وإذا كان المجال السياسي مما يراه المنتقدون بعيداً عن دائرة الدعوة، بزعم أن لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، ويبنون على ذلك فرضيات يقدمونها على شكل مُسلَّمات بَدَهية تحاول الربط بين الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية كونها محور كل نشاط سياسي إسلامي، وبين نظام «الحكم الثيوقراطي» أو «الحكم بالحق الإلهي»، والذي يُعدُّ تجسيداً لفكرة «الوصاية على الدين» في أوضح صورها وأجلى معانيها. وذلك انطلاقاً من تجاهل بيِّن للحقائق الثابتة التي تؤكد بُعد الرؤية الإسلامية التي تتبناها أغلب الحركات الإسلامية المعاصرة عن تمثل فكر «الثيوقراطية» أو ما يمكن أن يقوم مقامها من أشكال الاحتكار المطلق لحق تفسير النص الديني، بحيث نجد أن المواقف المعلنة لمعظم التيارات الإسلامية العاملة في الساحة تصب في هذا الاتجاه. وحتى إن وجدت فئة قليلة غير مؤثرة تتبنى مثل هذه المقولات، فهذا لا يمثل رؤية يمكن أن تُبنى عليها استنتاجات تُعمَّم بشكل تعسفي على الجميع، بينما العكس هو الصحيح، بحيث تكون هذه الاستثناءات القليلة والعارضة مؤكِّدة للقاعدة الحقيقية والثابتة التي تقول بما لا يدع مجالاً للمماحكة: إن المشروع الذي تدعو إليه الحركات الإسلامية المعاصرة مشروع حضاري يقوم على أساس الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بهدف تغيير أوضاع الأمة والعودة بها إلى منابع الإسلام الأصيلة.

وما العمل السياسي سوى جزء من هذا المشروع لا يمكن فصله عن السياق العام الذي يحكم البناء الإسلامي في جملته، فهو خاضع للضوابط نفسها، محكوم بالشروط ذاتها التي تحكم العمل الدعوي في جميع جوانبه. ومتى غابت هذه الضوابط والشروط؛ اتسم العمل كليةً بالخلل وارتكس في صورة غير مقبولة، انطلاقاً من فهم خاص يختزل المسألة في بُعدها السياسي ولا سيما إشكالية السلطة، ليتحول المشروع ذو الطبيعة الحضارية الشاملة الذي يتوخى البناء وإعادة البناء عن طريق إصلاح ما فسد وتجديد ما تقادم؛ إلى مشروع سياسي فقط، يشغله هاجس التغيير الفوقي المرتكز على فكرة «أسلمة السلطة سبيلاً وحيداً نحو أسلمة المجتمع».

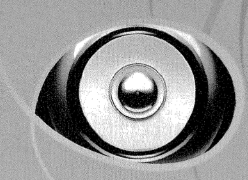
ولعل هذه النقطة التي تركِّز عليها انتقادات المعارضين للمشروع الإسلامي في عمومه، حين يستغلون مثل هذه «الثغرات» للدخول منها لفرض رؤيتهم القائمة على تشويه الحقائق والتصوير الكارثي المغلف بقشور «الموضوعية» الهشة، التي تجعل النسف المباشر للأسس الفكرية والأخلاقية للفكر الإسلامي الهدفَ الرئيسي الذي تسعى إليه، من خلال إطلاق تهمة سعي التيار الديني - الذي يوصف عادة بالمنغلق والمتطرف - إلى تكوين محاكم للتفتيش، وقتل الخيار الديموقراطي، وقبر الحريات، وإعطاء المشروعية الزائفة للتفكير الخرافي والأسطوري، وإعادة نظرية التفويض الإلهي، واصطناع الكيانات الطائفية، وما إلى ذلك من التهم التي تُطلَق جزافاً، من دون محاولة علمية وموضوعية جادة للقراءة المتأنية والراشدة لأطروحات التيار الإسلامي وأسس المشروع الحضاري الذي يدعو إليه، وهو المشروع الذي يعبِّر في جملته عن الروح الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة، المسترشدة بنور العقل وسداد الحكمة التي جعلها الرسول ﷺ ضالة المؤمن؛ وهو مشروع منطلَقُه النص الشرعي (كتاباً وسنة) - لكونه الأساس الذي تبنى عليه كل مقومات الفكر الإسلامي وعناصره الذاتية - وجوهرُه العقل، وغايتُه بعثُ الأمة والنهوض بها والعودة بها إلى موقع القيادة المبنية على أساس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].


البيان
مساهمة فاعلة
بثقافة راشدة
أرقام تحكي العالم
المعين
نحو تربية إسلامية راشدة
العالم الإسلامي
تحديات الواقع
واستراتيجيات المستقبل
المرأة
للحصول على
إصدارات البيان
اتصلوا بنا مكتب السودان



حتى يكون العتاب جميلاً

فيصل بن علي البعداني
albadani@gawab.com



قال لي: أخي لا يعرف غير التبكيت والعتاب؛ إذ لا يكاد يراني حتى يبدأ بلومي وتقريعي وكأن لا حسنة لي، وكأني لا أجيد إلا مقارفة الخطأ والولوج في بوابة الزلل؛ بصوابٍ في حين، وتحاملٍ ومبالغةٍ وضعف معلومة في أحيان كثيرة، حتى كرهته، وضجرت منه، ولم أعد أطيق لقياه أو سماعَ صوته!

فقلت له: على رِسْلِك، فما فتئ آحاد الناس في كل بيئة - ومنهم الدعاة والمصلحون - يختلف رأيُ هذا عن هذا، ويخطئ هذا على هذا بدواعٍ عديدة، ومن منطلقات مختلفة، يأتي في مقدمتها: الجهل، والظلم، والغفلة، والعجلة، وحب الذات، واتباع الهوى، وضعف التجرد، وتفاوت العباد في الفهوم والطباع والقدرات، كما هو الحال في كل بيئة تتسم بالتفاعل والحراك الاجتماعي؛ إذ النقص في كل البشر سجية، والأصلُ التنوعُ والاختلافُ وحدوثُ المشاحّة والتنافس، ومن الطبيعي الخطأ:

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلُّها؟
كفى المرء نُبْلاً أن تُعَدَّ معايبُهُ!

وأمام هذا الواقع؛ ينقسم من يقع عليهم التجنّي والخطأ(١) إلى فئتين:

فئة كريمة: كبيرة النفس، واسعة البال، تناست الهفوة، وآثرت الصفح الجميل؛ فأخذت بالعفو، وارتدت ثياب الحِلْم،

(١) من المهم إدراك أن المراد بالخطأ هنا: الخطأ المتعلق بحقوق الأخوّة وواجبات الصحبة، لا وقوع الآخر بالمعصية؛ إذ لا بد في هذه الأخيرة من النصيحة بالحكمة والموعظة الحسنة، على اختلاف الطرق وتعدد الوسائل الملائمة.



وتخلَّقت بعبير الصبر، واتسمت بالرفق والسماحة واللين؛ حرصاً منها على استدامة المودة، وعدم تعكير أجواء الصفاء مع الإخوة، وتغليباً منها لحُسن الظن، والإدراك بأن الزلة من سمات البشر، ورجاءً بلوغ المعالي يوم الدين، والظفرَ بما جاء في قوله - تعالى -: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله - عز وجل -: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٢ - ٤٣].

وفئة فاضلة: نهجت سبيلَ العدل، وآثرت أخْذَ الحق، قناعةً منها بضرورة معالجة الخطأ، وأنّ إحسان الظن لا يمنع المعالجة والتصويب بل يُحتِّمه؛ لكي لا يزداد الزلل وتنجم أخطاءٌ أكبر، وحفاظاً على المحبة وديمومة الإخاء، فنبَّهت على ما ترى فيه تقصيراً تجاهها، وجنوحاً عليها، وعدم مراعاةٍ لمشاعرها؛ معاتِبةً على الزلل، ومطالِبةً بتصحيح الحال، والبِدار إلى الرجوع عن السقطات، وعدم التمادي في التفريط وإتيان مسببات الفرقة وبذور العداوة.

ولا شك أن الاحتمال وإغضاء الطرف، وعدم الالتفات إلى زلل الإخوان من دون ما تقريع ولا تأنيب، ولا معاتبة، ولا تنبيه على الخطأ؛ أخير وأكمل، يقول الشاعر:

هبْني أتيتُ بجهلٍ ما قُذِفتُ به
فأين فضلُك والحِلْمُ الذي عُرِفا؟

ويقول الآخر:

هبْني أسأتُ، كما تقولُ
فأين عاطفة الأخوّة؟
أو إن أسأتَ كما أسأتُ
فأين فضلك والمروّة؟

ويتأكد ذلك في حال كان ذلك باختيارٍ ورضا نفسٍ، فلم يورث حقداً ولا ضغينة، ولا جرّ إلى هجرٍ أو دعا إلى قطيعة. يقول الفضيل بن عياض: «الفتوةُ: العفو عن عثرات الإخوان»[1]، وقال الحسن بن وهب: «من حقوق المودة: أخذُ عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصير إن كان»[2]، وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال: «تناسَ مساوئَ الإخوان يدُم لك وُدُّهم»[3]، وقال بعض الحكماء: «الصبر على مضض الأخ خيرٌ من معاتبته، والمعاتبة خيرٌ من القطيعة، والقطيعة خير من الوقيعة»[4].

فالاحتمال في الأصل أجلُّ وأفضل، لكن متى رجَّح مكلومٌ طرْقَ بوابة المعاتبة؛ فلا بد له حينها من التنبه إلى ما يأتي:

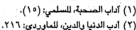
- أن يتوثق قبل العتاب من دقة النقل، وصحة الفهم، وعدم التجني، ويتأكد من صدور الهفوة ووقوع صاحبه في الزلة، حتى لا يلوم على خطأ لم يقع، فيكون هو الملوم بلومه، وأن يعلم بأنه إن لم يصادف بعتابه العلةَ كان خادشاً للأُلفة، وحامشاً للمودة، ومفسداً لصحة الأخوّة، وكان نتاج معالجته لنفسٍ سليمة كتركِه معالجة نفسٍ سقيمة سواء بسواء، إن لم يكن أشد.

- نظره في عواقب العتاب وآثاره، وتفكيره في مآلاته، فإن رأى فيه علاجاً للعلل، وتطهيراً للشحناء، واستدامةً للإخاء؛ أقدم عليه. وإن رأى فيه غرساً للعداوة، وجلباً للبعاد، وزرعاً للبغضاء؛ ترَكَه ولم يحفل به؛ لأنه رُبَّ هجْرٍ مُولَّد من عتابٍ، وجفاء ناشئ عن كتاب.

- أن يتسم بالنية الصالحة والقصد الحَسَن، ويجعل غرضَه من معاتبة أخيه صيانةَ الصحبة وتعميقَ المحبة؛ لأنها - كما قيل - تصلح بالعتاب وتصدق، وألا يكون مرامه منها تقرير الفضل، والانتصار للذات، والقيام بتعنيف الآخر وتبكيته وإثبات خطئه، إذ (العتاب ضربان: عتاب يحيي المودة، وهو ما كان في نفس الود، وعتاب يميتها، وهو ما كان في ذنب وموجدة. التقى أعرابيان فتعاتبا، وإلى جنبيهما شيخ، فقال: أنعما عيشاً! إن العتاب يبعث التجني، والتجني ذرء المخاصمة، والمخاصمة أخت العداوة، فانتبها عمّا ثمَرَتُه العداوة)[5]. لذا؛ على المرء ألا يعاتب من إخوانه إلا من يحب، ومن له في مكنون القلب منزلة وود، وفي هذا السياق يقول الشاعر:

أُعاتب ذا المودّة من صديق
إذا ما رابني منه اجتنابُ
إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ
ويبقى الودُّ ما بقيَ العتابُ[6]

- تقليل العتاب وتخفيفه، وتجميل التأنيب، وسلوك طريق الحسنى به، من خلال مراعاة المفاسد والمصالح، ووضع الخطأ في نصابه، وتجنُّب تضخيمه وإعانة الشيطان على أخيه أو إثارة الآخرين عليه، بل يقبل الصواب، ويتجنب التعميم، ويعرض عن بعضٍ، ويخاطب صاحبه برفق وإدلال؛ تاركاً



(١) آداب الصحبة، للسلمي: (١٥).
(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي: ٢١٦.
(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي: ١٤٥.
(٤) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/١٨٦.
(٥) محاضرات الأدباء، للراغب: ١/٣٣٣.
(٦) الجليس الصالح، للمعافى بن زكريا: ٣٦٦.



تاركاً التكـرار، مقدِّماً السـرَّ على العلـن، والتعريضَ على التصريح، والمكاتبةَ على المشـافهة؛ لأن المباشرة في المعاتبة والغلظة فيها، والإكثار منها؛ مجلبـةٌ لقلة الإخوان، فالكيِّس العاقل هو الفَطِن المتغافل، ومَنْ أكثرَ من معاتبة إخوانه وأعظَمَ من لومهم لم تطُل مودته، ولن يدوم لهم بصاحب. يقول موسى ابـن جعفر: «مـن لك بأخيك كله؟ لا تسـتقصِ عليه فتبقى بـلا أخ»(١). وقيل: «من عاتب في كل ذنبٍ أخاه؛ فخليقٌ به أن يملَّه ويقلاه»(٢)، ومن لم يتغافل ويغمض عينه عن بعض ما في صديقه؛ يمُت وهو عاتب، فأسوأ الآداب وأجفى الخلال تجاه الإخوان: شدةُ العتاب وكثرته.

وما أجمل مقولة بشار بن برد:

إذا كنتَ في كلِّ الأمـور معاتباً
صديقَك، لم تلقَ الذي لا تعاتبُه
فعِشْ واحداً، أو صِلْ أخاك؛ فإنهُ
مُـقـارفُ ذنـبٍ مَـرَّةً ومجانبُه
إذا أنتَ لم تشرب مراراً على القذى
ظمئتَ؛ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُه؟(٣)

ومقولة سعيد الكاتب:

أقـلِـل عـتـابَـك فالبقاء قليلُ
والـدهـر يـعـدل مـرَّةً ويميـلُ
ولـعـلَّ أيـامَ الحـياة قصيرةٌ
فـعـلامَ يكثُر عتبُنا ويطـولُ؟
لم أبكِ من زمنٍ ذممتُ صروفَه
إلا بكيتُ عليه كيف يـزولُ(٤)

- أن يوضح للمعاتَب أن غرضه من العتاب استدامة المودة وإزالة ما يعكرها، ويبدأ عتابه ويختمه بذكر محاسـن أخيه المعاتَب، ويُظهر له المحبة والإشـفاق عليه، ويشوب ملامته له بمدح وثنـاء صادق، حتى يكون ذلك أدعـى للولوج إلى قلبه وتقبُّله تجرُّع مرارة العتـاب، وحتى يكون في ذلك كثرة دلالة على اتسام الشـخص المعاتِب بالإنصاف، والرغبة في حفظ المودة، وتصحيح الحال، وإتيان رفيقه بالصواب.

- أن يتحين الوقت والمكان المناسبين؛ إذ لكل مقام مقالٌ، ولكل فعلٍ أوان، وللعتاب مواضع، وخير القول ما وافق الحال، وفي حفظ الحدود اسـتمرار الخير الموجـود. لذا؛ عليه أن يقصر عتابه على حالات الهدوء والاطمئنان وراحة البال التي لا توتُّرَ فيها، ولا غضب من كلا الطرفين فيها.

- ألا يعاتـب إلا من يرجو أوْبَتـه ويخال رجوعه، فمن لـم يكن له لُبٌّ يردعه، أو كان في حالة تحُول بينه وبين الفهم والاستيعاب، أو كان فاقداً لإرادة التراجع، غيرَ مالكٍ للعزيمة، أو غيـر قادر على التصويب للعلة المرادة؛ لم يحسُـن عتابُه، ولو عوتب كان في ذلك وضعٌ للشيء في غير موضعه، وإهمال بيِّن لحظِّ النفس، وعدم صيانتها عمّا لا يجدر بها ويحسُـن من مثلها.

- أن يُعنـى بمعالجـة أصل الخطأ وبواعثـه ولا يكتفي بمعالجة مظاهره، وألا يصحب عتابه بجفاء، ويرفقه بهجران وقطيعة أو كلمة قاسـية أو لفظ نـابٍ، فالحر تكفيه الملامة. وعليه أن يكثر عقِبه من التزاور والصلة، والإحسـان والكلمة الطيبة، ويداوم على التبسم والبشاشة، وإظهار المودة.

- ألا يقربَنّ الصنيعَ الذي يعاتـب أخـاه على فعـله، حتى لا يقع في الملامة الواردة في قوله - تعالى -: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقولـه - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِـمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُـرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَـا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣]، التـي نعى الله - تعالـى - فيها على طائفة من المؤمنين تتمدح بخير لا تأتيه، وتتنـزه عن شـر وهـي ملوثـة به جاثيـة في أسْره، وما أجمل مقولة الشاعر:

عـوِّد لـسـانَـك قِـلَّـة الـلـفـظِ
واحـفـظ لـسـانَـك أيّمـا حِـفْـظِ
إيـاك أن تعظ الـرجـالَ وقد
أصبحتَ محتاجاً إلى الوعْظِ!

- أن يُحسِـن الظن بأخيه، ويتجنـب الحكم على النوايا، ويضع نفسـه موضعه، فيتلمَّس له ما قـد يوجد من أعذارٍ دفعته للوقـوع في الخطـأ، ويحرص علـى إنصافه وترك التعسـف والمبالغة والتجني في إثبات الخطأ، ويدع الإصرار علـى اعترافه بخطئه قبل التصافـي، بل يعطي أخاه فرصة للتعبير عن وجهة نظره، ويقبل عذرَه، ويرضى عنه، ويعفو عن خطيئته والزلة التي حدثت منه في حقه؛ إذ المؤمن سمحٌ ليِّنٌ، سليم الصدر، حسَن الظن في الأصل، يطلب المعاذير لإخوانه، سـواء صمَت الآخر ولم يتمادَ، أو قـال: (لم أفعل)، أو قال: (فعلت لأجل كذا)، أو قال: (فعلت وقد أسـأت). قال عمر بن

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح: ١ / ٢٧٧.
(٢) غرر الخصائص الواضحة: ٢٣٩.
(٣) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري: ٢٣٣.
(٤) العمدة، لابن رشيق: ١٦٧.

الخطـــاب - رضي الله عنه -: «أعقل الناس أعذرُهم لهم»[1]، وقال بعض الأدباء: «من أحبَّ أن يسلم له صديقه، فليقبلْ عذرَه»[2]، وقال الشاعر في هذا السياق:

اقبلْ معاذيرَ من يأتيك معتذراً
إنْ برَّ عندك فيما قالَ أو فَجَرَا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهرُه
وقد أجلّك من يعصيك مستتِرَا

كما على من عوتب أن يتنبه إلى الجوانب التالية:

- أن يحمد الله - تعالى - على أن سخّر له من إخوانه من يعاتبه، وأن يعلم أنـــه بذلك مُنَعَّم محبور، إذ في العتاب حياة بين أقوام، وبعث على الإجلال والإكرام، وهو رائد الإنصاف، وشـــفيع المودة، ويد للمحافظة؛ تظهر للمرء من خلاله عيوبٌ خافية، ويســتطيع أن يزيل به من مســيرة العلاقة بينه وبين إخوته ما يعكر صفاء الوداد، ويهيج البغضاء والحقد، ويقطع أواصـــر الصحبة. قال بعض الحكماء: العتاب علامة الوفاء، وسلاح الأكفاء، وحاصد الجفاء، وقال آخر: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، وضربة الناصح خير من محبة الشّاني[3].

- أن يُحسِـــن الظنَّ بأخيه المعاتِب لـــه، وينظر إليه على أن غرضه من المعاتبـــة التنقيب عن علة لأخذ العفو وحدوث التصافي، وأنه عينه التي تريه الزلل، وتنبهه على ما لا يحسن صدوره عنه من الأقوال والفعال التي تسهم في تشتيت الأخوّة، وتضييع حقوق الخلة، فيشـــكر لـــه تنبيهه له وصراحته معه، وعنايته بحفظ مبنى المودة وأسوار الثقة. يقول ابن الرومي:

أنت عيني، وليس من حقِّ عيني
غـضُّ أجـفـانـهـا عـن الأقـذاءِ

- أن يضع نفســـه موضع أخيه، ويتخيّل مشـــاعره حال وقـوع الخـطــأ عليه، فيبـــادر إلى تطييب نفســـه بالمقالة والفعل، ويعـمل على إزالـة كرْبِه وطـمس غضبه بترك الخطأ، ومفارقة مسببات الجـفـاء، والاعتذار له عن الأمر الذي ألجأه إلى نهج سبيل المعـاتـبة، سـواء أكان ذلك خطأ صـادراً عنه بقـصد أو غـفلة، أو كان ســـوء فهـــم أو ضعف بيان .. ونحو ذلك، وألا يدع لشياطين الجن والإنس مجالاً لزراعة الضغينة، وإفســـاد بذور المحبة وما تقـادم مـن إخـاء ووفـاء وثقة، حتى لـــو كان المعاتِبُ مخطئاً في حقه، لائماً له على أمر لم يصدر عنه أو ليس في يده، متذكِّراً مقولة الشاعر:

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ
جـاءت محاسنُه بألف شفيعِ

- أن يتجنب الحلف، ويحـــذر من مقابلة معاتبة أخيه له بعتاب آخر، بل يعاتب نفســـه ويلومها على تســـبُّبها في إيذاء أخيه وإقحامه في دركات الغضب، سواء أكان مرد تلك المعاتبة إلى قول أو فعل صادر عنه، أو ســـوء فهـــم أو ظنٍّ بُنِيَ على ضعـــف معلومة ورداءة اتصال؛ إذ مـــا لام النفسَ مثلها لائم، والإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره.

ومتى تمكّن المرء من الاتصاف بذلك حَمِد للمعاتِب فعلَه، وإن تعجّل في عتابه أو أساء بأخيه الظن.

- أن يصبر ويحتســـب على وخزات اللوم ومقارع العتاب، ويعمـــل على القيام بحـــق أخيه واحتمال تقصيـــره، ويحذر الإعراض والجفـــاء؛ فإن الصدود - كما يقـــال- هو الفراق الأول، متذكّراً مقولة الشاعر:

صبرتُ على بعضِ الأذى خوفَ كلِّه
ودافعتُ عن نفسي بنفسي فعزَّتِ
فيا رُبَّ عـزٍّ ساقَ للنفس ذُلَّها
ويـا رُبَّ نفْسٍ بالتذلُّلِ عـزَّتِ
وجرّعتُها المكروهَ حتى تجرَّعتْ
ولو لم أجرِّعها كذا لاشمأزَّتِ[4]

والمتأمل في بيئة طلبة العلم والدعاة اليومَ يرى بجلاء أن العتاب الرديء كثيراً ما أسهم في بث الفرقة، وأورث القطيعة والشـــحناء، وأتلف أكثر مما أثمر، وأنه لا بد من إذاعة ثقافة العتاب الجميل، وتربية الأجيال - ذكوراً وإناثاً - عليها، حتى تحدث الصحة النفسية، ويتحقق الاستقرار الداخلي، فتذهب الحساســـية الزائدة، ويزول التوتر، وتنتشر البسمة، وتتجذر المحبة، وتعمّ الألفة.

وحريٌّ بمن كان غرضه صون أخوّته، وتعميق الوداد بينه وبين رفقاء دربه من أهل الفضل والإحســـان أن يتأدب بآداب المعاتبة، ويتخلق بأخلاقها الفاضلة، حتى تؤتي أُكُلَها، ويتحقق المقصد من إتيانها.

فاللهم ألهمنا الرَّشـــد، وزيِّنا بزينة اللـــين، وارزقنا غاية الرفـــق، وقوِّ دعائم الأخوة وأواصر الثقة بين علمائنا ودعاتنا وجيل صحوتنا وســـائر أمتنا، بمَنٍّ منك وإحســـان يا رحيم! وصلّى الله وســـلم على أشرف من عوتب وعاتب، نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح: ١/ ٣٧٧.
(٢) بهجة المجالس، لابن عبد البر: ١٥٥.
(٣) بهجة المجالس، لابن عبد البر: ١٥٥.
(٤) آداب العشرة، للغزي: ٣.



احذروا حلاوة الطاعات!

طه بن حسين بافضل
Bafdel70@hotmail.com

مـن نِعَم الله - تبارك وتعالى - على عباده أن شـرع لهم سـبلاً لطاعته ومنهجاً للقرب منه؛ ليكون أنيساً لهم من ضيق العيـش في الدنيا وهفواته، وبلاغاً إلى مرضاة الرب وجناته، وتثبيتاً لهـم في وجه فتن الزمان ونكباتـه، وزيادة على ذلك كله ترك لهم بعد فعلها حلاوة يجدونها في قلوبهم وألسـنتهم وعقولهم، فإذا بالسـكينة والطمأنينة تغشـاهم، والخشـوع والإخبات في قلوبهم، والهمة والعزيمة تتملك جوارحهم، كأني بأحدهم لـو أراد أن يزحزح الجبال لزحزحها عن مكانها من شدة القوة التي أدخلتها عليه تلك الطاعات والقربات.

«يقول بعض الشـيوخ: لقد كنت في حـال أقول فيها: إن كان أهـل الجنة في الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيب. وقـال آخر: إنه ليمرُّ على القلـب أوقات يرقص منها طربـاً. وقال الآخر: لأَهل الليل في ليلهـم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم»[1].

إلا أن هذه الحلاوة وهذه اللـذة التي تتركها الطاعة في قلب فاعلها تنقلب رأساً على عقب من دائرة الحسنة المقبولة المرضيِّ عنها إلى المردودة التي تُرمَى كالخرقة البالية في وجه صاحبهـا؛ ولهذا قال بعضهم: احذروا حلاوة الطاعات! وذلك لأن المقصود من الطاعــة لله - تبارك وتعالى - هو الخضوع والخشـوع والانقياد والتذلل والانكسـار له - سبحانه - فإذا خلـت من هذه المعاني واتصفت بأضدادها كانت سـمّاً قاتلاً ووبالاً على صاحبها.

فالعبـد المطيع وهو في غمرة طاعته لربه من خلال أدائه للأعمال الصالحة والمشـروعة يرجو ثـواب الله وإعلاء كلمة الله؛ يصيبه في سـيره المبارك داء العُجْب تارةً ومرض الكِبْر والغرور تارةً أخرى، فينحدر إلى الأسـفل بعد أن كان صاعداً إلى الأعلى. وبذكر المثال يتضح مقصود المقال:

١ - ذلـك المتعبِّد بركعـات النوافل الظاهرية والسـرية والمواظب على صـيام الأيام الشتوية والصيفية، والمداوم على ذكر ربه ومنـاجاتـه والخـلوة به والأنس إليه والانطراح بين يديـه؛ تجـده يفرح بهـذه الطاعة التـي وفَّقـه الله إليها؛ فانشـرح لها صـدره وقـوي بها قلبه وتلذَّذ لسـانه بذكر محبوبه، فينسـى حينـئذ نفسـه ويغفل عن ضعفه وتقصيره ويرى كأنه قـد بلغ المنزلـة المرموقة وضَمِنَ رضا ربه، فإذا به يزهو بنفسـه، ويحتقر مَنْ بجانبـه من إخوانه وأصدقائه، وينظـر إليهم في نفسـه بازدراء وتنقُّص وأنـه أفضل منـهم بدرجات ومسافات؛ فهو الصائم القائم المخبت الذاكر، أما هم

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/٦٤٧.



فالنائمـــون المتخمون الذين لا يعـرفون للَّـيل قيـاماً ولا للنهار صــيامـــاً، يقــولــون ما لا يفعلون، ويتظاهرون بما لا يبطنون، وَيْلهـم من يوم تكعُّ[1] فيه الرجال وتذهـل فيـه المرضـعـات عما أرضعن من شدة الحال.

لقد أصيب هـــذا المتعبِّد بداء العجب والغرور الذي صيَّره أنه بمفـرده قمـة في العـبادة واســتقامـة السلوك الذي حذَّر منه السـلف كثـيراً. قـال أبـو وهـب المروزي: سـألت ابن المبارك: ما الكِبْر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العُجْب؟ قال: أن ترى أن عـندك شــيئاً ليس عند غيـــرك، لا أعلم في المصلِّين شــيئاً شــراً من العُجْب[2]. ولهذا يصل الأمر بهذا المتعبِّد إلى أن يـتألَّى على الله مـن شـــدة عجبه وغروره، فعَنْ جُنْدُبٍ أَنَّ رَسُـــولَ الله ﷺ حَدَّثَ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَالله؛ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَنٍ. وَإِنَّ اللـــهَ – تَعَالَى – قَالَ: مَنْ ذَا الَّـــذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ؟! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ[3].

٢ – وهـذا طالب العلم الذي انشـــغل بعلوم الكتاب والسنة وأنفق ليله ونهاره في مطالعتها ومذاكرتها، وحصل له من ذلك خير عميم بالجلوس بين يـــدي العلماء، وثني الرُّكب تحصيلاً وســـؤالاً ومراجعة وتأمُّلاً في هديهم وســـمتهم، فكتب الله له القبول بين النـــاس، وصارت لذته وفرحه بتحصيل المســـألة أعظم من فرحه بتحصيل المال والتلذذ بأطيب ألوان الشـــراب والطعام:

سهري لتنقيح العلوم أَلَـذُّ لي
مِنْ وَصْـل غانية وطِيب عِناقِ
وتمايلي طـرباً لحـلِّ عويصة
في الدرس أشهى من مُدامة ساقي

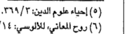
إنها حـــلاوة الطاعة التـــي غمرت قلب هـــذا الطالب؛ مصداقاً لقول النبي ﷺ: «من ســـلك طريقاً يلتمس فيه علماً ســـهَّل الله له طريقاً إلى الجنـــة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضىً لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له مَنْ في السماء والأرض، حتـــى الحيتان فـــي المـــاء»[4]، إلا أن هذه الحلاوة ســـرعان ما تنقلب إلى مرارة اضمحلال هذا الســـعي وذلك التحصيل؛ إذ يُعجَب الطالب بكبير عمله وجهده وبروزه من بين أقرانه؛ فيشـــمخ بأنفه عمن دونه، ويستنكف أن يحصِّل علماً منهـــم، وربما احتقر ضعف عقولهم وقلة فهمهم، بل ويمســـح بتحصيلهم وبتميُّزهم في شيء من العلوم والفنون الأرضَ؛ فهم لم يـدركوا مـا أدركـه من أصناف شتى من العلوم، ولم يفهموا ما فهمه من أصول ومباحث مهمة وحل إشـــكالات ومســـائل عويصة لم يتجاسر لحلِّها كبار المشايخ والعلماء.

والمصيبـــة الأعظم عندما تجد هـــذا الطالب الذي غرَّته حـــلاوة التحصيل وجودة العقل في فهم النصوص والمســـائل؛ يجرِّح عـالمـــاً ولا يعـدِّلـه، بـل يـذهب بعيداً بأن يســـلب منه لقب العلم والمشيخة، والأدهـى من ذلك كلـه أن يستهزئ بـه أو يحرض عليه ليمنع الناس من الاســـتفادة منه، ثم يقف عند شواذِّ مسائله ودقيق أخطائه وزلاته، ثم يفتح مشوار تحصيله، وأنه لا يملك سنداً متصلاً في القرآن ولا في شيء من الكتب المعتمدة التي يتأتَّى نيل الســـند فيها، وحتى شهادة الدكتوراه التي حصـــل عليها فإنما هي لقب خالٍ مـــن المضمون يتزين به عند العامة ليصبح مـــن النخبة المثقفة.. وهكذا. والنتيجة المترتبة لهذه المقدمات أن هذا الطالب المعجب بنفســـه يُخْرِج فئاماً من العلماء من دائرة العلم وأنهم ليسوا على المنهج الحق بـــل عندهم من البدع والضلال الشـــيء الكثيـــر، ثم تصل به الحال إلى التحذير منهم ومن ســـماع كلامهم والتلقِّي عنهم، إنهم في نظره يشـــكلون خطراً كبيراً على الأمة بل هم أخطر على الإسلام من اليهود والنصارى؛ لأنهم يقلبون النصوص عن حقيقتها ومرادها ويفســـرونها على غير مراد مُنَزلها سبحانه وتعالى.

إنها آفة القراء؛ كما قال الفضيل رحمه الله. لقد اغترت نفس هذا الطالب التي عشـــش فيها الفرح بحلاوة طلب العلم فأصابهـــا العجب فـــكان مصيره الهـــلاك ولا محالة؛ إلا أن يتغمَّده الله برحمة منه؛ فقد قال ابن مســـعود – رضي الله عنه –: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب[5].

إنها رؤيـة النـفس وإسـناد العمـل إليـها ورؤية المزيَّة لها عن غيـرها مـــن الناس. قال – تعالى –: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]؛ أي: فلا تثنوا على أنفســـكم بالطهارة عن المـعاصـي بالكلية أو بزكاء العمل وزيادة الخير، بل اشكروا الله – تعـالى – على فضله ومغفرته؛ جل شأنه[6]، فإن رســـول الله ﷺ يقول: «ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متَّبـــع، وإعجاب المرء بنفســـه»[7]. وقال ﷺ: «لـــو لم تذنبوا لخشـــيت عليكم ما هو أكبـر مـن الذنـوب: العُـجْـب»[8]. قال مطـــرِّف بن عبد الله: (لأن أبيت نائماً وأُصبح نادماً أحبُّ إليَّ مـــن أن أبيتَ قائماً وأُصبح معجَباً)[9]. وقيل لعائشـــة – رضي

(١) تكعُّ: تجبن وتخاف.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٠٧.
(٣) أخرجه مُسلم: ٨/ ٣٦(٦٧٧٤).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠٥٩)، وأبو داود: ٣٦٤١، وابن ماجه: ٢٢٣.


(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٦٩.
(٦) روح المعاني، للألوسي: ١٤/ ٦٤.
(٧) حسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة): ٤ / ٤١٣.
(٨) حسنه الألباني، وقال: رواه البزار بسند جيد، انظر: صحيح الترغيب والترهيب.
(٩) سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٩٠.



الله عنها -: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: «إذا ظن أنه محسن»[1].

والمعجَب أعمى عن آفات نفسه وعمله، والعمل إذا لم يُتَفَقَّد ضاع، وإنما يَتَفَقَّد عملَه مَنْ غلب عليه خوف الله وخوف ذنوبه ولا يريد الثناء على نفسه وحمدها وتزكيتها، وربما أُعجب برأيه وعقله فيستنكف عن سؤال غيره ولا يسمع نصح ناصح لنظره من سواه بنظر الاستحقار؛ نسأل الله السلامة والعافية.

«فمن طلب العلم للعمل كسره العلم وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء تحامق واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

«إن الذي يكتب الله له الهدى والخير يضع في قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب، فلا يأمن مكر الله، ولا يأمن تقلُّب القلب، ولا يأمن الخطأ والزلل، ولا يأمن النقص والعجز، فهو دائم التفتيش في عمله، دائم الحساب لنفسه، دائم الحذر من الشيطان، دائم التطلع لعون الله ونصره وتأييده، وهذا ابن القيم يقول: «فلا أنفع للصادق من التخفف بالمسكنة والذلة والفاقة وأنه لا شيء، ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره وكان يقول: ما لي شيء ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي
وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول: والله! إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعدُ إسلاماً جيداً»[2].

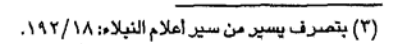
٣- ويسري الاغترار بحلاوة الأعمال الصالحة في كيان الجماعات والتنظيمات الإسلامية مما يُحدِث ذلك شرخاً كبيراً في التواصل بينها وتبادل الخبرات وسد الثغرات واحترام كل منها الآخر، بل تجد أن هذه الجماعة التي بلغت في مسيرة العمل الإسلامي سنين طوالاً واكتسبت خلال ذلك المشوار كمّاً هائلاً من النتائج الطيبة وهي تسعى - ولا زالت - للوصول إلى أهدافها الكبرى؛ تنسى في غمرة فرحها بما حصلته من طاعات وقربات أنها بحاجة ماسة إلى كل العاملين في الميدان الدعوي والعلمي والخيري والسياسي، وأن تمدَّ جسور التواصل وتقيم شبكات الاتصال مع كل العاملين بنظرة المحب لإخوانه، القريب منهم بتواضعه، ولين جانبه،

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٧٠.
(٢) مدارج السالكين: ١/ ٥٢٤.

> "يسري الاغترار بحلاوة الأعمال الصالحة في كيان الجماعات والتنظيمات الإسلامية مما يُحدث ذلك شرخاً كبيراً في التواصل بينها"

وحسن سلوكه، ولكن ليس شيء من هذا يحصل! بل يحصل العكس؛ إذ يظن العامل في هذه الجماعة الكبيرة أن جماعته هي الأصل وغيرها الفرع فليس للفرع إلا أن يتبع أصله ويعود إليه، وأن جماعته هي الأحق بالوصول إلى سدَّة الحكم؛ فهي المؤهلة لذلك تاريخاً ورجالاً وقيادة وفكراً وتنظيراً وعملاً. فهذا مثال للجماعات التي تتبنى العمل الدعوي والعلمي والخيري والسياسي ويفترض أن تكون أنموذجاً لتحقيق الأهداف الكبرى للأمة. ولم تسيطر هذه المفاهيم وترسخ في عقول قادة بعض الجماعات إلا لأنها تلذذت بحلاوة الطاعة وأسرفت في التلذذ فانقلبت عليها الأمور رأساً على عقب فأحاط بها العُجْب والغرور من كل جانب، فلم تنتبه إلى أهمية التواضع للمؤمنين والرحمة بهم وحسن الظن بهم وعدم الترفع عليهم والتعاون معهم على البر والتقوى، والتناصر والتبادل الإيجابي، وأن كل ذلك من أعظم مقومات النجاح لجماعتهم ابتداءً قبل غيرهم لو كانوا يعلمون.

إننا عندما نتحدث عن الحذر من حلاوة الطاعة ليس يعني هذا أننا ننفِّر منها وكأنها شر يجب أن نتقيه، ولكنَّ ذِكْرَنا لها إنما هو تحبيب فيها وسعي للوصول إليها وثبات على منوالها؛ فالغفلة عن مثل هذه الدقائق المهمة توجب التنبيه إلى أهميتها وخطورة الاستهانة بها. يقول الإمام الذهبي - رحمه الله -: فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلِّط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده، وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء، كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلتقون العدو، ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبآت وكمائن من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال، والعجب فوق ذلك كله.. فأنى يُنصَرون؟ وكيف لا يُخذَلون؟ اللهم! فانصر دينك، ووفِّق عبادك[3].



(٣) بتصرف يسير من سير أعلام النبلاء: ١٨/ ١٩٢.



www.tayba.fm

إذاعة طيبة



1 رسائل الأذكار

2 رسائل الفتاوى

3 رسائل المرأة المسلمة

4 رسائل أفراح الروح

5 هذا الحب يا حبيب

6 معاني كلمات القرآن الكريم

7 مواقيت الصلاة

8 مهارات النجاح

9 حكم وأمثال

للاشتراك في خدمة رسائل
جوال طيبة
أرسل رسالة نصية SMS
تحتوي على رمز الخدمة
إلى الرقم 1030

طريقة إلغاء الخدمة
أرسل حرف U زائداً
رقم الخدمة

عبر شبكتي
سوداني و زين

سوداني
sudani





د. محمد بن عبد الله الدويش
dweesh@dweesh.com

يعتني كثير من الناس - وبالأخص العاملين في الميدان الدعوي والخيري - بالتأهيل العلمي الأكاديمي لأنفسهم، وهي ظاهرة صحية وإيجابية؛ فالتأهيل يترك أثَرَه على شخصية الفرد وتعامله مع مواقف الحياة، وعلى أدائه العلمي والدعوي.

والتأهيل الأكاديمي - كغيره من الأدوات - هو وسيلة لبناء النفس وإعدادها، ومن ثم فمن أهم مداخل تقويمه الإجابةُ عن السؤال الجوهري: إلى أي حدٍّ أسهمت هذه الوسيلة في تطوير أداء أصحابها؟

وهذا السؤال ينبغي أن يكون مدخَلاً لاتخاذ قرارات الدخول في مشروعات التأهيل ابتداء، ومدخلاً لتقويم عملياتها ووسائلها.

ولقد قادت حرارة هذا التوجه الإيجابي للتأهيل العلمي والأكاديمي، إلى بروز ظواهر سلبية في ميدان التأهيل العملي، جديرة بالتساؤل حولها.

لقد أدى الطلب المتزايد على الشهادات العليا إلى بروز مؤسسات تجارية، لا تملك مصداقية علمية، تتسابق في منح الشهادات لمن يطلبها، و يديرها أفراد لا يملكون التأهيل العلمي، وهمهم الأكبر زيادة الدخل وإرضاء الزبون.

إن الحصول على لقب (الدكتور) يعني أن صاحبه يملك أعلى شهادة علمية في التخصص، وقد أصبح مرجعاً في تخصصه، ومتمكناً من أسس العلم ومهارات البحث فيه، ومن ثم ينبغي أن يكون ذلك معياراً في تقويم مشروعات مَنْح الألقاب العلمية.

وعليه؛ فالسؤال الذي ينبغي أن نسأله أنفسَنا قبل دخولنا في مشروعات كهذه هو: هل ما بذلناه من جهد علمي يكفي لأن نحكم على أنفسنا أننا نستحق هذا اللقب؟

والأمر يبدو أكثر تحدِّياً فيمن يحمل اللقب العلمي في غير تخصصه الجامعي، فهل استوعب أسس التخصص ومعارفه الأساسية ومهارات البحث فيه، أم أنه قام بكتابة مجموعة أوراق ومن ثم حاز اللقب العلمي؟

جدير بالصالحين أن يتحلوا بخلق الصدق والجدية، وأحسب أنه لا يليق بهم البحث عن الألقاب العلمية بأسهل الطرق ولو كانت ذات مصداقية متدنية.

حين نمنح أنفسنا ألقاباً فهو عبء نحمله يتطلب منا أن نكون عند مستوى هذه الألقاب، وعليه ينبغي أن نعي ماذا يتطلبه هذا الأمر. ووجودُ التعقيد والروتين في سياسات القبول وأنظمة التعليم العالي، لا يسوِّغ لنا التسابقَ في البحث عن اللقب بأي وسيلة.

وحين نختار لأنفسنا قراراً؛ فإما أن ندفع الثمن الملائم له، أو نبقى حيث تقف قدراتنا وعزيمتنا.

وما يحصل للمرء من مجد لا يستحقه سيصبح وبالاً عليه فيما بعد، وحين تتسع دائرة الحصول على المؤهل الرخيص يفقد قيمته ومكانته.

حتى أتغير

الثقافة الشفاهية

(١ - ٢)

د. عبد الكريم بكار
www.islamtoday.net/bakkar

لا يستطيع الناس التعامل مع بعضهم ومع تحديات الحياة وظروف العيش المختلفة من غير وسيط اسمه (الثقافة)، بل يمكن القول: إن الثقافة هي التي تنقل البشر من الوضعية (البايلوجية) إلى وضعية (الإنسانية)؛ وذلك بما توفره من مشاعر ورموز لغوية وعادات وتقاليد ومعايير للصواب والخطأ، والخير والشر، واللائق وغير اللائق... وأعتقد أن من الأهمية بمكان تسليط الضوء على هذه المسألة حتى نحسِّن درجة وعينا بأنفسنا وأحوالنا.

١ - نستطيع تقسيم الثقافة إلى شعبية ونخبوية، أو إلى شفاهية وكتابية، أو إلى ثقافة واعية وغير واعية، تختلف الأسماء، والمعنى واحد.

٢ - لا شك في أن الثقافة التي تكوَّنت لدى الأمم والشعوب أولاً هي الثقافة الشفاهية، أي: التي انتشرت وتغلغلت في النفوس



والسلوكيات عبر المشافهة وعبر الرؤية والسمع، فالناس جميعاً يتكلمون لكنهم لا يحسنون جميعاً القراءة والكتابة؛ وذلك لأن الكتابة تستدعي درجة من الوعي والتنظيم والمثابرة في التعلُّم، لا يتطلبه التفوُّه ببعض الكلمات أو صوغ بعض الجمل والعبارات. ولو كان هذا يتطلب ما تتطلبه الكتابة من جهد وتدريب لوجدنا كثيراً من الشعوب خرساً بكماً.

٣ – أما الثقافة التي يتشرَّبها الناس عن طريق القراءة والكتابة فهي ثقافة الأقلية، وهي تالية في وجودها للثقافة الشفاهية أو الشعبية، فالناس في الأصل كانوا أميين، ويظلون أميين إلا أن يتعلموا القراءة والكتابة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حيث قال – سبحانه –: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وبما أن الثقافة الشفاهية تنزع دائماً إلى البساطة والمحدودية؛ فإن الناس يكونون متقاربين جداً في تمثُّلها والسيطرة عليها، أما الثقافة الكتابية فإنها تنزع إلى التعقيد الشديد، ولهذا؛ فإن الفرق بين شخص يقرأ ويكتب وشخص آخر يوصف بهذا الوصف؛ كثيراً ما يكون أعظم من الفرق بين الأمي ومن يعرف مبادئ القراءة والكتابة.

٤ – تتشكل الثقافة الشفاهية من خلال العيش في مجتمع ومن خلال الممارسة والخبرة الشخصية التي يكتسبها الإنسان من خلال معاناته لشؤون الحياة المختلفة، ومع أن الثقافة الشعبية تستبطن نوعاً من التنظيم ومن المنطق، وتقبل شيئاً من الشرح والتفسير والتعليل، إلا أن وعي أصحابها بها يظل محدوداً؛ بسبب شحِّ الرموز والمصطلحات التي يمكن أن تساعدهم على اكتشاف ذلك. ولهذا؛ فإن الثقافة الشفاهية تتَّسم بنوع من الكتامة، ومن ثم فإن النفاذ إلى أعماقها من غير أهلها يظل أمراً عسيراً، كما أن اختراقها وتغيير بنياتها المختلفة يظل أيضاً صعباً، وإن كان هذا الأمر اختلف بعض الشيء بسبب الغزو الفضائي الرهيب الذي يجتاح العالم اليوم. ويمكن القول: إن ضعف تنظيم الثقافة الشفاهية، وإن صعوبة اكتسابها من غير معايشة أهلها؛ هما اللذان يوفران لها الحماية من عدوان الثقافات الأخرى، على حين يشكل التنظيم الجيد لاكتساب الثقافة الكتابية الطريق لاختراقها والسيطرة عليها، ولهذا؛ فإنك تجد أن المثقفين يكونون مستهدفين دائماً بالغزو الثقافي الخارجي، كما أن القوى الباغية والغازية كثيراً ما تتخذ من النخب الثقافية وكلاء محليين لترويج ثقافاتها ومصالحها، وهكذا نجد أن ضعف الثقافة الشفاهية هو الذي يؤمِّن لها درجة عالية من الحصانة والمناعة.

٥ – حين تغلب الأمية وتسود الثقافة الشفاهية يحدث شيء سيِّئ، وهو ضمور ما كان من قبيل الرمزيات والمرجعيات الأخلاقية وتراجع دور (الوازع الداخلي) في توجيه السلوك، ويكون كل ذلك لصالح هيمنة العادات والتقاليد والأعراف التي يقوم المجتمع على صياغتها وحمايتها. وتلك الهيمنة تصل إلى حدِّ الاستعداد إلى قتل من يخرج عليها أو نفيه وإسقاط اعتباره ومقاطعته... مع أن تلك العادات والتقاليد قد تكون غير عقلانية ولا منطقية وبعيدة عن تعاليم الدين وبعيدة عن تحقيق المصالح المستجدة... وبعضهم يدرك ذلك لكن لا يستطيع اتخاذ أي موقف عملي؛ حتى لا يتعرَّض للنبذ والإقصاء. وأهل الثقافة الشفاهية معذورون في ذلك؛ لأن تدنِّي مستوى المعرفة لديهم يجعلهم يبحثون عن شيء ينظِّم العلاقات بينهم، ويحول بينهم وبين الاقتتال والبغي، وحينئذ فإن العادات والتقاليد تكون أقرب متناولاً من أيِّ شيء آخر. ونجد هذا التشخيص حقيقة ملموسة في كثير من البلدان الإسلامية اليوم، بل تجد ذلك في البلد الواحد، فأهل الثقافة الكتابية ومن أوتوا حظاً من العلم والرقي والتقدم الحضاري يتحدثون عن هيمنة العقيدة والتعاليم الربانية والضوابط الأخلاقية والسلوكية التي جاءت بها الشريعة الغراء، أو يتحدثون عن رُؤاهم وقناعاتهم الشخصية، وما هداهم إليه بحثهم الخاص... أما الأميون وأشباههم ممن تضاءل حظهم من الثقافة المكتوبة فإنهم يشعرون أنهم موجَّهون من قِبَل ما تعوَّدوه، وهو شيء فوق النقاش، ولا حيلة في الخروج عنه ومخالفته، مع أن تلك العادات شيء ورثوه، ووضعته أجيال مرت بظروف وأوضاع مختلفة، وليس هناك أي ضمانة لصحة ما قاموا به. وهذه إحدى الضرائب القاسية للجهل والبعد عن تيار المعرفة والعلم والتقدُّم العقلي.

وللحديث صلة بإذن الله تعالى.



نص شعري

كأنَّ غزة ليست أخت قاهرة!

محمود مفلح

القاصفات وهذا الموت واللهبُ   وجرح غزة لا تدري به العربُ

لأيِّ داهيةٍ نمضي ولا قلقٌ   لأيِّ عِرقٍ من الأعراق ننتسبُ؟!

وكيف تعشب أرض العرب يا ولدي!   وليس في أُفْقنا برقٌ ولا سُحُبُ؟!

أحرار في أمرنا والنار تأكلهم   كأنما نحن طينُ القاع والحَصَبُ

ستون يوماً وأوراقي مبعثرة   وليس إلا بلاد العرب تُغتصبُ

لم يبقَ سترٌ علينا غير ما هتكوا   ولا جدار لنا من غير ما نقبوا

كأنما قال رب العرش: فَلْتهنوا   ولم يقل لجنود الحق: فَلْتثبوا!

وكيف نقرأ آيات مرتلة   ولا يرفُّ لنا جفن ولا عصَبُ؟!

وكيف نسجد للرحمن خالقنا   وللأباطر راحت تزحف الركبُ؟!

وأي معركة خاضوا ولست أرى   إلا معارك من سبُّوا ومن شجبوا؟!

خجلتُ يا غزة الأحرار من قلمي   وما عتبتُ وماذا ينفع العتبُ؟!

كأنَّ غزة ليست أخت قاهرة   ولا العروبة فيما بيننا نسبُ!

بأيِّ عين ترى الأطفالَ قد ذُبحوا   ولا تقول لجزّاريهمُ انسحِبوا؟!

وقفتِ وحدَكِ وسْط النار قائلة: إني إلى الله رب العرش أحتسبُ

ضاقت عليك وذاك الخصم أحكمها   وليته الخصم لكن «إخوة نُجُبُ»؟

جفَّ الحليب بأثداء النساء فلا   تبكي المروءة بل لا يغضب الغضبُ

وفاتَهم أنّهُ سِحْرٌ وآخره   لا بدَّ يوماً على السحّار ينقلبُ

ضاق الحصار فلا ماء يُبَلُّ به   ريقٌ ولا كسرة تنجو ولا رُطَبُ

ضاق الحصار على الأطفال والهفي!   والموت يُحدق فيهم ثم ينتحبُ

والعالَم الوغد لا ينفكّ مرتقباً   متى ستسقط تلك الراية العَجَبُ؟

متى سيصرخ من جوع ومن عطش   هذا المعاند، أو يلوي به التعبُ؟

متى سننزع لحن الغار من دمه   ويستقيل فلا همٌّ ولا نَصَبُ؟

متى سيلحق بالركب الألى زحفوا   على بطونهمُ دهراً وما تعبوا؟

وهالهم أن هذا «الصنفَ» مختلف   وأنه حين يبكي يبدأ الطربُ!

وحين ينزف تستشري بطولته   ويستوي الرأسُ في عينيه والذنبُ

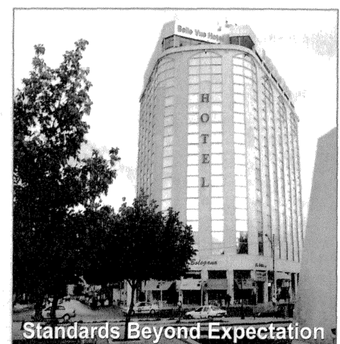
وحين نحسب أن الموت عاجله   وننفض الكفَّ من أخباره؛ يثبُ



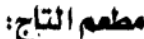


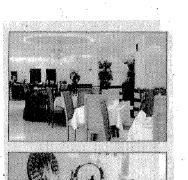






اكتشف المناظر الساحرة من جميع أجنحة وغرف بل ڤيو عمان. فندق من الدرجة الأولى وذو طابع مميز في قلب مدينة عمان لتوفير أكبر قدر من الراحة ولجعل إقامتكم معنا لا تنسى. جميع غرف وأجنحة النزلاء الواسعة والمريحة لها مناظر مدهشة ومجهزة بوسائل الإتصال المتطورة. سواء أكانت اقامتك معنا من أجل العمل أم من أجل المتعة، فندق بل ڤيو يجمع ما بين المستوى العالي من الخدمات الفندقية ذات الطابع المتميز والراحة القصوى التي تفوق كل التوقعات.





يقدم مطعم التاج أشهى الأطباق العالمية الشرقية و الغربية، و أيضاً يقدم المطعم يوميا بوفيهات الإفطار، الغداء و العشاء التي تجعل إقامتكم معنا لها طعم مميز.

مطعم الداون تاون الإيطالي:

أحد المطاعم الفريدة في عمان، حيث يقدم أشهى المأكولات الإيطالية المميزة، منها الباستا، المأكولات البحرية و البيتزا و لا تنسى التراس الخارجي ذو الإطلالة الرائعة الذي يقدم القهوة و الكوكتيلات الطازجة و البوظة.

بيتزا حطب:

مفهوم جديد للبيتزا المعدة على الحطب للأذواق المختلفة.

BELLE VUE HOTEL - AMMAN
2nd Circle Jabal Amman
P.O.Box: 840385 Amman 11184 Jordan
Tel: (962 - 6) 461 61 44 Fax: (962 - 6) 463 78 51

www.bellevue.com.jo
E-mail:info@bellevue.com.jo

- سورية و (الدولة الصهيونية)!
حسن الرشيدي

- لماذا ينتحر الجنود الأمريكيُون العائدون من الحرب؟!
د. أحمد إبراهيم خضر

- فرق الموت الصهيونية «المستعرفيم»
أ. د. يوسف كامل إبراهيم

- المجتمع الأمريكي والنفوذ اليهودي
د. عبد العزيز صقر

مرصد الأحداث
أحمد فهمي

انتبه لرأسك!
د. يوسف بن صالح الصغير







سورية و (الدولة الصهيونية)!

ما وراء حديث التسوية؟

حسن الرشيدي
istratigi@hotmail.com

«سورية تعرف جيداً ما نريد منها، ونحن نعرف ماذا يريدون منا».

هذا قول رئيس وزراء الدولة الصهيونية (يهود أولمرت) في معرض تعليق له على المفاوضات الدائرة بين سورية والدولة الصهيونية برعاية تركية.

وقد يعرف أولمرت ما تريده سورية، وبالطبع الدولة الصهيونية، ولكن المحللين والمتابعين لهذه المفاوضات يقعون في حيرة من حقيقة دوافع الطرف السوري في هذه المفاوضات.

فبينما يرى معلقون أن موضوع المفاوضات بشأن الجولان موضوع شكلي لدى كل الأطراف، سواء المشاركة في المفاوضات كسورية والدولة الصهيونية، أو الوسيطة كتركيا؛ فهذه الحكومات تريد إنجاز استحقاقات أخرى سياسية أو شخصية عن طريق هذه المفاوضات، وهي ليست لديها رغبة حقيقية في إنجاز شيء ملموس مباشر على الأرض، وإنما هي مجرد مفاوضات؛ يرى آخرون أن الأمر هذه المرة جدّيٌّ، وأن الطرفين سواء الدولة الصهيونية أو السوري يسعيان حقيقة لغلق هذا الملف (أي: ملف الجولان) وإنهاء حالة اللا حرب واللا سلم.

ولتبيين حقيقة ما يحدث؛ ينبغي علينا معرفة الموقف السياسي السوري الحالي لنتبيّن دوافعها الحقيقية من هذه المفاوضات.

الموقف السوري:

يعاني النظام السوري هذه الأيام من مآزق حقيقية أدت إليها السياسات والإستراتيجيات التي اعتُمِدت من قِبَل النظام، وبخاصة منذ وصول الرئيس السوري بشار الأسد إلى سُدّة الحكم.

هذه الورطة تتمثل في عُزْلة إقليمية ودولية متزايدة يعيشها النظام؛ فالدول العربية الكبرى - كالسعودية ومصر - تقاطعان النظام، وتصران على تعديل سياساته ولا سيما في لبنان، والابتعاد عن المحور الشيعي في المنطقة قبل الشروع في إعادة العلاقات الطبيعية معه، وأمريكا (القوة المهيمنة في الشرق الأوسط) تريده أن يلغي طموحاته الإقليمية وحلم سورية الكبرى، وألا يفكر في دعم حركات المقاومة في العراق وفلسطين، وألا تكون أراضيه معبَراً لدعم حزب الله الذراع الإيراني في المنطقة، وأن يفك ارتباطاته الإستراتيجية مع إيران. كما أن النظام يعاني من مشكلات داخلية حقيقية تتمثل في عجز اقتصادي، وتزايُد نشاط جماعات المعارضة الكردية؛ وما انتفاضة القامشلي ببعيدة.

وللبحث عن أسباب تراجع الدور السوري؛ ينبغي علينا تحديد أهداف النظام وترتيبها على سُلَّم الأولويات لفهم سلوكه السياسي.

ولفهم أهداف النظام السوري وإستراتيجياته؛ يجدر بنا الرجوع إلى لحظة ميلاد هذا النظام، وتحديداً عند الانقلاب أو ما يسمى حينئذٍ الثورة التصحيحية، التي قام بها الرئيس السابق حافظ الأسد. فقبل هذا الانقلاب، ومنذ نهاية الأربعينيات من القرن الماضي؛ لم يكن النظام السياسي في سورية مستقراً، بل كان دائمَ التعرُّض لموجات متتالية من الانقلابات العسكرية التي يحركها ضباط من الجيش السوري، حيث آلت الأمور في النهاية لحافظ الأسد بانقلاب

عســكري أيضاً، ولكن الجديد هــذه المرة هو أن الوضع في ســورية بات مســتقراً ولم يتغير النظام بانقلابات أو نحوه، وهنا يحتار المرء في تفســير أسباب ذلك التحول الذي طرأ على النظام السوري: هل هو نجاح الأسد في تحييد الجيش عن القيام بمثل هذه الانقلابــات، أم تفوقه في ضرب قوى المعارضة لنظامه وســحقها وعلى رأســها جماعة الإخوان المســلمين، أم نجاحه في إيجاد توافــق إقليمي ودولي حول نظامه، أم كل هذه العوامل مجتمعة؟

كان الهدف الأساســي للنظام السوري هو إحياء سورية الكبرى التي لهــا دور رئيس مهيمن في المنطقة. وســورية الكبــرى حدودها تمتد حتى البحر في لبنــان وجنوباً حتى العقبــة، ولها تأثير على مجرى الأحداث في العراق والأردن وفلسطين، وصاغ حافظ الأسد بحنكته ودهائه إستراتيجيةً لتحقيق ذلك الهدف، التي تنوعت إلى عدة عناصر، أهمها:

١- إيجــاد موطئ قدم لســورية فــي كل أزمة تمر بها المنطقة من فلسطين إلى العراق، مروراً بلبنان، إلى الجماعات الجهادية، إلى غير ذلك.

٢- وجود جهاز مخابرات قوي يخترق كثيراً من التنظيمات والجماعات والدول.

٣- وجود حد أدنى من التوافق الإقليمي أو الدولي على سياساته.

٤- قمع المخالفين والمناوئين لسياساته بوحشية.

وبفضــل تكامل تلك العناصر؛ نجح حافظ الأســد في اختــراق ملفات عديــدة إقليمية ودوليــة مكّنته من تحقيق منجزات عديدة علــى الأرض، منها: مد نفوذه العســكري المباشــر إلى لبنان، وحدوث توافق إقليمــي ودولي لبقائه، والرضا والســكوت بل تأييد توريثه الحكم إلى بشــار، حتى وصل هــذا التأييد من أطراف تبدو متنافــرة، مثل: إيران، والســعودية، ومصر، وأمريكا، والدولة الصهيونية، وأوروبا. وبعــد أن رحل حافظ الأســد وجاء الابن بشــار الذي اتبع إستراتيجيات أبيه نفسها، ونتيجةً لاختراق أجهزة مخابراته العديدَ من شبكات الإســلاميين في أوروبا؛ نجح في تقديم قائمــة بخلية هامبورج إلى المخابــرات الأمريكية، تلك التي كُوِّنــت منها المجموعة التي ضربت نيويورك وواشــنطن في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

وبعــد احتلال العراق؛ أوجد النظام الســوري له موطئ قــدم في أرض الرافدين عن طريق اختراق أجهزة مخابراته بعضَ المجموعــات التي كانت تتجه إلــى العراق عن طريق ســورية لمقاومة المحتل، ليستخدمها الأســد بعد ذلك ورقة مســاومة مع الولايات المتحدة لتغضّ الطرف عن نفوذه في أماكن أخرى، واتبع بشار إستراتيجية أبيه نفسها في البطش بخصومه؛ وما قتلُ المعارضين اللبنانيين للتدخل السوري في لبنان ببعيد، وعلى رأسهم جريمة الاغتيال الوحشية لرئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري.

ولكن ما لم يســتطع بشــار مواصلته التوافقُ الإقليمي والدولي على سياساته، وذلك نتيجة لعدة عوامل، أهمها:

دخــول المنطقة حلبة صراع بين مشــروعين: مشــروع صهيوني بشــقّيه الأمريكي واليهودي، هذا المشــروع الذي دشــن وجوده بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما أتبعه مــن احتلال أفغانســتان والعــراق، ومحاولته تحت ضغط التهديــدات تغييرَ أنظمة الدول التــي لا تتوافق مع هيمنته ومشروعه. أما المشروع الثاني الذي دخل في صراع حاد مع المشــروع الأول؛ فهو المشروع الإيراني الشيعي، الذي يحاول جنــيَ ثمار مخططات بدأت منذ مــا يقرب من ثلاثين عاماً للهيمنة الشيعية على المنطقة. والمثير أنه دخل في تقارب مع المشروع الأمريكي في بداياته، وبمساعدته نجح في إسقاط قــوى الممانعة العربية الإســلامية الحقيقيــة، وهي نظاما طالبان وصدام حسين، ولكن سرعان ما بدا للولايات المتحدة بعد خســائرها المتصاعدة في العراق؛ أن الرابح الأكبر هو حليفها غير المعلن إيران؛ التي تجني الأرباح صافية من غير خسائر بينما لا تجني أمريكا غير الحنظل.

وتقاطــع الصراع في عدة بؤر كبرى: في العراق، ولبنان، وعلى البرنامج النووي الإيراني، وبلغ ذروته بتحريك الأساطيل الأمريكية في مياه الخليج والتهديد الأمريكي بتوجيه ضربة عسكرية إلى إيران.

وقف النظام السوري برئاسة بشار الأسد في خضم هذا الصراع بجانب الحليف الإيراني، معتقداً أنه ســيكون الفائز في هذا الصراع، ورمى بثقله مع المشروع الإيراني في المنطقة،



ودخل في صراع مكشوف مع الجانب الأمريكي والجانب العربي الذي بدا خائفاً من تمدد المشروع الإيراني. ونعتقد أن هذا هو الخطأ الأكبر الذي وقع فيه النظام السوري ولم يكن ليقع فيه - والله أعلم - لو كان حافظ الأسد على قيد الحياة؛ فعلى الرغم من تحالفه الإستراتيجي مع إيران، فقد نجح بمكره وحنكته في التواصل مع النظام العربي والولايات المتحدة. أما الابن فمن أجل تحالفه الإيراني، انضوى تحته، وبات أقرب إلى التابع من الند والشريك، وضحى من أجله بروابطه العربية وحتى الدولية، ودخل في صِدام مباشر مع هذه الروابط، وتبدى ذلك في لبنان باغتيال الحريري، فأغرق نفسه في خضم المحكمة الدولية، وعادى بشار العرب وبخاصة أكبر دولتين وهما السعودية ومصر؛ بسبب طموحاته في لبنان وتحالفه مع إيران، كل ذلك أسهم في أن يكون في عزلة عربية ودولية لم يمر بها النظام السوري من قبل.

الأمر الثاني الذي يُقلِق النظام السوري هو المحكمة الدولية في قضية اغتيال الحريري، التي يبدو أن النظام قد تورط فيها بشكل أو بآخر، وباتت إحدى أوراق الضغط التي يمارسها بعضهم على النظام وتزيد من عزلته.

الأمر الثالث هو ضياع لبنان من سورية واضطراره إلى الانسحاب منه على الرغم من بقاء نفوذ استخباراتي قوي. ولبنان في النظر السوري جزء من المشروع السوري للهيمنة في المنطقة ولعب دور إقليمي كبير.

الأمر الرابع الذي سبب ذعراً للنظام السوري هو الضربة العسكرية الصهيونية التي وُجِّهت في الغالب إلى منشآت اشتُبهت في كونها منشآت نووية، وهذا سبّب إحراجاً سوريّاً بالغاً، على الرغم من أن الدولة الصهيونية قد حرصت على كتمان أمر الضربة، ولكن المصادر الأمريكية عملت على تسريبها.

ولذلك بات الشغل الشاغل لنظام بشار الأسد هو كسر العزلة الضاربة حوله، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ كيف العودة إلى الإستراتيجية والركيزة الرابعة التي يعتمد عليها النظام منذ نشأته على يد حافظ الأسد، والتي فقد بوصلتها بشار؛ هي التوافق الإقليمي؟

شرع بشار في إحياء المفاوضات مع الدولة الصهيونية بشأن الجولان عبر طرف وسيط هو تركيا. وإذا كان كل طرف، سواء التركي أو الصهيوني، له أسبابه في الولوج إلى بوابة المفاوضات؛ فإننا في هذا الصدد نحلل دوافع النظام السوري من هذه المفاوضات، وهي ترمي في المقام الأول - كما أسلفنا - إلى استعادة الإستراتيجية السورية التي ترمي إلى كسر العزلة الدولية والإقليمية حول سورية، ثم تجنّب الأمور الثلاثة الأخرى التي ذكرناها سابقاً.

ولكن كيف تحقق المفاوضات مع الدولة الصهيونية كل ذلك؟

النظام السوري يعشق المقايضات؛ ففي السابق بسط نفوذه على كل لبنان، وعندما اجتاح صدّام الكويت أرادت الولايات المتحدة مساعدة النظام السوري لها في إخراج صدام من الكويت؛ فرفعت الولايات المتحدة الغطاء عن العماد (ميشيل عون) الذي كان وقتها قائداً للجيش للبناني ومن أشد المعاندين للوجود السوري في لبنان، وحينها قصفت الطائرات السورية مقرّ (عون) الذي فرّ هارباً ملتجئاً إلى السفارة الفرنسية في بيروت، ومد الجيش السوري نفوذَه في أرجاء لبنان حتى اغتيال الحريري، حيث أجبره الضغط الأمريكي على الانسحاب من لبنان .

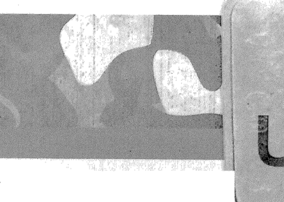
فأمريكا بوش تنظر إلى تدخلات النظام السوري في العراق على أنه يلعب في غير ساحته وفي غير أوانه؛ لذلك أدخلته في محور الشر.

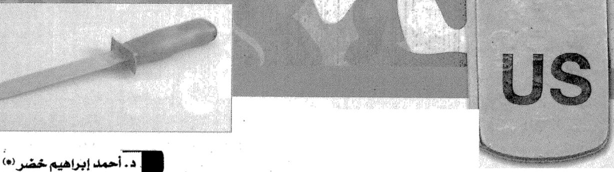
ونظام بشار الآن على الوتيرة السابقة نفسها، فهو يظن أن دخوله في مفاوضات سلام مع الدولة الصهيونية بالشروط الصهيونية سيفتح له القلب الأمريكي ويمنحه صكّاً لتجاوز المشكلات التي يعاني منها.

ولكن يبدو أن الموقف الأمريكي في الانفتاح على النظام السوري وإعطائه صك البراءة مرة أخرى؛ لم ينضج بعدُ، في انتظار نضوج باقي الملفات، وعلى رأسها: الملف الإيراني، لكي تطمئن أمريكا على الوضع العراقي، فالموقف الأمريكي في انتظار إما الصفقة أو الضربة ضد إيران، ولكن أمريكا ربما أرادت طمأنة الجانب السوري نتيجةً لضغوط الدولة الصهيونية بإعطائه جزرة صغيرة؛ فتركت ميليشيات الشيعة تجتاح بيروت رافعةً صورَ بشار مرة أخرى في بيروت.









د. أحمد إبراهيم خضر (*)

من المعروف عند علماء الاجتماع العسكريّ في الولايات المتحدة أن القوات المسلَّحة تمثِّلُ اختياراً ضعيفاً لِمَنْ يرغبون في الالتحاق بها، فهم يجدون فيها ملاذاً للهروب مِنْ مجتمعٍ يقـوم في بنائِهِ على المنافســة الحرة، التي لا يســتطيعون الدخـول فــي حلبتها، ومكانــاً للحصول علــى متطلباتهم الأساسية، بالإضافة إلى دَخْلٍ عالٍ لا يتمكَّنُون مِنَ الحصول على نَظِيرِهِ في الحياة المدنيــة؛ ولهذا يكون مِنَ المنطقيِّ أنْ يفكر الجنود الأمريكيون في الانتحار، في ظلِّ ظروف قتالية صعبة، يعانون فيهــا مِنَ الخوف والذعر، ومِنَ الموت في كلِّ لحظة، ولا يَرَوْنَ حولهم إلا القتل والدمار والنيران والقنابل. وهذا يعني بالنسبة إليهم أنه يُلْزِمُهم أنْ يدفعوا ثمناً باهظاً؛ لتحقيق أهدافهم التي التحقوا مِنْ أجلها بالقوات المسلَّحة.

أمَّــا أن يُقْدِمَ هــؤلاء الجنود على الانتحــار حتى بعد الخــلاص مِنْ هذا الجوِّ القتاليِّ العنيــف، وبعد العودة إلى بلادهم حيث الهدوءُ والســلامُ والحياة المدنية التي تتناقض تماماً مع الحياة العســكرية؛ فهذا غير منطقيٍّ، ويحتاج إلى وقفة تحليلية لحقيقة هذه المشكلة.

في مقالة للباحث الاشــتراكي الأمريكــي (جو ماكاي) بتاريخ ١٣ ديســمبر ٢٠٠٧م، بعنــوان «موجة انتحار الجنود الأمريكيين العائدين مِنَ الحرب»؛ كتب يقول: «مِنْ بين الآثار الدرامية لتفجُّر العسكرية الأمريكية؛ هو هذا الارتفاع الحادُّ في معدلات الانتحاريين من الجنود الأمريكيين؛ ســواء أكان بين الذين يقومون بأداء الخدمة الفعلية، أو الذين سُرِّحُوا مِنَ الخدمة وعادوا إلــى موطنهم. إنَّ هؤلاء الجنود قد أصابهمُ الذُّعْرُ والهَلَعُ لما شــاهدوه، وما أُجْبِرُوا على فِعْلِهِ في العراق وأفغانســتان، ولمَّا لم يجدوا مِنَ الدولة اهتماماً يســاعدهم على تَخَطِّي الأزمات الصحية والنفســية التي يعانون منها؛ قرَّرَ العديدُ منهم أن يُنْهِيَ حياته بنفسه».

(*) عضو هيئة التدريس السَّابق في جامعات: القاهرة، والأزهر، وأمّ درمان الإسلامية، وجامعة الملك عبد العزيز.



تَعَـرَّضَ (ماكـاي) في مقالتِهِ السَّـالفة الذِّكْر لما دار في جلسة استماع لجنة شـؤون الجنود المُسَرَّحِينَ، ولشهاداتِ أُسَرِ الجنود المنتحرين، وخبراء الصحة العقلية، والعديد مِنَ الشـهود الآخرين؛ لما وُصِفَ بـ «وبـاء الانتحار» بين الجنـود العائدين من الحـرب. وأوضح (مـاكاي) أنَّ هذا الاستماع كان اسـتجابةً للتقارير التي أطلقتها محطة (سي بـي إس) الإخبارية الأمريكية، والتـي أخذت على عاتقها - ولأول مـرةٍ - محاولـة إحصـاء أعداد هـؤلاء الجنود، وأعلنتِ المحطة أنَّ هـذه الأعداد ليسـت صادرة عَنِ الجيش الأمريكـي، الـذي لا يُحْصِـي إلا أعداد الجنـود المنتحرين أثناء أداء الخدمة فقط، وأكـدتِ المحـطة أنَّ الأعداد التي أحصتها قد تحصَّلتْ عليهـا مِنْ خمسٍ وأربعـين ولاية، مِنْ مجموع الولايات الخمسين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكشـفتِ المحطة أنَّ أعداد الجنود العائدين مِنَ الخدمة في ميدان الحرب ممن قاموا بقَتْلِ أنفسِـهم تبلغ ٦٢٥٦ منتحراً، بمعدل ١٢٠ حالة كلّ أسـبوع، وبواقع سـبعَ عَشْرَةَ حالةً كلَّ يوم. وجميع حالاتِ الانتحار هذه كانت بين الجنود الشـبان، الذين قاتلوا في العراق وأفغانستان بشكل خاص، وتتـراوح أعمارهم بـين ٢٠ إلى ٢٤ عاماً. وأوضحتِ المحطة كذلك أنَّ معدلات الانتحار بين الجنـود العائدين تزيد عَنْ معدلاتـها بـين جنود الخدمة الفعلية؛ من ٢,٥ إلى أربع مرات.

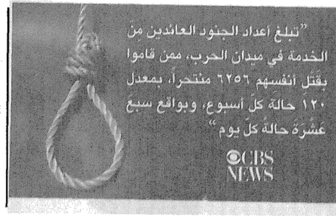
واقتبسـتِ المحطـة في تقريرهـا السـابق كلمة (بول سوليفان) - مسـؤول الجنود العائدين أمام لجنة الاستماع - وهي: «تُبَيِّنُ هذه الأعداد بوضوح أنَّ هناك وباءً منتشراً بين الجنود العائدين؛ اسمه اختلال الصحة العقلية».

وأدلى (مايك لوبان) والـد (تيموثي) وهو أحد الجنود المنتحرين العائدين مِنَ العراق في عام ٢٠٠٥م؛ بشـهادته أمام اللجنة المذكورة، وانتقد موقف لجنة شـؤون الجنود العائدين من تقرير المحطة، وقال: «إنه كان أَحْـرَى باللجنة بدلاً مِنْ أنْ تنتقد الكيفية التـي أظهرت بها المحطة أعداد الجنود المنتحرِين؛ أنْ تتبنَّى هذا التقرير، وأنْ تستخدمَهُ بوصفه وسيلةً تساعد على تحسـين أمور الصحة العقلية والنفسية داخل إدارتها».

وامتدح (لوبان) جهود المحطة، وقال: «إنها قامت بما لم تَقُمْ به أية جهة حكومية، بإحصائها أعداد الجنود المنتحرين؛ مما ألقى الضوء علـى هذا الوباء الخَفِيِّ؛ ليكون الشـعب الأمريكي على دراية بالموقف».

وتحدَّثَ (لوبان) في شـهادته عَنِ ابنه (تيموثي)، وقال: «إنَّ حالـة ابنه مشـابهة للعديد مِنْ حـالات أقرانه الجنود المنتحريـن؛ فقد التحـق (تيموثي) بالحـرس الوطني عام ٢٠٠٣م؛ ليتمكن مِـنْ جَمْعِ المال الذي يكـون به قادراً على استكمال دراسـته الجامعية، ولكي يجمع رصيداً مالياً يبدأ به مسـيرته في الحياة. ذهب (تيموثـي) إلى العراق، ورجع منه في عام ٢٠٠٥م شـخصاً مختلفاً تماماً، كان يضع نظارة على عينيه، ويُحَمْلِقُ علـى بُعْدِ ألف ياردة؛ باحثاً عَنْ متمرِّدٍ عراقـيٍّ. لم يتلقَّ (تيموثي) ولا عائلته أيَّة مسـاعدة صحية تسـاعدهم على تَخَطِّي الأزمة النفسية العقلية، الناتجة عَنْ ضغوطِ مرحلةِ ما بعد العودة مِنَ الحرب، وحسـم (تيموثي) الأمر بأنْ أطلق النار على نَفْسِه، ولم يتخطَّ عمره وقتها ثلاثة وعشرين عاماً».

ويـرى (جون ماكاي) أنَّ أهم الشـهادات التـي كانت أمام اللجنة المذكورة هي شهادة (بيني كولمان)، مؤلفة كتاب شهير عن الاختلالات العقلية والنفسية لمرحلة ما بعد العودة مِنَ الحرب. وقد حاولت (كولمان) في شهادتها أنْ تكشف عَنِ الأسباب الاجتماعية لارتفاع معدلات الانتحار بين الجنود العائدين مِنَ الحرب.





وانتهت (كولمان) مِـنْ تحليلاتها إلى القول: إنَّ آثار الانهيـارات العقلية المتزايدة بين الجنود الأمريكيين يجب ألا يُنْظَرَ إليها فقط في حدود ميلهم إلى الانتحـار، ولكن يجب أن يُنْظَـرَ إليها كذلك في حدود الجرائـم التي ارتكبها هؤلاء الجنود ضد الشـعب العراقي، فحينمـا ظهرت صور التعذيب في سـجن (أبو غريب) في عام ٢٠٠٤م؛ انهار جـدار الصمت في الصحافة عَنْ جرائم الجنود الأمريكيين في العراق، وانكشـف المستور مِنْ حالات القتل والتعذيـب والعنف ضد المدنيـين، وأظهرت التقارير الأخـرى فيما بعد حالات عنف مِنْ نوع آخر، ارتكبها الجنود العائـدون مِنَ الحرب ضدَّ مواطنيهم الأمريكيين. وفَسَّـرَتْ (كولمان) هذه الفوضى مِنْ حالات القتـل بأنَّها ناتجٌ حَتْمِيٌّ، خرج مِـنْ رَحِم احتلالٍ لبلدٍ، صُوِّرَ فيـه مواطنوه على أنهم أعـداء. كما أنَّ التطـورات الحديثة فـي التدريب القتالي الأمريكي عمدت إلى فَصْلِ الـمُجَنَّد عَنْ هويته المدنية؛ بهدف الوصول بكفاءة الجندي وفاعليته في قَتْلِ العدو إلى حدِّهما الأقصى؛ ومِنْ ثَمَّ كانت الأساليب الوحشية في إذلال المدنيين العراقيين وإهانتهم، وقَتْلِ مليون عراقي، وتَحَوُّلِ أربعة ملايين إلـى لاجئين، وتدمير مجتمع بأَسْـره؛ ثمرةَ إعادة برمجة المجنَّدين، وَفْقاً لمجموعة جديدة مِنَ الاسـتجابات الـمُتَعَلَّمة، التي تحقق أهداف الصفوة السياسـية العسكرية الحاكمة. تقول (كولمان): إنَّ هذا المشروع البربريَّ لهذه الصفوة الحاكمة لا بُدَّ أنْ يترك تأثيره النافذ على الصحة العقلية للجنود، الذين لا يزالون بَشَراً. ولكي يمكن التغلب على هذا الجانب الإنسـانيِّ في الجنود، الذي قد يمنعهم مِنْ قَتْلِ بشرٍ مثلهم؛ كان لا بُدَّ مِنْ تحويلهم إلى مرضى، عَنْ طريق زَرْعِ استجاباتٍ لديهم، أساسُها الوحشيةُ والقسوةُ، وهي أمرٌ لازمٌ لكلِّ قوى احتلال. هذا بالإضافة إلى إشعارهم المستمر بالخوف مِنَ الموت الذي يسبِّبُ لهم - وحده - مشاكل نفسية حادة.

وتستمر (كولمان) في تحليلاتها فتقول: «إنَّ الانتحار في حدِّ ذاته مكسبٌ لإنسانية الجنود، وليس دليلاً على ضعفهم؛ فقد وجد الجنود - رجالاً ونساءً - أنه مِنَ الصعب عليهم أنْ يستمروا في هذه الحياة، بعد ما رَأَوْه وفَعَلُوه في الحرب».

وهناك عوامل أخرى ساهمتْ في رَفْعِ معدلات الانتحار طوال فترة الخدمـة الفعلية في الحرب؛ منها: إعادة تجنيد بعض الجنـود لفترة أطول، بالرغم مـن ظهور اضطرابات نفسـية وعقلية عليهم، ومنها: اسـتخدامهم المكثَّف للأدوية المقاومة للاكتئاب؛ بحثاً عَنْ علاج قصير المدى لما يعانون منه من اضطرابات، وكذلـك تجنيد الأفراد الذين يعانون أصلاً مِن اضطرابات نفسية سابقة.

وضربت (كولمان) مثالاً بحالـة الملازم (إليزابيث هوايت سايد) بوصفها رمزاً يُبَيِّنُ الطريقة التي يتعامل معها الجيش الأمريكي مع جنـوده المنهارين في الحرب. كانت (إليزابيث) تقوم بحراسة أحد السـجون، وإِثْرَ حالة مِنَ الشَّغَبِ قام بها النُّزَلاء، بعد إعدام الرئيس العراقي السابق (صَدَّام حُسَيْن) في ديسمبر ٢٠٠٦م؛ أُصِيبَتْ باضطرابٍ حادٍّ؛ فلَوَّحَتْ ببندقيتها في الهواء، وأطلقتِ النار على السقف، ثم أطلقتِ النار على نَفْسها. وشَخَّصَ الأطباء النفسيون العسكريون حالتها - بعد أنْ تعافـت - على أنها عانتْ من اضطرابٍ عقليٍّ حادٍّ، ربما سَبَّبَتْه ضغوطُ الحرب الشديدة عليها، لكنَّ رؤساءها صمَّموا على محاكمتها، واعتبروا أنَّ هـذا الاضطراب الذي تَدَّعيه إنَّما هو بمنزلة اعتذارٍ عَنْ سلوكها الإجراميّ.

ولا يبدو - في تصوُّرنا - أنَّ تحليل (كولمان) مقنعٌ، بل نرى فيه محاولة تبريرية لتصرفات الجنـود في الحرب، وكذلك لتبرير انتحارهم أيضاً، وإلقاء اللوم كلّه على الصفوة السياسية العسـكرية الحاكمة، على أسـاس أنها هي التي دفعتهم إلى ذلك. كما نرى في هذا التحليل محاولةً أخرى للتركيز على أنَّ الجانب الإنسانيَّ هو الأصل عند هؤلاء الجنود، وأنَّ انتحارَهم كان مِنْ باب تأكيد هذا الجانب الذي توقَّف بسبب الحرب.

أغفلتْ (كولمان) تماماً أنَّ الصفوة السياسـية والعسكرية الحاكمة فـي الولايات المتحـدة، وهؤلاء الجنود هـم نِتَاجُ ثقافـةٍ خاصة، هـي الثقافة الأمريكية، هـذه الثقافة التي لهـا خصائصها الـمُمَيِّزَة، وأَوَّلُها: أنهـا ثقافة تُصَوِّرُ الحياة



على أنهـا المنفعة فقط، والنفعية عند هــذه الثقافة - كما وضع أُسُسَــها (جريمي بنتام) في عام ١٨٦٣م - هي مقياس الأعمال، وهـــي المفهوم البارز في النظــم الغربية جميعها. ومفهومها الخاص عَنِ السعادة هو إعطاء الإنسان أكبر قِسْطٍ مِنَ المتعة الجسدية، وتوفير أسبابها له، أما الناحية الروحية فهي فردية بحتة، لا شــأن للجماعة بها، وتعزل هذه الثقافة عَـــنِ الحياة كلَّ قيمة، إلا القيمةَ الماديـــة وهي الريح. ويقوم جوهر هذه الثقافة على أنَّ الإنســـان هو الذي يضع نظامه في الحيـاة، وله مُطْلَقُ الحـريـة في ســـلوكه الخـاص، ومَنْع كلّ ما مِنْ شـــأنه أن يُعيقَ ذلك، وله أنْ يفعل بنفسه وجسـمه ما يشاء، وله أن يُكَيِّفَ حياته بالشكل الذي يحلو له.

وفـي ضـوء هـذا الفَهْم لهـذه الثقافة يمكـن تفســـير كلّ ما نعتقـــد أنَّ (كولمان) قد حادَ عَنْ تفســـيره؛ فقد ذهبتِ الصفوة الحاكمة إلى العراق وأفغانســـتان طبقاً لمبدأ المنفعة، وذهب (تيموثـــي) و (إليـزابيث) وآلاف الجنود الآخرون إلى الحرب وَفقاً للمبدأ نفسه، وإن اختلف قَدْرُ المنفعة بقدرِ حجمِ المنتفع؛ فالحياة العســـكرية لـمَنْ يلتحـق بالجيش قد تكون مهرباً مقبولاً اجتماعياً مِنَ المشـــكلات العائلية، أو الوظيفية التي يعانون منها، وقد تكون ملاذاً للهرب مِنْ حلبة التنافس الاجتماعي فـــي الحياة المدنية، بالإضافـــة إلى أنها تضمن مورداً اقتصاديـــاً لـمَنْ يجدون صعوبـــة في الحصول عليه خارج الجيش، أما المنحرفون مِنَ الشباب فقد يستفيدون مِنَ الجيش في بَدْءِ حياة جديدة مختلفة.

ومِـــنْ ناحية أخرى؛ فإن تَعَامُـــل الجنود الأمريكيين مع العراقيين بهذه الوحشـــية والقســـوة ليس بسبب ما تدَّعيه (كولمان) مِنْ نوعية التدريـــب الجديد الذي تَلَقَّوْه، وإنما لأنَّ هذا العدو هو الذي يقف حجر عَثْرَة في سبيل تحقيق المنفعة الـمُنْتَظَـــرَة لهم. ولما أدرك الجنود أنَّ انتشـــارهم في العراق ليس مشابهاً لانتشـــار زملائهم في ألمانيا ودول أوروبا، وأنَّ الحرب في العراق هي حرب حقيقية، وليست نزهة؛ انقطعتْ آمالهم في السعادة المســـتقبلية المرجوَّة، فهم يسارعون في سَـــحْبِ المصابين مِـــنْ زملائهم، ويحملونهم إلى الطائـــرات التي تطير بهم إلـــى القواعد الأمريكية في ألمانيا، ويَرَوْنَ بأعينهم التوابيت التي تضمُّ القتلى وأشلاءهم، وطالما أنَّ ثقافتهم قد منحتهمُ الحرية بأنْ يفعلوا في أنفسهم وأجسامهم التي تعلَّموا أنها مِلْكٌ لهم يفعلون فيها ما يشاؤون؛ كان منطقياً بعد فترة مِنَ الاضطراب النَّفْسي والعقلي، الذي ترتَّـــب على فقدان الهدف الذي جاؤوا مِنْ أجله إلى العراق؛ أن يضعوا بأنفسهم نهاية لهذه الحياة. أما هؤلاء الذين عادوا إلـــى موطنهم فقد كان بإمكانهم أنْ يبدؤوا حياة جديدة، لكنَّ ذكريات الموت والدمار والقنابل والنيران ظلَّتْ تطاردهم، ولم تمنحهم ثقافتهم مقومات اســـتمرارية الحياة، فالموت الذي يفرُّون منه قد يحدث وإن اختلفتْ صورته في الحياة المدنية، والاســـتمتاع بأقصى قَدْرٍ مِنَ اللذة تُعَوِّقُهُ الإصابةُ الجسـدية أو النفســـية أو العقلية التي عادوا بها مِـــنَ الحرب، وليس هـناك مِنْ عـقيـــدةٍ صلبة تمنحهم هدفاً وغاية لهذه الحياة، أو تمنعهم مِنَ الانتحار أو تهددهم بعقاب أُخْرَوِيّ.

أما قول (كولمان): إن الانتحار في حدِّ ذاته مكسبٌ للجنود، ودليلٌ على إنســـانيتهم؛ فهو قَوْلٌ يعبِّرُ عَنْ تعاطُفٍ نَسَوِيٍّ أكثر مِـــن أن يكون معبِّراً عَنْ حقيقة، فالثقافة التي نشـــؤوا عليها علَّمتهم أنَّ التبعية ليســـت فردية، والحساب ليس بشخصيٍّ، فكلُّ ما فعلوه مِـــنْ جرائمَ في العراق يكفيهـــم الاعتراف به؛ ليتحمَّلهـــا آخـــرون عنهم، وكلُّ ما نســـتطيع أنْ نشـــاطر به (كولمان) هو القول: لو افترضنا أنَّ الإحساس بالذَّنْبِ قد تحرَّك في نفوس هؤلاء الجنود؛ فهو إحســـاسٌ فطريٌّ، طمستْه الثقافةُ التي نُشِّـئوا فيها، والتي تقـف دائماً حائــلاً دون تنميته وتطوُّرِه.



فرق الموت الصهيونية «المستعرفيم»

أ. د. يوسف كامل إبراهيم(*)
yousif1964@gmail.com

تنشط في الضفة الغربية وقطاع غزة وحدات صهيونية مختارة، يطلق عليها اسـم «القوات الخاصة» مهمتها تنفيذ عمليات قتل للمقاومين الفلسـطينيين ونصب كمائن لمطلقي الصواريخ من قطاع غزة. وسميت هذه الوحدات الصهيونية باسـم (القوات الخاصة)؛ لأن طبيعة المهام التي توكل إليها معقَّدة وتحتاج إلى قـدرات عالية ولياقة بدنية لا تتوفر في الجندي العادي. ومن خلال نشاطها جرى قتل العشرات من قادة العمل الجهادي، ولكن عملية اختطاف القائد في القوة التنفيذية في قطاع غزة أعادت إلى الأذهان عمليات الإرهاب من قِبَل هذه القوات الخاصة في عمق المناطق الفلسطينية، فقد عبَّرت الأوسـاط الفلسـطينية عن قلقها الشديد من تزايد نشاط وتحركات وحدات الموت الصهيونية الخاصة في منطقة قطاع غزة والضفة الغربية مما يؤكد إصرار الاحتلال على المضيِّ في سياسـة القتل والاغتيالات الَّتي تنفذها هذه الوحـدات التي تعتمد فـي خططها على التخفِّـي بالزيِّ الفلسطيني واستخدام وسائل تنقُّل فلسطينية. وتمتاز القوات الخاصة الصهيونية بقدرتهـا على التخفِّي والعمل تحت أيِّ ظرف، ويفتقدون إلى أدنى معاني الرحمة والإنسانية؛ فالقتل عندهم أسهل ما يكون.

ما هي فرق الموت الصهيونية؟

«المستعرفيم» كلمة عبرية تعني بالعربية «المستعربين» وهي وحدات عسكرية سـرية صهيونية كانت تعمل في فلسطين والبلاد العربية المجـاورة منذ عام ١٩٤٢م، وكان هدف هذه الوحدات - التي كانت آنئذ جزءاً من البالماخ - الحصول على معلومات وأخبـار، والقيام بعمليات اغتيال للعرب من خلال تسـلُّل أفرادها إلى المدن والقرى العربية متخفين بوصفهم عرباً محليين. وكانت وحدات «المسـتعرفيم» تجنِّد في المقام الأول - من أجل عملياتها السـرية - اليهود الذين كانوا في الأصل من البلاد العربية، واعترف شيمون سوميخ، الذي كان قائداً في المسـتعرفيم خلال السنوات ١٩٤٢ - ١٩٤٩م، بأن الاغتيال كان جزءاً من عمل الوحدات السرية. وجرى بعث فرق «المستعرفيم» عام ١٩٨٨م لمواجهة الانتفاضة، وكانت تنقسم إلى قسمين: «الدُّفدُفان» (الكراز) وقد أسسها (إيهود باراك) رئيس الوزراء الأسبق ووزير الدفاع الآن، والأخرى تعمل في غزة واسمها السري «شمشـون». وهدف فرق «المستعرفيم» هو التسـلُّل إلى الأوساط الفلسـطينية النشطة في الضفة والقطاع، والعمل على إبطال نشاطها أو تصفيتها.

تجدر الإشـارة إلى أن الوحدات العسكرية الخاصة هي

(*) أستاذ جامعي، غزة، فلسطين.



التي تتولى عمليات الاغتيال والاختطاف؛ لأن عناصر هذه المجموعة تعمل وسط التجمعات السكانية الفلسطينية؛ ولذلك كان من الضروري أن يكونوا من ذوي الملامح الشرقية، بحيث لا يثيرون حولهم الشكوك عندما يقومون بعمليات التنكر أثناء توجههم لتنفيذ المهام الموكلة إليهم. وقد عرض التلفاز الصهيوني فيلماً وثائقيًّا عن كيفية إعداد هذه المجموعة، وكيفية قيامها بعمليات التنكر، حيث استُخدم خبراء في عمليات المكياج والتخفي. وفي أحداث الأقصى حاول أربعة من المستعربين التسلل بين المتظاهرين، وإحداث بعض العمليات الإرهابية، ولكن الله كشفهم، فانهال عليهم الأهالي بالضرب، حتى قُتلَ اثنان منهم، وأُسر الثالث وجُرح الرابع، وردَّت الدولة الصهيونية بقصف مبنى الشرطة الفلسطينية الذي قُتلَ فيه هؤلاء الإرهابيون.

تفَنُّنٌ في القتل والاعتقال والتخفي:

طرائق مختلفة في القتل والاعتقال والإذلال - وهي ليست بحديثة - يقوم بها المستعربون الصهيونيون، وكثيراً ما تلتقط عدسات المصورين مشاهد لهم أثناء قيامهم بأعمالهم الشنيعة ضد الفلسطينيين العزل، ومع ذلك لا تجري إدانتهم أو حتى الاحتجاج على جرائمهم.

المستعربون أو بالعبرية قوات (الدويدبان) وحدة خاصة في الجيش لها جنرالاتها، وهي مدرَّبة تدريباً عالياً وقاسياً جداً، وتشكلت بعد عامين من اندلاع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧م من نخبة القوات الصهيونية امتدت أعمالهم إلى لبنان قبل انسحاب الدولة الصهيونية منها، وبعضهم من ذوي الملامح الشرقية أو يتم التعامل بالمكياج ليظهروا كذلك. يدخلون مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية بلباس عربي مدني، وبعضهم الآخر ذوو الملامح الغربية يدخلون بوصفهم صحفيين أجانب يحملون معدات الصحافة بأكملها. إنهم يهاجمون متخفين أهدافاً في العمق الفلسطيني، يمشون بين الناس في المظاهرات أو حتى الجنازات إلى أن يصلوا إلى موقع المواجهات، فيبادرون برشق الحجارة على الدوريات الصهيونية فيتجمع الفلسطينيون حولهم ويرشقون الحجارة دون أن يعلموا بوجود «المستعرفيم»، عندها ينقضُّون على الشباب الفلسطيني بالضرب على الرأس والوجه خاصة، ويقيدونهم ويشهرون في وجوههم المسدسات ويلقون بهم في أيدي إحدى دوريات الجيش الصهيوني الذي يساندهم ويراقبهم ويسهل لهم عملهم، ومن ثم ينقلونهم إلى سجن الاعتقال. كما أن المبادرة برشق الحجارة من قِبَل المستعربين قد تكون في مناطق لا يشارك فيها الفلسطينيون في رشق الحجارة، لكن عندما يسمعون عن تلك المناطق يذهبون إليها دون أن يعلموا مصيرهم مع قوات الموت (قوات المستعربين). كما يستخدم هؤلاء المستعربون سيارات عربية يستولون عليها؛ سواء كانت حكومية أو عمومية أو شاحنات يعترضونها ليقوموا بأعمالهم الدنيئة من اغتيالات واعتقالات، حيث ينفذون اغتيالاتهم بمساندة قوات الاحتلال من دوريات أو قوارب أو طيران.

وتقوم الحكومات الصهيونية بإظهار دور «المستعرفيم» بأنه دفاعي بالرغم من أنهم يبادرون بالاقتحام والاغتيال، حيث استمر نشاطهم في فترة السلام، ولا عجب في ذلك؛ فجيش الاحتلال يبني استراتيجيته على الهجوم دائماً؛ وبالرغم من ذلك يلقِّب نفسه بجيش الدفاع.

صعوبة في الاكتشاف:

وقد سجلت سنوات احتلال الدولة الصهيونية للأراضي الفلسطينية آلاف عمليات القتل والاعتقال التي نفذتها القوات الصهيونية الخاصة، بينما لم تسجِّل أي حالة تمكَّن خلالها المقاومون الفلسطينيون من إيلامهم بعمليات نوعية، نظراً إلى التدريب العالي الذي يخضع له الجنود في الوحدات المختارة.

وبالرغم من الجهود الكبيرة التي يبذلها الفلسطينيون لكشف العملاء والخونة وكذلك المستعربين الذين يندسُّون بين الصفوف لتحقيق أهدافهم الخبيثة؛ فإن اكتشاف هؤلاء المستعربين من الصعوبة بمكان؛ حيث إن لديهم هويات فلسطينية مزيفة، ويستخدمون السيارات العربية، ويجيدون الحديث باللهجة الفلسطينية. وقى الله أهلنا في فلسطين شرَّ اليهود وأعوانهم.

عمل الوحدات الخاصة يعتمد على الجمع بين عمليات التصفية والاختطاف والمداهمة السريعة ونصب الكمائن المسلَّحة والتسلل إلى داخل مناطق السلطة، وهنا تجدر الإشارة



إلى أن جميع هذه الوحدات تعمل بالتنسيق الكامل مع جهاز المخابرات الصهيونية العامة «الشاباك» حيث إن «الشاباك» يوفر المعلومات الاستخبارية اللازمة لتنفيذ عمليات التصفية والاختطاف والمداهمة طبقاً للمعلومات التي يقدمها عملاؤه من الفلسطينيين، ومن خلال الاعترافات التي يدلي بها المعتقلون الفلسطينيون في السجون الصهيونية، إلى جانب استعانة المخابرات بعمليات التجسس والتنصّت الإلكترونية في مناطق السلطة الفلسطينية. وهنا تجدر الإشارة إلى الوحدات العسكرية الخاصة التي تتولى عمليات الاغتيال والاختطاف وباقي التشكيلات العسكرية.

ومن حيَل القوات الخاصة الصهيونية أيضاً التخفّي بزيّ الأطباء الفلسطينيين واستخدام سيارات الإسعاف والتخفّي بزيّ النساء لصيد الفرائس.

وفي الاجتياحات وعمليات التوغل تعتلي القوات الخاصة منازل المواطنين وتحدث ثغرات في جدرانها لقنص المقاومين.

يقول أحد المقاومين من كتائب القسام: القوات الخاصة قوات خبيثة للغاية، كل يوم تبتكر حيلة جديدة للفتك بالمقاومين؛ فعند الاجتياحات والعمليات العسكرية يعتلون المنازل بعد أن يحبسوا أفرادها كافة في غرفة واحدة، ويحدثون ثغرات في الجدران لقنص المقاومين.

ويضيف: خلال اجتياح لبلدة بيت حانون مؤخراً؛ حيث لاحظ المقاومون جندياً صهيونياً خلف نافذة زجاجية داخل أحد المنازل، فأطلقوا عليه قذيفة (أر بي جي)، ولكن تبين فيما بعد أن ما أطلق عليه هو عبارة عن دمية بلاستيكية على شكل رجل وضعت خلف النافذة لخداع المقاومين وجعلهم يركزون عليها، في الوقت الذي كان فيه جنود الوحدات الخاصة يطلقون النيران من ثغرات صغيرة في المنزل المجاور!

الإنسانية ووحدات القتل:

مؤخراً وفي عملية معقدة للقوات الصهيونية الخاصة؛ جرى اعتقال أحد كبار نشطاء كتائب القسام في مدينة رفح جنوب قطاع غزة، ويدعى (مهاوش القاضي) الذي تتهمه الدولة الصهيونية بالإشراف المباشر على خطف الجندي (جلعاد شاليط) في الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ٢٠٠٦م.

وجاء في التفاصيل أن مجموعة من القوات الخاصة تسلّلت مسافة ٣ كيلو مترات في عمق مدينة رفح ترتدي زي القوة التنفيذية التابعة لحركة حماس، وتستقل سيارات مشابهة لتلك التي تستخدمها القوة التنفيذية. وأثناء سير القيادي القسامي (مهاوش القاضي) بسيارته في أحد شوارع المدينة سقط رجل عجوز أمام السيارة، فنزل (القاضي) لمعرفة سبب سقوطه، فباغتته القوة الخاصة واعتقلته، حيث تبين أن الرجل العجوز الذي سقط أمام السيارة هو أحد أفراد القوة، وأن ما حدث عبارة عن خطة لإجبار الفريسة على إيقاف السيارة في المكان الذي حددته الوحدات الخاصة لاعتقاله.

تجارب مع فرق الموت:

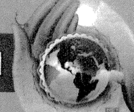
العديد من المقاومين الفلسطينيين خاضوا تجارب مع القوات الصهيونية الخاصة، وتعرفوا من خلال هذه التجارب على أساليب عمل فرق الموت الصهيونية، فأحد المقاومين من سرايا القدس التابعة لحركة الجهاد الإسلامي يقول: رأيت قبل أشهر مجموعة من المسلحين يرتدون زي مقاومين من حماس بالقرب من المدرسة الأمريكية غرب بلدة بيت لاهيا شمال قطاع غزة، كانوا يوقفون السيارات، ويوزعون المصاحف على الركاب، وعلمنا فيما بعد أنهم أفراد قوة صهيونية خاصة، كانوا يبحثون عن أحد المقاومين.

ويتحدث مقاوم آخر عن تجربة أخرى فيقول: صادفت سيارة كان بداخلها عدد من المقاومين شمال قطاع غزة، سألتهم عن أمرهم، فقالوا: إن السيارة «عطلانة»، فعرضت عليهم المساعدة، وما هي إلا دقائق حتى جاءت سيارة أخرى، وانطلقت السيارتان مسرعتين تجاه البحر، حيث كان في داخلهما قوة خاصة تترصد مطلقي الصواريخ.

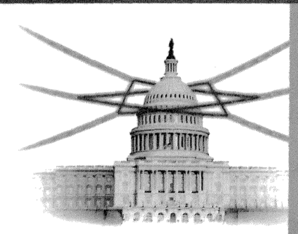
في العام الماضي قتلت قوة صهيونية خاصة متنكرة بزيّ الأمن الوطني الفلسطيني ثلاثة مقاومين كانوا يهمون بإطلاق صواريخ من شمال القطاع، ولم يعلم المقاومون أنهم قوات صهيونية.

فهل يلوم أحد الفلسطينيين إذا ما ردُّوا بالمثل وكوَّنوا فرقاً للموت تنال من الأعداء، ويصطفي الله منها ما يشاء من الشهداء؟!





المجتمع الأمريكي والنفوذ اليهودي



د. عبد العزيز صقر
azizsakr@gmail.com

استطاع اليهود فهمَ النظام السياسي الأمريكي بأنه سلاح ذو حدين؛ لذا استوعبوا الإطار العام للحركة السياسية في المجتمع الأمريكي، وسخّروه لتحقيق أغراضهم الدينية والسياسية والاقتصادية، فكان لهم عوناً وسنداً.

وقبل أن نتعرض لواقع المسلمين في الولايات المتحدة وما كان يمكن أن يصنعوه لحقن دماء المسلمين في العالم، والدفاع عن أعراض المسلمات ومقدسات الإسلام وقيمه، فلنتطرقْ - أولاً - لتجربة اليهود في الولايات المتحدة وكيف استطاعوا أن يحوّلوا اضطهاد السامية وعداءها، إلى هذا الذي نتعجب له من دعم غير محدود ودلال غير مسبوق في تاريخ العلاقات الدولية.

• **الوظيفة السياسية لليهود في أمريكا:**

إن الجماعة اليهودية، وإن كانت من أقل الجماعات الدينية في الولايات المتحدة حجماً، فإنّها أكثرها مشاركة في الحياة السياسية وتأثيراً فيها. والواقع أنّ هذا الدور الخطير الذي تلعبه الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة ليس تقليدياً، ولكنّه مرتبط بصورة عامة بظهور الصهيونية العالمية، وبصفة خاصة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وإيجاد الدولة الصهيونية وحرب ١٩٦٧م. أما قبل ذلك؛ فقد كانت الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة جماعة غير سياسية (non-political group) تعيش في عزلة وتعاني من الاضطهاد، وتوصف بأحطّ الصفات وأبشعها، وتتحمّل وزر (دعوى قتل السيد المسيح).

وعندما ظهرت الحركة الصهيونية وأعلنت هدفها بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؛ بدأ تحوّل اليهود إلى جماعة تهتم بهدف سياسي مشترك وتسعى إلى تحقيقه، وبدأت تنظر إلى ذاتها جزءاً لا يتجزأ من الشعب اليهودي الواحد الذي يجب أن يسعى كل المنتمين إليه لضمان إقامة دولته القومية ودعمها باستمرار. وقد نجح يهود أمريكا - مثلما نجح يهود أوروبا - في الضغط على الحكومات الغربية لتحقيق حلم اليهود في إقامة دولة خاصة بهم في فلسطين، وما إن تحقّق ذلك حتى بدأت سلسلة من المواجهات والحروب بين الدولة العبريّة الوليدة وجيرانها الذين هبّوا للدفاع عن أرضهم ومقدساتهم، وبدا لليهود أنّه من دون الدعم الغربي (السياسي والاقتصادي والعسكري) الكامل لدولتهم؛ فإنّ الاستئصال والفناء هو النتيجة المحتومة لأي مواجهة مع العالم العربي والإسلامي، وأنّ توقّف هذا الدعم يوماً واحداً معناه «دقُّ مسمار» في نعش الدولة العبرية؛ حينئذٍ تحوّلت الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة إلى أكثر الجماعات الدينية ممارسة للسياسة وتأثيراً فيها.

وإذا كان هذا هو الهدف من المشاركة السياسية للجماعة اليهودية؛ فما الاستراتيجية التي لجأ إليها اليهود، التي جعلت منهم أكبر جماعة ضغط دينية في الولايات المتحدة وأكثرها تأثيراً في الحياة السياسية؟



• استغلال اليهود لطبيعة المجتمع الأمريكي وخصائصه:

إنّ النظـرة الممحّصة والتأمل الدقيق في استراتيجية التعامل اليهودي مع المجتمع الأمريكي؛ يؤكدان أنّ القوم قد أدركوا منذ البداية طبيعةَ المجتمع الأمريكي وخصائصه، الذي سيمارسون فيه نشاطهم السياسي، فبدا لهم أنهم لن يستطيعوا ممارسة التأثير المطلوب اعتماداً على نفوذهم العددي، وقد فشلت الأقليّة الزنجية Negro، التي يزيد عددها عن ستة أمثال عدد الأقلية اليهودية، في الحصول على كل حقوقها المدنية حتى الآن، وهي التي لن تكلّف الأمريكيين شيئاً.

ثم بدا لليهود أنّ الخبرة الأمريكية تدعو الأمريكيين إلى التعاطف مع الأقليات الدينية المضطهدة، بالنظر إلى أن المهاجرين الأوائل كانوا من (البيوريتان) المضطهدين في أوروبا.

ثم من جانب ثالث؛ فقد بدا لليهود أنه إذا كانت الحرية الدينية والسياسية مطلباً للمهاجرين الذين استقروا في الشرق الأمريكي؛ فإن البحث عن الثراء والمنصب كان هو المحرك الأساسي للمهاجرين إلى الغرب الأمريكي.

• استراتيجية اليهود مع متغيرات الواقع الأمريكي:

نستطيع أن نحدد أهم عناصر هذه الاستراتيجية في الآتي:

أ - استغلال العاطفة الدينية لدى الشعب الأمريكي، وفي الوقت نفسه الحيلولة دون ربط الدين بالدولة أو سيطرة المبادئ الأصولية.

ب - استغلال التركيب المميز للمجتمع الأمريكي القائم على تجمُّع عدد من الأقليات.

ج - استغلال الروح الرأسمالية التي تشجع على الوصول إلى مراكز التأثير.

استغلال العاطفة الدينية:

وهو العنصر الأول؛ فقد سعى اليهود لتأكيد التراث الديني المشترك بين اليهود والنصارى، ولا سيما البروتستانت الذين كانوا أكثر تأثُّراً بروح التوراة القتالية ودعوتها الكفاحية «لتحقيق حلم الرب» ونبوءة عودة اليهود إلى «أورشليم»، التي تعني في الوقت ذاته عودة المسيح الثانية التي ينتظرها النصارى.

وقد هدف اليهود من وراء ذلك إلى استعطاف النصارى في الولايات المتحدة، وإيجاد القوى الدينية المساندة والمؤيدة لإقامة ودعم وطن قومي لليهود. ركز اليهود على تأكيد وحدة الثقافة النصرانية اليهودية، ودور التقاليد المشتركة بينهم في بناء الحضارة الغربية، ودعوى الخطر الذي يمثله الشرق الإسلامي على هذه الحضارة.

وقد ظهر هذا العنصر من عناصر الاستراتيجية اليهودية واضحاً في مراحل الحروب التي خاضها الصهاينة مع الدول العربية؛ بوصفه أداةً لزرع القناعة العقائدية لدى الرأي العام الأمريكي بضرورة مساندة اليهود، ولإيجاد قوة ضاغطة مؤثرة في عملية صنع القرار السياسي لصالح الدولة العبرية.

فخلال مدة حرب ١٩٦٧م؛ ركزت الدعاية الصهيونية في وسائل الإعلام الأمريكية على عداء العرب للسامية واضطهادهم لليهود «الأبرياء» الذين يتجمعون للصلاة حول «حائط المبكى». كما أعادت إلى أذهان النصارى أوضاع «أهل الذمة» في التقاليد الإسلامية في العصور الوسطى. أما خلال حرب ١٩٧٣م؛ فقد ركزت الدعاية الصهيونية على مبدأ الجهاد الإسلامي والحروب الصليبية، والتعصب الديني عند المسلمين، ودعوى وحشيتهم وكراهيتهم لليهود والنصارى على السواء، وتصوير حرب أكتوبر ١٩٧٣م على أنها استمرار للحروب المقدسة التي تهدف إلى غزو المسلمين للعالم النصراني وتدميره.

وهكذا ركزت وسائل الدعاية الصهيونية على مخاطبة المواطن الأمريكي باعتباره عضواً في جماعة دينية؛ بهدف إثارة عاطفته الدينية وتحريضه للمشاركة في ممارسة التأثير في الحكومة الأمريكية لكي تزيد من دعمها للدولة اليهودية التي تقف وحدها في مواجهة (المسلمين البرابرة)!

وفي الواقع، فقد تأثر بعض الرؤساء الأمريكيين بهذه الدعاية الصهيونية وتحولوا إلى مجرد أبواق ترددها؛



فالرئيس الحالي بوش (الابن) أعلن أن كلمات الله قد وصلت إليه لكي يأتي بالأمن، وهو لا يفتأ يرى نفسه المنفّذ للوعد الإلهي الذي جاء في (سِفْر الرؤية) من خلال تلك الحروب التي يشنها في الشرق الأوسط؛ لكي يحصل اليهود على كامل الأراضي المقدسة ويطرُدوا منها المسلمين كلهم. وعلى الرغم من كل الضجيج عن دعم الولايات المتحدة لخيار الديمقراطية؛ أعلن (بوش) رفض بلاده التعاون مع حكومة حماس؛ لأنها «لا تعترف بحق الدولة الصهيونية في الوجود» وهو أمر له الأولوية على كل شيء آخر.

ومن أجل ذلك أيضاً راح (بوش) في خطاب حالة الاتحاد في ٣١ من يناير ٢٠٠٦م، يردد مقولات اليهود نفسها، حين أعلن عن أهداف السياسة الأمريكية الخارجية قائلاً: «نسعى لإزالة الطغيان والاستبداد في عالمنا، وسنحارب بعض الأيديولوجيات الخاطئة». كما أكد أن بلاده لن تسمح للراديكالية الإسلامية بتحقيق أهدافها.

وهكذا نجح اليهود في إيجاد القناعة لدى الأمريكيين - حكاماً ومحكومين - بأن تأييدهم للصهاينة ليس موقفاً سياسياً، ولكنه موقف عَقَدي بالدرجة الأولى.

ومن جانب آخر، فإن الجماعة اليهودية لم تكن تسمح للأغلبية النصرانية بإثارة مسألة الدين ولو من قبيل الدعاية الانتخابية، وتعلن دائماً أنها تتمسك بالطبيعة القومية للدولة وبمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، وترى في كل دعوة لإقحام الدين في الحياة السياسية أو لفرض المبادئ الأصولية على المجتمع الأمريكي؛ تهديداً لوجودها، وعودة إلى تقاليد العصور الوسطى وما يرتبط بها من عزل لليهود واضطهادهم، وأنها لذلك لم تصوِّت لصالح (ريجان) بسبب نزعته الدينية وسياسته المحافظة، وتحالفه مع القس الإنجيلي (جيري فالويل) زعيم منظمة الأكثرية الأخلاقية، الذي كان يخشاه اليهود أكثر من خشيتهم للقس الأسود (جيسي جاكسون)؛ بسبب دعوته إلى العودة إلى التقاليد الدينية، ورفضه العلمانية، وحثه الأصوليين البروتستانت على ضرورة المشاركة في الحياة السياسية وممارسة السلوك الانتخابي بوصفها واجباً مقدساً وأداة لتحقيق أهدافهم وتطبيق مبادئهم الأصولية.

• استغلال تركيبة المجتمع الأمريكي:

استغلت الدعاية الصهيونية التركيب المميز للمجتمع الأمريكي والقبول العام لمنطق الأقليات؛ لكي تؤكد أمرين:

الأول: أن النزاع بين إسرائيل وجيرانها العرب هو نزاع بين أقلية دينية مستضعَفة ترغب في الحياة في سلام، وأغلبية دينية معادية ومضطهدة لليهود.

والأمر الثاني: هو حق اليهود في الولايات المتحدة - مثل غيرهم من الأقليات - في الاهتمام بقضايا مجتمعهم القومي، والمشاركة في كل ما من شأنه دعم موقف اليهود، وربط مستقبل الأقلية اليهودية في أمريكا بمستقبل العلاقات الأمريكية معهم؛ باعتبار هذه الأخيرة تمثِّل موضوعاً محورياً بالنسبة إلى اليهود الأمريكيين.

وباستغلال هذا التعاطف الأمريكي مع الأقليات المضطهدة بسبب الدين؛ تمكّنت الأقلية اليهودية من استعطاف الأمريكيين إلى حد تطوُّع الآلاف منهم لخدمة الجيش الصهيوني، فضلاً عن إيجاد رأي أمريكي عام متعاطف مع اليهود ومؤيد لحقهم في الحصول على الدعم اللازم لمواجهة «اللا سامية العربية» المدعمة بالسلاح - قبل سقوط الاتحاد السوفييتي - «الملحد»، والحيلولة دون تحطيم دولة اليهود وتشتيتهم واضطهادهم من جديد.

وقد انعكس ذلك كله على السياسات الأمريكية المؤيدة لحق اليهود الأمريكيين في دعم «إخوانهم» الصهاينة، وفي ممارسة الضغوط من أجل الدفاع عن قضاياهم. بل وصل الأمر إلى حد تقبُّل الأمريكيين لهذا الولاء المزدوج ليهود أمريكا، وإعفائهم من دفع الضرائب على الأموال التي يتبرعون بها، والسماح لهم بدفع ملايين الدولارات لتمويل مرشحي الانتخابات الصهيونية، بل السماح لمواطن أمريكي أصبح عضواً في برلمان أو حكومة دولة أجنبية (الدولة الصهيونية) بالاحتفاظ بجنسيته الأمريكية.

- **استغلال الروح الرأسمالية للوصول لأهدافهم:**

يتمثّل ذلك في استغلالهم الروحَ الرأسمالية السائدة للوصول إلى مراكز المال والتأثير في المجتمع؛ لتعويض ضعف نفوذهم العددي. وقد نجح اليهود بالفعل في أن يصبحوا الطبقة البرجوازية التي تتحكّم في النشاط الاقتصادي وتحتل المرتبة الأولى في الصدارة الاجتماعية، وهو الأمر الذي يهيئ لها التأثيرَ في الحياة السياسية؛ إذ يعتمد حجم هذا التأثير في الولايات المتحدة أساساً على مدى ما تمارسه الأقلية من نفوذ اقتصادي واجتماعي. ومن المعروف أن ٤٠ ٪ من اليهود الأمريكيين يقيمون في نيويورك، ويكوِّنون حوالي ١٥ ٪ من مجموع سكانها. كما يتركّز باقي اليهود في الولايات الصناعية الكبرى ويسيطرون على النشاط الاقتصادي فيها، مثل: ولاية إلينوي، وكاليفورنيا، وميتشجان، ومريلاند، وهي في الوقت نفسه ولايات لها ثقل انتخابي كبير بما تملكه من عدد كبير من الأصوات الانتخابية. ويسيطر اليهود على عدد من الوظائف العليا ذات النفوذ في مجالات الحكم والإعلام والتعليم وغيرها؛ فمنهم حكّام الولايات، وعمداء المدن، وضباط القوات المسلّحة، والأطباء، وكبار رجال الإعلام. كما أنّ ٩ ٪ من أعضاء هيئات التدريس الحالية في الولايات المتحدة من اليهود، وهو عمل يحتل المرتبة الأولى في الصدارة الاجتماعية، طبقاً لنتائج استفتاء أُجري مؤخراً في كاليفورنيا.

وبصفة عامة: يكوِّن اليهود حوالي ٢١,٨ ٪ من الطبقة العليا ذات النفوذ والتأثير السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإعلامي في الولايات المتحدة، وهي نسبة مرتفعة للغاية بالنظر إلى نسبتهم العددية التي لا تتجاوز ٢ ٪ من مجموع الشعب الأمريكي.

- **أدوات الاستراتيجية اليهودية:**

(أ) رجال الدين اليهود: الذين يتولون عملية الإقناع العقائدي، والذين يُنظر إليهم سفراء لدولتهم في المجتمع الأمريكي.

ويلعب رجال الدين دورهم من خلال اللقاءات والندوات مع رجال الدين النصراني، ومن خلال الدراسات والمقالات التي ينشرونها في صحافة البروتستانت والكاثوليك، والمراكز التي يشغلونها في المدارس والمعاهد الدينية، وغير ذلك. ويكفي أن نشير إلى أنه يوجد في الولايات المتحدة أكثر من ألف تجمُّع أو تنظيم للحاخامات اليهود اشتركت في تقديم المساندة السياسية والمالية والعقائدية للدولة العبرية. وعلى سبيل المثال: الحاخام «صلفر» هو الذي صمّم في عام ١٩٤٤م برنامجَ العلاقات العامة الذي استطاع إيجاد اتجاه أمريكي عام مؤيد ليهود فلسطين.

وبينما كان الاتجاه العام الذي غلب على الندوة التي عقدتها مجلة «برزنت تنس» - الناطقة باسم الجماعات اليهودية في أمريكا - في عام ١٩٨٨م؛ هو انتقاد السياسات الصهيونية بسبب أعمال العنف التي تمارسها ضد الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية؛ انبرى الحاخام «إيسمار شورش» - عميد الجامعة اليهودية الدينية بنيويورك - للدفاع عن الدولة الصهيونية وتخفيف حدة الانتقادات الموجهة إليها، معلِناً: «أن توجيه الانتقادات لسياسة الحكومة الصهيونية بسبب موقفها من الضفة الغربية وقطاع غزة؛ لا يؤثر على مساندة اليهود الأمريكيين لدولة الصهاينة، وعلى اليهود الأمريكيين أن يساعدوها على حل المشكلة الفلسطينية».

(ب) وسائل الإعلام المختلفة: التي يسيطر عليها اليهود ويوجهونها لتحقيق أغراضهم.

وقد لعبت هذه الأداة الدور الرئيس في عملية «تجميل» الطابع القومي اليهودي و«تشويه» الطابع القومي العربي، وإيجاد اتجاه عام متحيز لليهود وضد العرب. وتكفي مطالعة الصحف والمجلات الأمريكية في مراحل الحروب بين العرب والصهاينة للوقوف على حقيقة هذا التحيز الواضح لهم ولكل ما له صلة بمصالح اليهود، ولا سيما في علاقتهم بالعرب. هذه حقيقة أثبتتها كثير من الدراسات التحليلية لوسائل الإعلام الأمريكية.

(ج) المنظمات اليهودية: وهي منظمات نشطة وفعالة وقادرة على التأثير في المجتمع الأمريكي والوصول إلى كل فرد فيه.



واليهود أصحابُ عدد كبير من التنظيمات الجماعية في الولايات المتحدة التي ترتبط نشـاطاتها بجميع أنواع الوجود الاجتماعـي ومظاهره. وتتكتل جميع هـذه المنظمات لدعم مصالـح الدولة العبرية، بل إن بعضها ارتبطت نشـأته بهذا الهدف، مثل: لجنة الشؤون العامة اليهودية الأمريكية (أيباك)، التي تُعدُّ أقوى المنظمات اليهودية في أمريكا وأكثرها جميعاً تأييداً للدولة العبرية؛ فقد أنشـئت هذه اللجنة عام ١٩٥٤م لحشـد التأييد المسـتمر للدولة اليهودية داخل الكونجرس الأمريكي، وللضغط على رجال الكونجرس من أجل استمرار إرسال المعونة العسكرية والمادية إلى دولة الصهاينة.

ومن المنظمـات اليهودية الأخرى التي تمارس نشـاطاً في الحياة السياسـية الأمريكية لصالـح الصهاينة: (رابطة الدفاع اليهودية)، التي شـنت حملـة في أواخر عام ١٩٧٥م لتتبـع ومضايقة أعضـاء الوفود الدبلوماسـية لـ ٧٢ دولة صوتت لصالـح قرار الأمم المتحـدة باعتبـار الصهيونية حركة عنصرية. وكذلك (المؤتمـر اليهودي الأمريكي) الذي رفع قضية أمام محاكم واشـنطن في أواخـر عام ١٩٧٥م لاسـتصدار حكم بوقف تنفيذ الاتفاق الاقتصادي الموقع في عـام ١٩٧٤م بين الولايات المتحدة والسـعودية. إضافة إلى (اللجنـة اليهودية للمتابعة) التـي أعلنت في مارس ١٩٧٨م أنها بدأت حملة منظمة لملاحقة الدبلوماسيين المصريين في الولايات المتحدة من أجل تحطيم علاقة التعاون القائمة بين القاهرة وواشنطن، وغيرها.

(د) الدعـم المالي: لكل مسـؤول أو مرشح لمنصب مهم يعلن عن استعداده لتلبية طلبات اللوبي اليهودي والدفاع عن مصالح الدولة العبرية. وسوف نرى فيما بعدُ كيف استخدم اليهود سـلاحَ الدعم في الحملات الانتخابية، سواء لمنصب الرئاسة أو لمقاعد الكونجرس.

(هـ) الملاحقـة والتشـهير: بكل مسـؤول يجرؤ على الوقـوف في طريق الدعم الأمريكي للعدو، أو ينافس النفوذ اليهـودي في الحياة السياسـية الأمريكية. مثاله ما تعرض له السـيناتور (تشارلز بيرسـي) – الذي كان يشغل منصب رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الكونجـرس – من حملة صهيونية عالمية عام ١٩٨٤م؛ بسـبب تأييده لحقوق الشعب الفلسطيني. وكان جيمس فورستال – وزير الدفاع الأمريكي الأقدم – قد انتحر عقب إصابته بانهيار عصبي، بسـبب ما تعرض له من حملات تشهير مزرية من اليهود، بعد أن أعلن عن الأضرار اللاحقة ببلاده من جراء النفوذ الصهيوني في الحكم الأمريكي.

وكان مـن الطبيعـي أن يتعرّض كل من القس الأسـود (جيسي جاكسون) وزعيم المسـلمين السود (لويس فرقان)؛ لحملة إرهاب واسـعة النطاق بسـبب انتقاداتهما للصهاينة وجماعات الضغط اليهودية الموالية لها، ومنافسـتهما للنفوذ اليهودي في الحياة السياسية الأمريكية. كما كان من الطبيعي أن يتلقـى الدكتور (ماهر حتحور) – المتحدث باسـم المركز الإسلامي في لوس إنجلوس – تهديداً بالاغتيال، عندما أخذ المركـز بدءاً من عام ١٩٨٨م يخطط لانتخاب عضو مسـلم في الكونجرس الأمريكي، وبسبب دعوته المسلمين الأمريكيين لتسجيل أسـمائهم في الكشوف الانتخابية وممارسة حقهم الانتخابي، والمشـاركة في الحياة السياسـية لتأكيد دورهم عنصراً فاعلاً على المسرح السياسي الأمريكي.

ولم يسـلم رؤسـاء الولايات المتحدة أنفسـهم من هذه الضغوط التي يمارسها اليهود ضد كل من يتباطأ في إجابة مطالبهـم؛ ويكفـي أن نتذكر تلك الحملة التـي خضع لها الرئيس الأمريكي (نيكسون) في أثناء حرب ١٩٧٣م وتهديد اللوبي اليهودي له بأنهم يستطيعون تأليب الرأي العام ضده؛ لأنه «يتجاهل الأخطار التي تحيط بالصهاينة»، وهي الحملة التي قادت إلى تفويض كيسـنجر لتلقّـي تعليمات تل أبيب وتوجيهاتهـا وتنفيذها فوراً، ومنحهـم مبـلغ ٥٠٠ مليـون دولار معونـة عاجلة، ثم مبلغ ٢,٣ مليون دولار أخرى، وكذا مبلغ ١٢٨ مليون دولار قيمة أسـهم «النـداء اليهودي» التي اشترتها الولايات المتحدة، فضلاً عن تزويد الدولة الصهيونية بالمساعدات العسكرية التي تطلبها، والسماح بمشاركة أفراد أمريكيين في المعارك.



• معاداة السامية:

تعد دعوى معاداة السامية أمضى سلاح تشهره الجماعة اليهودية في أمريكا ضد كل من يتناول تصرفاتها بالنقد وكل من يشترك في نشاطات معادية لليهود.

وقد أشهَر اليهود هذا السلاح ضد كلٍّ من: القس جاكسون، ولويس فرقان، كما أشهروه ضد «فريدريك مالك» - أحد مساعدي جورج بوش الأب في الحملة الانتخابية عام ١٩٨٨م، الذي كان يشغل منصب نائب رئيس اللجنة القومية للحزب الجمهوري - لمجرد أنه أعد قائمة في عام ١٩٧١م - بناء على تعليمات الرئيس نيكسون - بأسماء كبار موظفي وزارة العمل الأمريكية من اليهود، وكذلك أشهروه ضد خمسة آخرين من أعضاء اللجنة الاستشارية في الحملة الانتخابية لجورج بوش، الذين اتهمتهم صحيفة «جويش وييك» بالعمل مع إحدى المنظمات المعادية لليهود. وعلى الرغم من أن هذا الاتهام في حد ذاته يتعارض مع حرية الأفراد في الانتماء إلى التنظيمات السياسية المختلفة، وعلى الرغم من رفض مستشاري بوش لهذا الاتهام وإنكارهم الاشتراك في أي نشاطات معادية للسامية، وعلى الرغم من تأكيد المتحدثة باسم الحملة الانتخابية لجورج بوش أن هذه الاتهامات «نتيجة لدوافع سياسية، وأنها خُطِّطت لتحويل الانتباه عن القضايا الحقيقية»، وعلى الرغم من اعتراف الرئيس بوش ذاته بأن فردريك مالك «رجل شريف لا يحمل أي أثر ولو ضئيل من آثار التعصب»؛ فإن جميع المتهمين بمعاداة السامية قد أُجبروا على تقديم استقالاتهم، ولم يملك المرشح الجمهوري - الذي أصبح بعد ذلك رئيساً للدولة - القدرةَ على الدفاع عنهم في مواجهة اللوبي اليهودي وسلاح معاداة السامية.

• الدين في عملية تخطيط الحركة السياسية اليهودية:

دأب اليهود الأمريكيون على معارضة كل نشاط يمكن أن يمارَس في الحياة السياسية الأمريكية ضد مصالح اليهود بصفة عامة ودولتهم على وجه خاص، واستئصال كل مسؤول يجرؤ على تحدي اللوبي الصهيوني أو لا يذعن لمطالبه.

والغريب أنه في الوقت الذي يمارس فيه اليهود نشاطهم السياسي، ويؤسسون فيه دعوتهم الصهيونية على الدين؛ فإنهم يناضلون بشراسة ضد كل توظيف للدين من جانب الأطراف الأخرى حتى لو كان الرئيس الأمريكي نفسه، وحتى لو كان من قبيل الدعاية الانتخابية؛ فتوظيف الدين من جانبهم يجلب لهم الدعم ويضمن البقاء للدولة العبرية. أما توظيف الدين من جانب غيرهم؛ فيجلب عليهم العزلة والاضطهاد، ويهدد وجودهم بالفناء. لذا؛ فإن اليهود - الذين يعتمدون على الدين بوصفه أحد مقومات عملية تخطيط الحركة السياسية في أمريكا - يعارضون بإصرار أي اتجاه ديني في السياسة الأمريكية؛ إذ إن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تحديد قوتهم والحدِّ من تأثيرهم. ولذا؛ فإنهم لم يمنحوا تأييدهم الكامل لكارتر «الورع» في انتخابات عام ١٩٧٦م، كما أنهم لم يعطوا صوتهم لريجان في انتخابات١٩٨٠م و١٩٨٤م بسبب شعاراته الدينية.

• المعارضة اليهودية اليهودية في أمريكا:

على الرغم من كل ما تقدم؛ فإنه يجب أن نقرَّ أيضاً أن هناك من الأمريكيين، اليهود وغير اليهود، من لا يؤمن ببعض عناصر هذه الاستراتيجية ومقوماتها التي رسمها اللوبي الصهيوني وحدد لها تلك الأدوات والمسالك العنيفة.

ومن أشهر المراجع في هذا الباب ما يلي:

١ - سفر بلا حدود: للرئيس ريتشارد نكسون.

٢ - استطلاع جالوب (أكتوبر ٧٣) على عيّنة من الامريكين: هل هم مع (الدولة العبرية) أم مع العرب؟ فاجاب: ٥٤٪ منهم مع الصهاينة و٨٪ مع العرب.

٣ - الدعاية الصهيونية، د. حامد ربيع.

٤ - دراسة تحليلية للدعاية الصهيونية. خالد محمود الكرمي.

٥ - الوظيفة الدبلوماسية والدعاية الخارجية، (ماجستير) جامعة القاهرة - كلية الاقتصاد، ١٩٧٦م.

٦ - بعض المواد من مجلة السياسة الدولية، إبريل ١٩٧٦م، ويناير ١٩٨٦م، ويولية ١٩٩٢م، وأكتوبر ١٩٧٦م.

٧ - غسيل الدماغ، تاليف: فخري الدباغ.

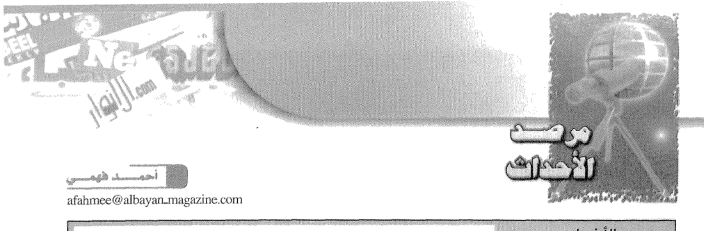
٨ - محاربون ضد (إسرائيل)، دونالديف.

٩ - الفكر الأمريكي المحافظ والصراع العربي الصهيوني، السياسة الدولية، يناير ١٩٨٩م.

١٠ - الاتجاهات التعصبية، سلسلة (عالم المعرفة)، مايو ١٩٨٩م.

١١ - قيمنا التي في خطر، للرئيس الأمريكي (كارتر).

١٢ - دور الدين في الحياة السياسية في الدولة القومية، (رسالة دكتوراه)، للكاتب (جامعة القاهرة) ١٩٩٠م.



أحمد فهمي
afahmee@albayan_magazine.com

هل توجه الولايات المتحدة ضربة إلى إيران؟

في لقاء مع إذاعة بي بي سي قال د. عمرو حمزاوي الباحث في معهد كارنيجي الأمريكي: إن هناك ثلاثة محدِّدات رئيسة تمنع إدارة جورج بوش من تنفيذ ضربة عسكرية لإيران، أولها: أن هناك أوراقاً ضرورية لا تملكها واشنطن للقيام بهذه الضربة، في مقدمتها: تقدير الكلفة المحتملة لهذه الضربة، هل هي كلفة باهظة أم مقبولة؟ وأيضاً فإن الإدارة لا تملك عامل الوقت، فلم يعد أمامها إلا أشهر قليلة على ترك البيت الأبيض، والسياق الأمريكي الداخلي لا يرحب بحرب جديدة، وهناك رغبة في ألا يترسخ في الأذهان أن هذه الإدارة هي إدارة الحروب.

والمحدد الثاني: هو العلاقة بين الأداة العسكرية والأدوات الأخرى لمعالجة هذه القضية، فهناك قناعة بأن أي ضربة قادمة لن تستطيع منع إيران من تنفيذ ما يسمى بالـ «building up»، أي: إعادة بناء ما دُمِّر، واكتساب قدرات نووية جديدة لن تتمكن أي إدارة أمريكية من منعها مرة ثانية.

أما المحدد الثالث: فهو الضمانات التي يمكن للإدارة الأمريكية أن تقدمها إلى إسرائيل للدفاع عنها ضد أي ردود فعل من إيران أوحلفائها على تلك الضربة، وفي الواقع أنه لا توجد ضمانات كافية لحماية أمن الكيان الصهيوني في هذا الاتجاه، لذلك تبدو احتمالات توجيه ضربة أمريكية لإيران ضعيفة، على الرغم من أن طائفة من كبار المسؤولين في إدارة بوش يشجعون ضرب إيران.

[برنامج «حديث الساعة» ١٤-٦-٢٠٠٨م]

الكاثوليكية قد تزيد واحداً

تزايدت التكهنات بشأن احتمال تحول الرئيس الأمريكي جورج بوش إلى الكاثوليكية بعد انتهاء ولايته الرئاسية، ونشرت صحيفة الإندبندنت مقالاً تحت عنوان (بوش قد يعتنق الكاثوليكية).

وقد ألقت الزيارة الأخيرة لبوش إلى الفاتيكان حجراً في بركة التكهنات، نظراً للاستقبال البالغ الحفاوة الذي حظي به من البابا بيندكت السادس عشر، الذي انتظر بنفسه وصول الرئيس بوش عند مدخل برج القديس يوحنا. وبمجرد وصول بوش، سُمع وهو يقول: «يا له من شرف، يا له من شرف!»، ثم اختفى الرجلان لنصف ساعة لإجراء مباحثات مباشرة لم تتسرب أي تفاصيل عنها، واصطحب البابا بوش لزيارة البرج الذي يعود تاريخه إلى القرون الوسطى ثم تجوّلا في حدائق الفاتيكان، ثم حضرا عرضاً موسيقياً في الهواء الطلق.

وكان البابا قد حظي باستقبال مماثل عند زيارته الأخيرة للولايات المتحدة في إبريل ٢٠٠٨م، وعندما سأل صحفي كاثوليكي بوش خلال الزيارة: ماذا ترى في عين البابا؟ رد بوش قائلاً: «الله».

ويقول (مارسيلو بيرا) - وهو فيلسوف وعضو مجلس الشيوخ الإيطالي، سبق أن شارك في تأليف كتاب رفقة بابا الفاتيكان عندما كان لا يزال كاردينالاً -: إن الرجلين (البابا وبوش) تجمعهما علاقة خاصة وعميقة قوامها اعتقاد مشترك، مفاده: أن الدين يجب أن يقوم بدور محوري في عالم السياسة.

ونقلت صحيفة (إل ميساجيرو) عن المدير السابق لمجلة بانوراما اليمينية (كارلو روسيلا) قوله: إن لديه معلومات موثوق بها عن أن بوش يفكر في اعتناق الكاثوليكية، وأنه تكلم في الموضوع مع رئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير الذي اعتنق الكاثوليكية مؤخراً بعد لقاء مع البابا أيضاً. وقالت (إل ميساجيرو): إن البابا وبوش صلّيا معاً أمام صورة لمريم العذراء التي ترفض الطائفة البروتستانتية عبادتها، كما هي الحال لدى الكاثوليكية.

وينتمي بوش لتيار «ريبورن كريستشن» البروتستانتي، في حين يعتنق شقيقه (جيب) حاكم ولاية فلوريدا الكاثوليكية.

[بي بي سي ٢٤/٦/٢٠٠٨م، الجزيرة نت ١٣/٦/٢٠٠٨م، سي إن إن ٣١/١/٢٠٠٨م]



سفير أمريكي: المصريون معتادون على التدخل الأمريكي!

في حوار صحفي، قال السفير الأمريكي السابق في مصر (فرانسيس ريتشاردوني): «لدرجة مثيرة للإعجاب، يمكننا المساهمة بل ونسهم فعلاً في النقاشات الداخلية المصرية. لكننا في بلدنا (أي: أمريكا) لا نرحب بدخول الأجانب الكونجرسّ عندنا ليتحدثوا عن قانون المواطنة الخاص بمكافحة الإرهاب أو عن كيفية معاملتنا مع معتقلي جوانتانامو.. وهكذا، لكن المصريين معتادون على ذلك».

وقال ريتشاردوني في المقابلة التي أجرتها معه منشورة (ميدل إيست بروجرس) الأمريكية في واشنطن، التابعة لمركز أبحاث (أمريكان بروجرس سنتر) المحسوب على التيار الديمقراطي في أمريكا: «على سبيل المثال: هم رحبوا بالمحادثات معنا عن كيفية التعامل مع الإنترنت، وعن (الباتريوت أكت) مقارنة بتشريعهم القادم لمكافحة الإرهاب. إنهم يقبلون مشاركتنا في تلك المحادثات». مع ذلك أقر السفير بوجود بعض الإحباطات في العلاقات المصرية الأمريكية، التي تحدث حينما تقوم أمريكا بتشجيع الديمقراطية وحقوق الإنسان جزءاً من الإستراتيجية الأمريكية العالمية، لكنه قال: «نحن مهمون بالنسبة لهم وهم مهمون بالنسبة لنا، وكلانا يعلم هذا، ولهذا فإن الجانبين يحكمان بأن الأمر يستحق التغلب على الإحباطات المتبادلة».

وجدد ريتشاردوني عن دعم بلاده لمن وصفهم بـ «الأصوات العلمانية الليبرالية» في مصر الذين قال عنهم: إنهم ما يزالون «أقلية صغيرة للغاية، ويرسمون صورة جميلة للطريق الذي ينبغي أن تسير فيه مصر، وهو الطريق الذي يعجبنا، لكنه ليس من الواضح بالنسبة لي أن لديهم الكثير من الأتباع في الداخل».

[وكالة أمريكا ان أرابيك ١٥/٥/٢٠٠٨م]

فضائيات

■ تُعَد برامج التواصل المباشر مع المشاهدين من البرامج الحيوية التي تحرص القنوات الإخبارية على خوض تجربتها، وبخاصة القنوات المستقلة، إذ إن التواصل مع المشاهدين يكون على الهواء مباشرة، وهو ما يمكن أن يعرِّض القناة للحرج حسب طبيعة المداخلات.

وأبرز هذه البرامج، برنامج (نقطة حوار) على قناة بي بي سي العربية، وبرنامج «منبر الجزيرة» على قناة الجزيرة. وبالمقارنة بينهما؛ نجد أن برنامج «نقطة حوار» يتميز بسرعة الإيقاع، وتنوع وسائل الاتصال، وجاذبية أساليب الحوار وعرض الآراء، فهو يستخدم الإيميل والمشاركة الحية على موقع الإنترنت والاتصال الهاتفي، وموقع يوتيوب، ورسائل الوسائط، والرسائل النصية والاستطلاع المباشر عن طريق المراسلين، كما يُجري حواراً بين المشاركين المتصلين هاتفياً، ويكون الاتصال على حساب القناة وليس على حساب المتصل.

بينما يتخذ برنامج الجزيرة نمطاً تقليدياً يعتمد غالباً على الاتصالات الهاتفية والاستطلاع المباشر، وفي بعض الأحيان يُستضاف أحد الصحفيين أو المتخصصين في موضوع الحلقة ليستهلك جزءاً كبيراً من وقت البرنامج على حساب المشاهدين.

ويتيح أسلوب برنامج البي بي سي مشاركة عدد أكبر من المشاهدين في كل حلقة مقارنة ببرنامج الجزيرة.

■ أعادت قناة المنار بث برنامجها الوثائقي الأثير عن حياة الخميني مرشد الثورة الإيرانية السابق، وهو من عشر حلقات، وعادة ما تبثه القناة في ذكرى موت الخميني كلَّ عام. ويعرض البرنامج سيرة الخميني بالتفصيل، وربما يتاح عرض المعلومات التي يقدمها البرنامج في أعداد قادمة إن شاء الله. وواكبت القناة ذكرى الخميني أيضاً ببث نشيد «فيديو كليب» يلهج بالثناء على الخميني، كما قدمت لوحات دعائية تقتبس كلمات وعبارات قالها الخميني أو كتبها. وعلى صعيد التواصل الديني والسياسي مع إيران، بثت القناة أيضاً برنامجاً وثائقياً من حلقتين عن القدرات العسكرية الإيرانية. وكثيراً ما تحتل أخبار إيران مركز الصدارة في شريط الأخبار الذي تعرضه القناة.

أرقام تحكي العالم

● توقع تقرير صادر عن «معهد ماكينزي العالمي» أن تصبح دول مجلس التعاون الخليجي قوى كبرى على الصعيد المالي العالمي، وذكر أنها تتمتع بالفعل بأصول أجنبية تقدَّر قيمتها بحوالي تريليوني دولار، وتملك حصصاً في شركات كبرى، مثل: «سوني» و «ناسداك»، إضافة إلى التي اشترتها بأكملها، مثل «جي. إي. بلاستيكس» و «بارنيز نيويورك»، ويقدر التقرير أن عوائد صادرات دول المجلس من النفط الخام ستتراوح بين ٥ و٩ تريليونات دولار خلال المدة بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٢٠م، وأنها سوف تستثمر ما بين ٣٠٪ ٦٠٪ من هذه العوائد في الخارج.

[الشرق الأوسط ٢٠٠٨/٥/٢٤م]

● أعلن الفاتيكان أن الإسلام تجاوز الكاثوليكية، حيث تبلغ نسبة المسلمين الآن أكثر من ١٩٪ من مجموع سكان العالم مقارنة بأقل من١٧،٥٪ للكاثوليك، لكن بحساب جميع الطوائف النصرانية تبلغ نسبة النصارى في العالم ٣٣٪. [بي بي سي]

● ذكرت صحيفة «شاهرواند إيمروز» الإيرانية أن طهران سحبت نحو ٧٥ مليار دولار من أرصدة إيران الخارجية، بناء على أوامر الرئيس أحمدي نجاد، للحيلولة دون تجميدها بمقتضى عقوبات جديدة، وحوّل جزءاً من الأرصدة إلى ذهب وأسهم، فيما حُوِّل جزء آخر إلى بنوك آسيوية.

[الخليج ٢٠٠٨/٦/١٧م]

● تحتجز الإدارة الأمريكية في بنكها المركزي بنيويورك نحو ٥٠ مليار دولار من الأرصدة العراقية المجمدة منذ العام ١٩٩٠م، وتستخدمها للضغط على الحكومة العراقية للتوقيع على الاتفاقية الأمنية الإستراتيجية، التي تسمح لواشنطن بإقامة أكثر من ٥٠ قاعدة عسكرية في العراق. [وكالات]

● ذكر الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا أن العالم فقد ٥٠٪ من مساحة الغابات الاستوائية في مدة لا تزيد عن ستين عاماً، وأنه يُقضى سنوياً على ٣٢ مليون فدان من الغابات الاستوائية، وهي مساحة تساوي مساحة إنجلترا، وعزا ذلك إلى الدول الغربية المتقدمة التي يزداد طلبها على المنتجات التي تستخدم الأشجار.

[بي بي سي ٢٠٠٨/٦/٥م]

علامة تعجب

(١: ٣٣٠٠)

صدرت أحكام بالسجن مع إيقاف التنفيذ وغرامات على أربعة مسيحيين جزائريين بعد اتهامهم بالدعوة إلى التنصير. ويبلغ تعداد المسيحيين في الجزائر - حسب بعض التقديرات - عشرة آلاف شخص، بينما يدين بقية السكان البالغ تعدادهم ٣٣ مليون نسمة بالإسلام.

[العربية نت ٢٠٠٨/٦/٣م]

وحدة في ظل التمزق

حذر الزعيم الليبي معمر القذافي مَنْ أسماهم «الرجعيين والمترددين» في إفريقيا من مغبَّة عرقلة مسيرة الوحدة الأفريقية، في إشارة منه إلى بعض القادة الأفارقة، غير أنه لم يحددهم بالاسم. وقال القذافي الذي كان يتحدث أمام الآلاف من سكان العاصمة التوغولية لومي: «إنهم يعرقلون وحدة أفريقيا، وينفِّذون مخططاً ضد مستقبلها». ويأتي الحديث عن وحدة إفريقية نشازاً بينما تتعرض دول عديدة لخطر التمزق، مثل: السودان، والصومال، دون أمل كبير في لملمة أطرافها.

[بتصرف عن الجزيرة نت ٢٠٠٨/٦/١٦م]

لن يرضوا بأقل من الكفر

تجرأ مستشار لبابا الفاتيكان بيندكت السادس عشر على مهاجمة القرآن الكريم، ورفض أن يعتبره «كلام الله». وقال الكاردينال (جين لويس توران): «يجب أن يكون الزعماء المسلمون أكثر صراحة وأشد نقداً للعنف باسم الدين»، ونقلت صحيفة «الجارديان» البريطانية عن توران قوله: «بينما يدين أغلب رجال الدين المسلمين الأعمال الإرهابية، فإنهم في حاجة ليتخذوا موقفًا أكثر وضوحًا بشأن الجهاد ولا سيما مع تكراره الكثير في القرآن»، وقال: «يجب على السلطات الدينية أن تكون أكثر صراحة بشأن العنف باسم الدين.. المشكلة أن المسلمين يعتقدون أن القرآن هو كلام الله»!

[محيط ٢٩-٥-٢٠٠٨م]

أصدقاء

قال وزير الخارجية العراقي هوشيار زيباري في حوار مع سي إن إن: «الأمريكيون هنا بموافقة الحكومة العراقية المنتخبة وقبولها.. هم أصدقاء ويقدمون تضحيات، ومن ثم كل ما سيتعرضون له، سنشعر بذلك الألم.. وهذا غير مقبول».

[سي إن إن ٢٠٠٨/٦/١٦م]



باراك أوباما

ولد باراك حسين أوباما في أغسطس ١٩٦١م في ولاية (هاوي) من أب كيني مسلم وأم أمريكية بيضاء من ولاية كنساس، وكان والده يدرس ضمن مِنحة في جامعة هاوي حيث تعرف بزوجته. واسم «باراك» هو النطق السواحلي - لغة وطنية في كينيا - للكلمة العربية «بارك»، وذكر أوباما أن أباه كان يرعى الماعز لأسرته في كينيا في طفولته إلى جانب الدراسة في مدرسة القرية.

انفصل والداه وهو في الثانية من عمره، وانتقلت الأم بعد أربع سنوات إلى جاكرتا حيث تزوجت بمهندس بترول إندونيسي مسلم وأنجبت منه «مايا». وفي جاكرتا انتظم أوباما عامين في مدرسة إسلامية، ثم التحق بمدرسة كاثوليكية، واعتنق المسيحية بحسب طائفة كنيسة المسيح المتحدة، وقد ذكر أوباما في مذكراته أن من أجمل ما كان يسمعه وهو طفل في إندونيسيا هو صوت الأذان للصلاة من منارات المساجد في جاكرتا.

في سن العاشرة، عاد أوباما مع أمه - التي تطلقت ثانية - إلى ولاية هاوي، حيث عاش حياة مرفهة مع جده وجدته لأمه، وكان والده قد أخفق في مواصلة مِنحة مقدَّمة له من جامعة هارفارد لدراسة الدكتوراه لأسباب مالية، وكان ذلك سبب عودته إلى كينيا؛ حيث مات لاحقاً في حادث سيارة بسبب إدمانه الكحول، وقد توفيت والدته عام ١٩٩٦م بمرض سرطان المبيض.

عانى أوباما في سنوات المراهقة من مسألة تنوع أصوله العرقية وتحديد هويته الثقافية، لدرجة تناوله لمدة وجيزة مخدرَ الماريوانا والكوكايين.

تخرج أوباما من جامعة كولومبيا في نيويورك عام ١٩٨٣م في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية، وعمل في مجال العمل الأهلي لمساعدة الفقراء، كما عمل كاتباً ومحللاً مالياً. وفي عام ١٩٩١م، تخرج من كلية الحقوق بجامعة هارفارد، ودرس القانون محاضراً في جامعة إلينوي في عام ١٩٩٣.

في عام ١٩٩٢م، تزوج ميشيل روبنسون، وله منها ابنتان، هما: ماليا ونتاشا، وتعيش الأسرة في منزل تاريخي كبير يزيد سعره عن المليون ونصف المليون دولار في شيكاغو.

دخل أوباما عالم السياسة عام ١٩٩٢م عندما أصبح مديراً لمشروع التصويت في إلينوي. وفي عام ١٩٩٦م، انتُخب في مجلس شيوخ الولاية، وفي ٢٠٠٤م أصبح سيناتوراً عن إلينوي بعد فوزه بنسبة ٧٠٪، ليصبح من أصغر الأعضاء سناً وأول سيناتور أسود في تاريخ الكونجرس.

يعدّ أوباما من أكثر مَنْ تصدّوا لمنصب الرئاسة الأمريكية تعليماً، فمن كل رؤساء أمريكا السابقين، الذين يصل عددهم إلى حوالي الخمسين، لم يكن يحمل شهادة الدكتوراه منهم إلا واحد فقط، وهو الرئيس دودرو ويلسون (١٩١٤- ١٩١٨م).

فيما يتعلق بالمنطقة العربية، أعلن أوباما في أكثر من مناسبة أن الحرب كانت خطأً، وأن النظام العراقي السابق لم يكن لديه أسلحة دمار شامل أو أي صلات بالإرهاب. وينتقد أوباما سياسة الرئيس بوش في العراق، ولكن ذلك لم يمنعه من تأييد القوات الأمريكية ودعمها معنوياً من خلال الزيارة التي قام بها للعراق في يناير ٢٠٠٦م.

وقال أوباما: إن الولايات المتحدة لن تعترف بفوز مرشحي حماس قبل أن تعلن الحركة عن تغيير بند تدمير إسرائيل من ميثاقها، وقال: إن الأمل يحدوه - بعد أن تخوض حماس تجربة المسؤولية - أن تدرك أن الوقت قد حان للخطاب المعتدل. وفي خطاب له أمام منظمة أيباك المؤيدة لإسرائيل؛ صرّح باراك أوباما بأنّ «القدس ستبقى عاصمة إسرائيل، ويجب أن تبقى موحدة».

وينتمي أوباما إلى ما يعرف في التقاليد الأمريكية بتيار الليبرالية الدولية، كما يقول البروفيسور مايكل مان، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا، وهو تيار يرفض الأوهام الإمبراطورية، ويطالب لأمريكا بدور القائد الأكثر تأثيراً، وليس دور الإملاء الإمبراطوري.

أصدر السيناتور أوباما كتاباً في أكتوبر ٢٠٠٧م بعنوان: «جرأة الأمل»، ويدعو في كتابه الساسةَ والمجتمع الأمريكي إلى انتهاج نمط جديد من السياسة يتجاوز الاختلافات التقليدية بين الجمهوريين والديموقراطيين، وكان قد نشر كتاباً آخر عام ١٩٩٥م بعنوان «أحلام من أبي» عن ذكريات أيام الطفولة والشباب.

[تقرير واشنطن ٢٠٠٦/١١/٤م، بي بي سي ٢٠٠٨/٦/٧م، موقع ويكيبيديا، الأهرام ٢٠٠٨/٦/١٦م، مقال سعد الدين إبراهيم أوباما والثورة الأمريكية الجديدة]



جندي أمريكي يوزع نقوداً عليها عبارات تنصيرية:

● ضمن مخطط تنصير العراق، قام جندي أمريكي بتوزيع عملات معدنية على مسلمي الفلوجة تحوي عبارات تنصيرية مقتطفة من كتاب النصارى المقدس.

وجاء على إحدى القطع فقرة من سفر يوحنا (٣/١٦) تقول: «لأنه هكذا؛ أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

[الحقيقة الدولية ٢٠٠٨/٦/٢م]

قس متنصِّر ينتقد عدم تنصير مسلمي بريطانيا:

● دعى «مايكل نظير علي» أسقف مقاطعة روشستر المتنصر إلى بذل ما يكفي من جهد لتنصير مسلمي بريطانيا، متّهماً المنصرين بالتقصير والفشل في تلك المهمة.

وأضاف الأسقف: إن «قادة الكنيسة الإنجيليكانية يخجلون من تحويل المسلمين في إطار جهود للترحيب بالأقليات العرقية».

يُذكر أن الأسقف نظير معروف بعدائه الشديد للمسلمين وانتقاده لهم، وكان والده مسلماً باكستانياً، لكنه تنصر، في الوقت الذي اعتنق الإسلامَ أكثر من ٥٠ ألف بريطاني مقابل عدد قليل من المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية خلال العقد الماضي.

[صحيفة ديلي ميل البريطانية ٢٠٠٨/٥/٢٥م]

بابا الفاتيكان: يجب حمل كل البشر على المسيحية:

● دافع بابا الفاتيكان «بنديكت السادس عشر» عمَّا سماه بالحق «الثابت» على حمل كل البشر على اعتناق المسيحية الكاثوليكية.

وبيَّن خلال لقاء مع المجلس الأعلى للأعمال البابوية الرسولية، بأن الطابع المركزي لرسالة الكنيسة الكاثوليكية يكمن في رسالة التنصير بالإنجيل.

هذا، وكان البابا قد دعا في ديسمبر الماضي في وثيقة بعنوان «حق الكنيسة الكاثوليكية في نشر رسالتها التبشيرية» إلى نشر المسيحية بين الشعوب حتى لو كان ثمن ذلك الموت.

[إذاعة الفاتيكان ٢٠٠٨/٠٥/١٧م]

ترجمات:

● «إنه فيما يتعلق بمنظمة حزب الله وإمكانية قيامها بالرد على «إسرائيل»، في حالة قيامها بهجوم على إيران؛ فليس هناك ما يؤكد أنها ستقوم بالرد تلقائياً، فهي ستفكر جيداً قبل القيام بمثل هذا الرد، وحسب ما يتماشى مع مصالحها، وقادة حزب الله يعلمون جيداً مدى قوة «إسرائيل» العسكرية ومدى شدة ردِّها. كما أن «إيران مثل «الكلب» الذي ينبح ولا يعض، وفي تقديري أن خيارات الرد لدى إيران على أي هجوم أمريكي أو «إسرائيلي» ستكون محدودة وضعيفة».

[باتريك كلاوسن ومايكل إيزنتشتت، من معهد واشنطن لدراسات الشرق الأوسط، من كبار المتخصصين في مجال الشؤون الإيرانية، في تصريحات خاصة لصحيفة هآرتس ٢٠٠٨/٥/٢٥م]

تصريحات:

● «إن عودة اللاجئين الفلسطينيين، من ناحية «إسرائيل» يعني انتحاراً ديمغرافياً، كما أن عودة اللاجئين سيعني أن لا تكون «إسرائيل» دولة يهودية، فالغالبية اليهودية تحافظ على وجود «إسرائيل»، ولهذا فإن دخول مئات آلاف الفلسطينيين يعني انتهاء الهوية «الإسرائيلية»، ولهذا فإنني أرفض إعادة حتى لاجئ واحد إلى داخل مناطق الـ ٤٨. كما أن حلَّ قضية اللاجئين تكمن في إعادتهم إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، أو دفع التعويضات لهم من قِبَل المجتمع الدولي أو توطينهم في الدول العربية».

[الرئيس الصهيوني شيمون بيريز، ٢٠٠٨/٥/٢م، الإذاعة الصهيونية]

● «إن «إسرائيل» تريد إخراج سورية من محور التأثير الإيراني نحو اتفاقية سلام تحاكي اتفاقية السلام التي أبرمتها مع مصر عام ١٩٧٩م، كما أن السلام مع سورية سيخفف من تأثير حزب الله، ويُجبر خالد مشعل - رئيس المكتب السياسي لحركة حماس المقيم في دمشق - على البحث عن مكان آخر، ويحسّن صورة «إسرائيل» ومكانتها في العالم العربي».

[آفي ديختر، وزير الأمن الداخلي الصهيوني، يديعوت أحرنوت، ٢٠٠٨/٥/١٨م]



حدث وحديث

انتبه لرأسك!

د. يوسف بن صالح الصقير (*)

أعترف للقارئ الكريم أنني لا أعلم تفاصيل آلية اختيار الأحزاب للمرشحين، ولكن المراقب يُصدَم أمام الخيارات التي وُضِعَ أمامها الناخبُ الأمريكي، فهو كان بين (ماكين) المرشح الوحيد للجمهوريين، وكأن الحزب قد عقم سياسياً حتى إنه لم يجد إلا من تعدّى السبعين عاماً، والذي إن سلم من العجز البدني قد لا يسلم من الخرف، وهو يذكّرنا بحال زعماء الاتحاد السوفييتي قبل تفكّكه وانهياره، ومن ناحية أخرى فإن أمامه مرشحَيْ الحزب الديمقراطي اللذين خاضا صراعاً طويلاً أضعف تماسك القاعدة الديمقراطية التي لا أرى أنها أصلاً مقتنعة بحَصْر خيارات الحزب بين امرأة وإفريقي الأصل. وهنا نؤكد على أنه إذا كانت أمريكا قد قامت على أساس عنصري ما زال يضرب بجذوره في المجتمع؛ فإن غالبية المجتمع الغربي لا زالت تشكُّ في قدرة المرأة على ممارسة السلطة بكفاءة، ولذا هُزمت المرأة البيضاء أمام الرجل الأسود (باراك حسين أوباما) المولود من أب كيني مسلم اسمه حسين وأم أمريكية، وهو يعلن مسيحيته وينفي إسلامه، وهو شاب غني مثقف يجيد الخطابة ويُغْرِق من أمامه بالوعود؛ فهو - كما أعلن - سيخفض الضرائب، ويخرج من ورطة العراق، وهو مستعدٌّ لضرب إيران والوقوع في ورطتها، وأن القدس يجب أن تظل عاصمة للدولة الصهيونية، وأن إدارته - في حال انتخابه - ستقف إلى جانب الدولة الصهيونية في مواجهة التهديدات كافة، وستعمل على ضمان تفوقها العسكري في المنطقة. وشدَّد على أن «الذين يهددون أمن الدولة الصهيونية يهددون أمن الولايات المتحدة»، ولكنه عندما سألته مراسلة (سي إن إن) (كاندي كراولي) عن تصريحاته أمام (أيباك)، حول ما إذا كان للفلسطينيين مطالب بالقدس؛ قال أوباما: «حسناً؛ يبدو جلياً أن الأمر سيكون وَفْقاً للمفاوضات بين الجانبين جزءاً من قضايا أخرى.. والقدس ستكون جزءاً من المفاوضات». وكان قد قال أيضاً: «لا يوجد من يعاني أكثر من الشعب الفلسطيني». ومن ثم جرى توضيح هذا التصريح لاحقاً من قِبَل القائمين على حملته بأنه يقصد: «أن أحداً لم يعانِ أكثر من الشعب الفلسطيني من إخفاق القيادة الفلسطينية (حماس) في الاعتراف بـ (إسرائيل)، ونبذ العنف، والتعامل بجدية مع المفاوضات بشأن سلام المنطقة وأمنها».

إنه يبيع الكلام، وعندما يصل سيبيع المواقف، وهنا نقول: وداعاً (أوباما حسين) وانتبه لرأسك فلا أحد يثق بك.

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة، جامعة الملك سعود، الرياض.



البطاقة

العقيد: مشعل مغربي (*)

كانت الساعة الرابعة عصراً عندما رنَّ جرس الهاتف في منزل العم أحمد. ردَّت ابنته الصغرى (سماح)، وإذا بذاك الصوت الأجش الذي يقرع مسمعها دون أيِّ سلام أو مقدمة كلام:

- أين والدك؟

- من أنت؟

- المستشفى.. أعطني والدك بسرعة.

هُرِعت الفتاة ذات العشرين ربيعاً إلى والدها في غرفة نومه الواقعة في الدور الثاني من البيت.

- أبي! أبي!

- نعم يا سماح!

- رجل من المستشفى يريدك سريعاً.

- اللهم اجعله خيراً!

قفز العم أحمد من سريره متناسياً كل أمراضه التي يشتكي منها وهو ابن ستين عاماً وكأنه في ريعان الصبا، وأخذ يهرول على درج البيت الحلزوني وهو يردِّد: اللهم اجعله خيراً.. اللهم اجعله خيراً، رفع السماعة:

- نعم!

- العم أحمد؟

- نعم! من أنت؟

- عفواً! أنا موظف المستشفى العام، هل وليد أحمد هو ابنك؟

- نعم!

- لقد وقع له حادث مروري بسيط، وهو في المستشفى، فحبذا لو حضرت إلينا.

- كيف هي إصابته؟

- بسيطة، ولكن يلزم حضورك على وجه السرعة وللأهمية!

- هل مات ولدي؟

- لا؛ ولكنه مصاب.

- حسناً! حسناً!

وفي هذه الأثناء تجمَّعت العائلة المكونة من سبع بنات وأمهم حول قائدها وهو يُجري تلك المكالمة، وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، وقد علاهم من الوجوم ما علاهم، حتى صرخت الأم بأعلى صوتها وسقطت على الأريكة التي كانت بجانبها وأخذت تبكي بكاء شديداً، فأحاط بها بناتها وأخذْنَ يشاطرْنَها البكاء، فالدموع سلاح المرأة.

وأخذت الأم بعاطفة الأمومة تنوح على ابنها الوحيد الذي رزقت به بعد سبع بنات، فأصبح شمس الأسرة ومصدر سعادتها وسرورها، عليه عقدت الآمال بعد الله، وفيه شيدت الأحلام، يحمل اللواء بعد والده ليدير هذه الأسرة ووالده في سن الشيخوخة، وأمه كذلك، ولم يطرق بابهم خاطب لأخواته.

ترك الرجل هذا المشهد وصعد إلى غرفته، ولبس ملابسه، وعندما وصل إلى بهو البيت تعلقت به زوجته وهي تناشده الله

(*) مساعد مدير مرور مكة المكرمة.

أن يأخذها معه إلى المستشفى لتطمئنَّ على وحيدها وحبيبها، ولكن أبا وليد لم يلتفت إليها وخرج مسـرعاً من المنزل وركب سـيارته، وانطلق إلى المستشفى العام والتخيلات تتقاذفه من كل جانب، مؤنباً ذاته بين الفينة والأخرى:

- أنا السـبب! أنا السـبب! يا ليتني لم آذن له في هذه الرحلة مع أصدقائه.

وفي هذا الخضم المتلاطم من التأنيب والأسـى والحزن، تقف سـيارته في مواقف المستشـفى ليقفز منها العم أحمد الذي أصبح شـاباً يسابق الريح حتى دخل المستشفى وهو في حالة هلع:

- أين ابني؟ ماذا جرى له؟

- موظف الاستقبال: استرح يا والدي انتظر قليلاً وسوف يأتيك الطبيب حالاً.

- العـم أحمد: قلت لـك أين ابني؟ هل هـو في العناية المركزة أم في الثلاجة؟

يحاول موظف الاسـتقبال أن يهدئه ولكـن دون جدوى، ويعلو صراخ الرجل وهو يركض تجاه العناية المركزة مسترشداً باللوحـات الإرشـادية في المستشـفى، وفـي أحد ممرات المستشـفى المؤدية إلى غرفة العمليات الصغرى يخرج الطاقم الطبي ومجموعة مـن الأطباء والممرضين وهم يحوقلون وقد بدا عليهم الأسـى والحزن، فإذا بذلك الرجل المندفع يصرخ بأعلى صوته وخلفه موظف الاستقبال. أمسك الأطباء بالرجل، وأخذوا يهدئون من روعه، وهم يظنون أن موظف الاسـتقبال أخبره بموت ابنه:

- اصبر واحتسـب يا عم! لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، قل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

- وعندها جُنَّ جنون العـم أحمد، ماذا تقول؟ مات ابني وليد؟ أنا لا أصدِّق، فيجثو على ركبتيه وهو ينوح بأعلى صوته نواح الثكلى، تجمّـع حوله الأطباء وأخذوه معهم إلى غرفتهم المجاورة في منظرٍ خيَّم عليه الحزن.

- أرونـي ابني أريـد أن أراه، أرجوكم أريد أن أكحل عيني بمحياه قبل أن يوسَّد الثرى.

- رفض الأطباء ذلك بشـدة، فلقـد كانـت معالم وجه الشـاب مختفية تماماً، ولربما كانت الرؤية سـبباً في صدمة عصبية شديدة لأب في الستين من عمره، وهو يرى ابنه الوحيد بهذا المظهر.

وبينما هم في قمة المأسـاة التي أرخت سـدولها كالليل على الجميع، يتقدم موظف الاسـتقبال إلـى أحد الأطباء ببطاقة المتوفَّـى فيلمحها الأب فينتزعها من يد الطبيب وينكبُّ عليها مقبلاً صورة ابنـه، وهو يصرخ: ابني! ابنـي! أودِّعك الوداع الأخير، وداعاً يا بني!

لقد بكى العم أحمد وأبكى وهو يودع فلذة كبده الوحيد.

وفجأة يسـمع صوت ركض وجَلَبة في ردهات المستشفى، إنهم مجموعة من الشـباب، يقف الجميع لينظروا ما الخبر، ويخرجون مـن باب غرفة الأطباء ويصرخ فيهم أحد الأطباء: ما هذه الضجة؟! أنسيتمَ أنكم في مستشفى؟!

- أحد الفتيان: لا؛ ولكن أين المتوفَّى؟

- الطبيب: لقد نقل إلى الثلاجة؛ ماذا تريد؟

- الشاب: أريد أن أراه.

فيتسلَّل الصوت إلى أذن العم أحمد.

- الله أكبر! كأنه صوت وليد!

- الطبيب: لا يمكنك مشـاهدته، ولكـن بإمكانك مقابلة والده.

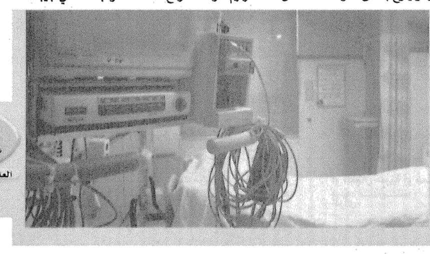
- أين هو؟

- تفضلوا! فيدخل الشـباب الغرفة لمواساة والد المتوفَّى، وما إن ولجوا الغرفة وإذا بالمفاجأة الكبرى!

- مَـنْ؟ وليد؟! ابنـي! ابني! ابنـي! فيتعانقان وقد علا صراخهمـا في ظل ذهول الجميع: ما الذي يحدث؟ من الذي مات؟ أليس هو صاحب البطاقة؟!

ينظر الأطباء إلى بعضهم لتأتي الإجابة من وليد نفسـه رداً على سؤال والده:

- لقد رهنت بطاقتي عند صاحب المحل الذي اسـتأجرنا من عنده لوازم الرحلة، فوقع له حادث، والبطاقة في جيبه.





الرأي العام

ماهيته، قياسه، والتأثير فيه

د. عبد الله علي الشرمان
alshormana@asme.org

١ - مقدمة:

يُعـدّ رأي مجتمع ما أو مجموعة مُعتبـرَة منه إزاءَ أمر مــن الأمور الحياتية رأياً عامّاً، وتُعدّ عملية اســتطلاع هذا الــرأي وتحديد معالمه من المهمات الدقيقة والحساســة في حياة الناس؛ نظراً لارتباط ذلك بشأن اجتماعي متداخل، له أهمية خاصة ترتبط به وتتوقف عليه كثير من النتائج المهمة والحساسة تأييداً أو معارضة أو حياداً.

ويمكن اعتبار هذا الأمر من الأعمال الدقيقة التي تحتاج إلى صِدقيّة وإنصاف ونهج علمي متوازن ومتخصص، فضلاً عن العدالــة والحيادية والتحلي بأعلى درجات الإحســـاس بالمســؤولية والشفافية، ســواء كان ذلك من طرف عناصر الرأي العام أم الجهة (الجهات) التي تقوم باســتطلاع الرأي العام وقياسه.

٢ - معنى الرأي العام:

يمكن القــول: إن الرأي العام هو توجّــه عام أو انطباع مشـــترَك يَنظم مجموعة معينة من النــاس (أغلبهم) حول مســـألة محـددة في ظـرف زمـاني ومكاني محددين قبولاً أو رَفضــاً أو حيادية، مع ما يقتضي ذلك من توجه شعوري باطن وسلوك واقعي ظاهر وملموس.

٣ - دوافع قياس الرأي وأسبابه: لماذا يكون قياس الرأي العام؟

غالباً ما يكون قياس الرأي العام لأحد الأسباب والدوافع التاليــة - أو لمجموعة منها - طبقاً للحال الراهن والأهداف المتوخاة مــن عملية القياس، وفي حــدود المجالات المتاحة والطاقات المتوفرة:

١ - الاستكشاف والإيضاح والتحليل.

٢ - تجلية حقائق عامة وإظهارهــا، وتوظيفها لتحقيق مكاسب ومنافع آنية أو مرحلية.

٣ - امتلاك المعلومة القائمة على أســاس علمي دقيق، وهذا يمكن اعتباره أحد مصادر الصدقية والوثوقية، فضلاً عن القوة في الموقف والدليل والبرهان.

٤ - تمكين المجتمع أو مجموعة منه للاطلاع على حقيقة ما لديه من آراء أو مواقف أو توجهات، ويمكن بعد ذلك توظيف النتائج لتكوين قناعات، أو التـأثير في الآراء والقناعات، أو تعديلها نحو الإيجابية والخيرية والصالح العام.

٥ - لتـأييد مواقف أو توجهات وسياســات أو هيئات أو أعمال معينة أو معارضتها، طبقاً للهدف المحدد من قياس الرأي.

٦ - للرد على ادّعاءات ومزاعم وتجلية الحقائق الواقعية إزاءها: تأكيداً، أو تفنيداً، أو تصحيحاً.

٧ - تجلية حقائق عامة مشتركة بين عدة فئات اجتماعية أو بين مجتمعات متعددة، وذلك من خلال استطلاعات الرأي العام عبر الإنترنت، وتوظيفها بعد ذلك نصرةً للحق، ودحراً للباطل، وتأييداً للمستضعفين، ورداً لظلم الظالمين.

٤ - العوامل المؤثرة في الرأي العام بالنسبة إلى المجتمع:

تجتمع عدة عوامل رئيسية لتؤثر في الرأي العام وتُكوِّنه لدى المجتمع، بحيث يؤثر كل عامل منها بنسبة معيَّنة، طبقاً لأهميته ودوره في تكوين المجتمع وصياغة ثقافته. ومن هذه العوامل:

١ - العقيدة والمبدأ.

٢ - التاريخ والتراث.

٣ - الحضارة والتكوين الحضاري للمجتمع.

٤ - العادات والتقاليد والقيم.

٥ - التكوين النفسي والاجتماعي، وطبيعة العلاقات بين عناصر المجتمع.

٦ - المستوى الاقتصادي والرفاه الاجتماعي العام.

٧ - المستوى الثقافي والتعليمي.

٨ - وسائل الاتصالات الحديثة، ومجالات التكنولوجيا المتقدمة وآثارها العلمية والتقنية والنفسية والاجتماعية.

٩ - وسائل الإعلام والمعلومات والاتصال الجماهيري.

١٠ - واقع الهوية الحضارية للمجتمع والأمة، والمرحلة التاريخية والواقعية التي يحياها المجتمع.

٥ - اتجاهات الرأي العام بشأن أي مسألة من المسائل:

تأخذ اتجاهات الرأي العام بشأن أي قضية من القضايا أحد المسارات الآتية:

١ - التأييد الذي يمكن أن يكون تأييداً عاطفياً أو تأييداً عقلياً، طبقاً لطبيعة المجتمع وتكوينه النفسي والثقافي والاجتماعي والسياسي.

٢ - المعارضة من دون بيان أسباب محددة؛ وهي المعارضة الشعورية العاطفية الناتجة عن تراكمات من الأسى والمعاناة والشعور بالخيف والظلم والحرمان.

٣ - المعارضة المرتبطة بأسباب ومسوِّغات عقلية ومنطقية وواقعية.

٤ - الحيادية الإيجابية القائمة على مسوِّغات ومرتكزات.

٥ - الحيادية السلبية القائمة على غياب الرأي وعدم القدرة على تحديد موقف محدَّد ومسوِّغ، والانكفاء على الحيرة والضبابية.

٦ - مراحل توجيه الرأي العام وإعداده:

غالباً ما تقوم الجهات التي توجه الرأي العام بالخطوات والمراحل الآتية لتستكمل عملية إعداد الرأي العام إزاءَ أمر معين. وغالباً ما تكون هذه الخطوات باتجاه الإقناع والتأييد لخطوة أو موقف ما، بينما عملية التنفير من موقف ما تمر بمراحل أقل حدة وأقصر مدة؛ نظراً لأن ذلك يقترن بالتبشيع والتهديد والتنفير.

أمّا خطوات ومراحل التوجيه نحو الإقناع والتأييد من قِبَل الرأي العام؛ فهي:

١ - التبشير والتلويح، بحيث يكون ذلك من خلال إشارات سريعة في: أحاديث، أو مقالات، أو نشرات، أو مقابلات، أو ما شابه ذلك.

٢ - التمهيد من خلال بالونات الاختبار، أو تصريح صحفي، أو مقال، أو حديث تلفزيوني، أو الإعلانات والإشاعات الموجهة.

٣ - التوجيه والإعلان المُكثَّف، والإقناع المرحلي المبرمَج.

٤ - الإعلان والتنفيذ، وقياس ردة الفعل الأوّليّة.

٥ - التكريس وبسط الواقع.

٦ - التقويم الظاهري: وتُعرَض عبارات ومواقف التأييد والترحاب والقبول. والتقويم غير الظاهري (غير المعلن): حيث يكون تقويماً مدروساً ومنهجياً توضّح خلاله حقيقة ردود الأفعال والمواقف.

٧ - الاعتياد والمعايشة، والإعلان عن تكوين الرأي؛ مع ما يصاحب ذلك من مظاهر القبول والتأييد ومعززات ذلك ولوازمه؛ وكل ذلك بما يخدم هدفاً أو أهدافاً عامة أو مرحلية.

٧ - وسائل التأثير في الرأي العام (سلباً أو إيجاباً):

تُستخدم وسائل متعددة للتأثير في الرأي العام، وقد يكون بعضها مستهجَناً وغريباً، ولكن بعض الجهات الموجِّهة للرأي العام قد تُسوِّغ لنفسها استخدامَ هذه الوسائل لتحقيق أهدافها. ولا يملك الإنسان المسلم إلا أن يقر من الوسائل ما كان يتفق مع الشرع الحنيف ووسائله الربانية الصحيحة،



ويُنكِر ما تصادم مع الشريعة السمحاء وتعارض معها.

ومن الوسائل المستخدمة ما يلي:

١ - وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، والصحف والمطبوعات والنشرات، ويلحق بذلك المسرح.

٢ - وسائل الاتصالات الخلوية والسلكية واللاسلكية، والرسائل القصيرة (SMS) وما شابهها، ويلحق بذلك رسائل البريد الإلكتروني (E-mail).

٣ - الإشاعة؛ سواء كانت الصماء أو المرحلية الموجّهة.

٤ - المناظرات والمساجلات المتلفزة أو الصحفية.

٥ - المسجد، ومن خلال الخطب والدروس والمحاضرات والعلاقات والصداقات بين المصلين، وكذلك من خلال التواصل والزيارات بينهم.

٦ - الوعود والأعطيات، وتقديم العون والخدمات الموجهة، ويمكن أن يكون هذا بهدف المساعدة والعون بشكل مجرّد.

٧ - التضليل والتدليس، وإخفاء الحقائق أو تشويهها.

٨ - التخويف والترهيب، ومصادرة الإرادات، والتهديد.

٩ - القهر والظلم المباشر وغير المباشر والمُبطّن والخفي.

١٠ - الكذب المباشر وغير المباشر، وقد يُدعّم ذلك بإحصاءات وأرقام ورسومات بيانية وتحليلية.

١١ - الأحاديث والتصريحات للرموز الاجتماعيين والأشخاص الاعتباريين المؤثرين: اجتماعياً، وسياسياً، وأكاديمياً، وتخصصياً.

١٢ - مؤسسات المجتمع المدني؛ كالنقابات المهنية، والجمعيات، والروابط، والمنظمات غير الحكومية، وجماعات الضغط والتأثير.

١٣ - التوظيف الموجّه للصدمات والإخفاقات والارتكاسات على الصعيد العام وعلى صعيد المجتمع والأمة، وكذلك للإنجازات المتميزة والإبداعات في الجانب المقابل لذلك.

١٤ - التوظيف المبرمَج للمفاجآت والانعطافات الحادة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

١٥ - التوعية والتثقيف، وبيان الحقوق والامتيازات الخاصة بالناس وتوعيتهم إزاءها، وكيفية الحصول عليها وكيف يجب أن تكون، وكيفية تحفيزها وتطويرها وزيادتها. وبالتوازي مع ذلك: التذكير بالواجبات، وكيفية أدائها والالتزام بها.



١٦ - تبيان مجالات الظلم والقهر والحرمان وتعريتها، مع التركيز على مجالات الحرية والرفاه واحترام الرأي وتقدير الذات.

١٧ - كشف عوامل الفساد والإفساد وتعريتها وبؤرها ومراكزها ومجالات عملها وأساليبها، وإيضاح حقيقتها وأسمائها وأماكن وجودها وارتباطاتها.

١٨ - تبيان مجالات الحرمان والعوز وكيفية معالجتها وآليات التعامل معها ضمن المقدرات المتاحة، وأن علاجها ممكن في ظل العدالة والإنصاف ووضع الأمور في نصابها الحق.

١٩ - التذكير الدائم، والتوعية المرحلية المدروسة، وإضفاء الحيوية الدائمة على ذاكرة المجتمع، وبث الوعي والمعلومة الدقيقة والصحيحة.

٢٠ - بث معاني العدالة والإنصاف، وتحري الدقة والعدل والمنطق، وتحفيز مستوى الإدراك والوعي الاجتماعي ضمن منهجيّة علمية وعملية متدرجة.

ويمكن أن يكون ذلك عن طريق المؤسسات المتخصصة والعلماء والخبراء والمتخصصين وذوي الحكمة والخبرة.

٨ - وسائل قياس الرأي العام:

يمكن قياس الرأي باستخدام إحدى الوسائل الآتية - أو بمجموعة منها - طبقاً لموضوع الدراسة وأهميته وتوقيته، والإجراءات المرتبطة به، والبيانات والمعلومات المتوخاة منه. ومن هذه الوسائل:

١ - الاستطلاعات العامة لمختلف فئات المجتمع عبر الاستبانات أو عبر الهاتف أو التلفزيون.

٢ - الصحف والوسائل الإعلامية المختلفة، ويكون ذلك بالمقابلات الصحفية والتحقيقات، والمقابلات الإذاعية والتلفزيونية.

٣ - المواقع الإلكترونية للصحف ووكالات الأنباء، والمواقع الإلكترونية العامة والشخصية عبر شبكة الإنترنت.

٤ - بالونات الاختبار ورصد ردود الأفعال العامة.

٥ - التغذية الراجعة من الناس إزاء ما يُعرض في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة، وعبر المواقع الإلكترونية على الشبكة الدولية للمعلومات.

٦ - ملاحظة الانعكاسات السلوكية المباشرة للناس ومراقبتها إثر حَدَث معيّن أو موقف محدد.

٧ - رصد أحاديث الناس وتعليقاتهم في أماكن التجمهر والتجمع العامة، والتدقيق في ردود الأفعال السريعة والساخرة.

٨ - العناصر المأجورة سواء كان ذلك عناصر بشرية، أو وسائل تقنية وحديثة تُديرها عناصر بشرية مدرّبة ومتخصصة.

٩ - مراكــز ومؤسســات ومعاهد قياس الــرأي العام وتحليله ودراســته. وهي موجودة بكثــرة في الدول الغربية، ويوجد بعض منها في العالم العربي.

١٠ - ملاحظة الأنماط المعيشــية للناس، والتدقيق في مســتوى الارتفاع والانخفاض في بعــض المجالات الحياتية والسلوكية.

١١ - التدقيــق فــي مســتوى حضور صــلاة الجمعة والجماعة وتعداد الحجاج والمعتمرين، وكذلك في مســتوى حضور النشاطات العامة والمناسبات الاجتماعية وغيرها.

١٢ - رصــد المظاهر الخارجية للأشــخاص، ولا سيما ما يرتبط باللباس وأنماط الأزياء والحلاقة، وغير ذلك.

١٣ - مراقبــة المقتنيات المادية لــدى النــاس، ولا ســيما ما يتعلق بالهواتف الخلوية والسيارات وما يلحق بذلك.

١٤ - التدقيق في مســتوى الإقبال على نمَط معيشــي معــيّن، أو حدث اجتماعي محدد، أو شــأنٍ عام في المجال الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي.

٩ - أنواع استطلاعات الرأي العام:

١ - الاستطلاعات العامة للرأي، وتشمل المجتمع كاملاً أو أغلب فئاته وعناصره.

٢ - استطلاعات رأي فئة محددة من المجتمع أو عدد من الفئات (المثقفين، قــادة الرأي، الأكاديميين، الطبقة العاملة، النساء العاملات، الشباب، ذوي الدخل المتوسط...).

٣ - الاستطلاعات التلفزيونية وعبر المحطات الفضائية.

٤ - الاستطلاعات الإذاعية وعبر محطات الراديو.

٥ - استطلاعات الهواتف السلكية واللاسلكية والخلوية.

٦ - استطلاعات المواقع الإلكترونية عبر الإنترنت.

٧ - استطلاعات الصحف ووكالات الأنباء عبر الصفحات وعبر المواقع الإلكترونية لها.

٨ - استطلاعات الرأي عبر البريد العادي وعبر البريد الإلكتروني.

وختاماً؛ فإن الأمر لله - تعالى - من قبلُ ومن بعد، وهو يعلم السر وأخفى، وهو العليم الخبير، والحمد لله رب العالمين.



المرأة الفلسطينية
والعمل الجاد في الدعوة والجهاد

جميلة عبد الله الشنطي(*)

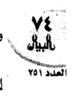
انطلاقاً من إدراك المرأة الفلسطينية أن كل من اتَّبع نبينا محمداً ﷺ من ذكر أو أنثى سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة كما جاء في قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ فإنها فهمت من ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - قد أوجب عليها الدعوة إلى الله كما أوجبها على الرجل، وعلى ذلك فهي مطالبة في هذا المجال بما يلي:

- أن تدعو إلى الله وإلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، والصبر على مشاق الدعوة وعدم اليأس مهما عارضها أو عاندها كثير من المدعوات.
- أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في حدود طاقتها ووَفْق ما تسمح به ظروفها.
- أن تجاهد في سبيل الله كل أنواع الجهاد ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ولقد تعرضت المرأة الفلسطينية شأنها في ذلك شأن غيرها من النساء في المجتمعات العربية والإسلامية؛ لهجمة شرسة تحت مسميات متعددة بهدف انتزاعها من جذورها وهويتها، ومحاولة حرفها وجرفها في تيارات معادية لهذا الدين.

تعرضت المرأة الفلسطينية في مشوار حياتها إلى نكبات متتالية، ومن ثم باتت بحاجة إلى من يرعاها ويوجهها الوجهة الصحيحة. وأشد هذه الضربات كان عام النكبة ١٩٤٨م حيث فقدت كل شيء وانتقلت إلى واقع جديد، وتفرَّق الشمل في الشتات، ولكن رغم ذلك فإن القراءة لهذا الواقع في هذه الفترة تشير إلى أن المرأة وقفت سداً منيعاً أمام الإحباط والانهيار، وحاولت أن تكيف نفسها مع الواقع الجديد بكل آلامه، وما إن تعافت قليلاً حتى جاءت نكسة عام ١٩٦٧م فبدت مذهولة، غير أن ذهولها لم يدم طويلاً، حتى شرعت في البحث عن كل ما يشدُّ عضد أهلها وأبناء شعبها.

(*) ماجستير أصول تربية، والنائب في المجلس التشريعي عن حركة حماس.



وفي أوائل السبعينيات الميلادية من القرن الماضي ومع بروز قوة الحركة الإسلامية، التي كان يتزعمها الشيخ أحمد ياسين؛ لم يُغفِل - رحمه الله - أهمية دور المرأة، وهذه كانت بدايات العمل الإسلامي النسائي في قطاع غزة.

دور الشيخ أحمد ياسين في نهضة العمل الإسلامي النسائي:

- كان - رحمه الله - يخصص جلسة أسبوعية يلتقي فيها بالأخوات؛ يسمع ويناقش ويرشد ويوجه، ويدعمهن معنوياً ومادياً.

- تخصيص مكان للنساء في كل مسجد يتم بناؤه ليكون شرارة الدعوة في الحي الذي ينشأ فيه.

- تخصيص قسم للأخوات في المجمع الإسلامي والجمعيات الإسلامية.

- الاهتمام ببناء رياض الأطفال الإسلامية في المدن والقرى والمخيمات، حيث يتحقق من خلال تلك الرِّياض أمران اثنان:

الأول: تنشئة الأطفال تنشئة إسلامية صحيحة.

الثاني: التواصل مع أولياء الأمور.

- بناء الجامعة الإسلامية، وتخصيص قسم للطالبات، حيث كان لإنشاء الجامعة الإسلامية الدور البارز في قطاع غزة، فقد بدأت الجامعة تبث في المجتمع الأفكار والعقيدة والدعوة الإسلامية، في وقت كانت التيارات العَلْمانية واليسارية تملأ الساحة.

صراع الأفكار:

١ - المرأة في المجتمع الفلسطيني كغيرها في المجتمعات العربية والإسلامية تعرَّضت إلى هجمة ما يسمى بـ (البرنامج النسوي المعولم) والذي يطالب بحقوق النساء انبثاقاً من مواثيق ومؤتمرات دولية، وتبنِّي مثل هذه الأفكار ممن ينتسبن إلى التيار العَلْماني والماركسي، ولكن هذه الدعوات لم تنجح كما كان مخططاً لها رغم الدعم المادي السخي المقدَّم لها من المؤسسات العالمية.

ومُلِئَ القطاع بمؤسسات وجمعيات، ورغم كثرتها إلا أنه كان هناك شبه تباعد بينها وبين المجتمع الفلسطيني؛ لأن كل ما تقدمه هذه الجمعيات كان بعيداً عن الواقع المعاش للمرأة الفلسطينية، وهذا ما جعل الخطاب الإسلامي أقرب إلى مرأى المرأة الفلسطينية ومسمعها.

٢ - الموروثات الخاطئة التي كانت تسود أوساط المجتمع الفلسطيني من عادات وتقاليد وأعراف لا أصل لها في الإسلام، ومع ذلك يعدونها من الدين ويتهمون الحركة الإسلامية بها وبكثير من المغالطات؛ بغرض صرف الناس عن الالتفاف حول المشروع الإسلامي.

من هنا واجهت الحركة الإسلامية النسائية منذ البدايات تحديات كبيرة كان لا بد من مواجهتها، وهذه كانت أكبر المشكلات، حيث كان هناك ما يشبه الجفول من التعامل مع كل ما هو متديِّن؛ لكثرة الشبهات والشائعات التي كانت تُبَث.

أمام كل هذه التحديات جاء دور الحركة الإسلامية النسائية، فبدأت تبلور برنامجاً واضحاً مستنداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، وبدأت الحركة تميط اللِّثام عن كثير من الموروثات والعادات والتقاليد وتدافع عن حقوق المرأة التي أعطاها إياها الإسلام، واستطاعت - بفضل الله - وَفْق خطة مبرمجة أن تحوز على ثقة المجتمع واحترامه، ومن هنا بدأ الالتفاف حول الحركة الإسلامية النسائية.

وأمام انتشار الدعوة في وسط النساء؛ بدأت البرامج الإسلامية والدعوية التي تقدمها الحركة الإسلامية النسوية تلقى قبولاً منقطع النظير، وبدا ظاهراً انحسار البرامج الأخرى بشكل ملحوظ.

تجربة الحركة الإسلامية النسائية في قطاع غزة:

كثير من المحلِّلين السياسيين والإعلاميين الذين تابعوا الأحداث داخل الأراضي العربية المحتلة لاحظوا الحضور النسائي القوي للحركة الإسلامية ومواقف الصمود والممانعة التي سجلتها المرأة الفلسطينية.

ونقول: إن هذا الحضور هو ثمرة جهد وعمل دؤوب، وفي ظل ظروف صعبة شقَّت الحركة الإسلامية النسائية طريقها في الدعوة إلى الله وحملت التكليف بكل أمانة استجابة لقول ربها: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].



وســأتناول في حديثي عن تجربة الحركة الإســلامية النسائية الدعوية ثلاثة جوانب:

- الجانب الدعوي.
- الجانب السياسي.
- الجانب الجهادي.

أولاً: الجانب الدعوي:

لكي تقوم المرأة بدورهــا الحقيقي في الدعوة إلى الله علــى أكمل وجه فــلا بد لها من أن تمتلك قــدراً من العلم والقــدرة والتأثير، وكذلك لا بــد أن يكون لديها وقت وجهد يمكنانها من أداء واجباتها على أحسن وجه.

ومن هنــا كان العمل على إيجاد نماذج نســائية دعوية متميزة تحمل على عاتقها حِمْــل هذه المهمة الصعبة، وكان للشــيخ أحمد ياسين - رحمه الله - الدور الكبير في إعداد وتقوية هذه الثلة الأولــى والتي أثمرت بفضل إخلاصها لله وعملها؛ والحمد لله.

ولقد كانت انطلاقة العمل الإســلامي النسائي الدعوي عبر الوسائل التالية:

١ - المساجد:

لقد شكَّل المسجد منبراً حراً للحركة الإسلامية بشكل عام وللنساء بشكل خاص، وكما أسلفنا سابقاً فقد كان يخصص قســم للنساء في كل مسجد، تقام فيه الندوات والمحاضرات والأيــام الثقافية، وأيام طبية، ومراكــز تحفيظ. ويضم كل مسجد لجنة تشــرف على أنشطته، ومن مهامها الأساسية: التعــرف على أهل الحي المحيطين بالمســجد والتواصل مع الناس والتعرف على حاجاتهم ومســاعدتهم في حلِّ الكثير من مشاكلهم.

ولقد أثار الصهاينةَ وأفزعهم نشــاطُ الأخوات المسلمات



في المســاجد؛ لأنهم يرقبون ما يجري في الأراضي المحتلة عن كثب.

ففي ملحــق صحيفة (هآرتس) اليهودية الصادرة بتاريخ ١٩٧٩/٧/١٣م والذي خصصته كاملاً للحديث عن الصحوة الإســلامية في فلســطين؛ كان مما قاله الكاتب وقتها: «إن النشاط الإسلامي ليس مقتصراً على رجال الدين وحدهم، بل إن الواعظات المســلمات لهــن دور كبير في تزايد الوعي الإســلامي في البلاد من خلال الدروس المنتظمة التي تقوم عليها النساء في المساجد مما كان لهذه الدروس أثر كبير في عودة كثيرات إلى الإسلام وامتلاء المساجد بهن».

٢ - رياض الأطفال:

نجحت الحركة الإســلامية النسائية في توظيف رياض الأطفال في خدمــة الدعوة إلى الله، ولقــد تميَّزت رياض الأطفال الإسلامية بمستوى عالٍ من الخدمة والتربية، ونالت ثقة الجمهور ورضاهم، ولاقت إقبالاً منقطع النظير.

وكان لتأســيس هــذا الجيل من الأطفــال الأثر الكبير في توجيــه ثقافة المجتمــع نحو الجهــاد ومقاومة الأفكار الاستسلامية التي كانت تُصَدَّر لمجتمعنا.

ولقــد تخرَّج في هذه الرِّياض جيل الانتفاضة الأول عام ١٩٨٧م، وكذلك جيل انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م.

ورياض الأطفال لها أهمية من حيث التواصل مع أولياء أمــور الطلبة، ولقد كان للخدمة الرائــدة لأبنائهم أثر كبير مما جعلهم يحترمون هذا العطاء ويقدرونه، وساهم ذلك في التأثير عليهم ممــا غيَّر نمط حياة كثير من البيوت، وهناك كثير من قصص الهداية للآباء والأمهات على أيدي أولادهم رواد الرياض الإسلامية.

٣ - الكتلة الإسلامية:

وهي الجسم الطلابي للحركة الإسلامية، والعمل الكتلي يمتدُّ من المدرسة الابتدائية وحتى المرحلة الجامعية.

ففي المدارس والجامعات تُشــكَّل لجــان كتلية متعددة الأنشــطة، تقوم بدورها في المدرســة والجامعة من خلال الإشــراف على الإذاعة المدرســية، وتوزيع النشرات، وعمل الملصقات، وإحياء المناســبات، وعمل الندوات والمحاضرات، ومســاعدة الطالبات المحتاجات، وعمل المهرجانات، والقيام بالرحلات، وتكريم الطالبات المتفوقات.

ولقــد كان للكتلة وبرامجها المتميزة الدور الكبير في بث روح الإيمان والصبر والعزيمة في نفوس المعلمات والطالبات

على حدٍّ سواء، وكذلك قطع الطريق على الاختراقات الأمنية التي كان يقوم بها العدو الصهيوني بين حين وآخر ليكسر شوكة صمود مجتمعنا.

٤ - النقابات:

حيث تقوم النقابة بتقديم الخدمات وحل المشكلات داخل أعضاء النقابة. ونتيجة للإخلاص والعمل الدؤوب والعطاء بلا حدود الذي تقوم به الأخوات وإبداء الاحترام والتقدير منهم تجاه الفئات الأخرى.. كل ذلك أعطى الثقة في الإخوة والأخوات، مما فتح الباب للحركة الإسلامية على مصراعيه لتحرز انتصارات باهرة في النقابات.

٥ - أعراس الشهداء:

حيث تتناوب الأخوات في عرس الشهيد طوال ثلاثة أيام، ويقمن بتحويل العزاء إلى عرس حقيقي من خلال الأناشيد الإسلامية والمحاضرات التي تبث الصبر والتثبيت في عائلة الشهيد بالإضافة إلى المحاضرات الوعظية والإرشادية وكذلك تقديم العون والمساعدة لآل الشهيد.

وأعتقد أن هذا الحضور المرتَّب كان له أثر كبير في التفاف الناس حول المشروع الإسلامي.

٦ - الجمعيات والمؤسسات الإسلامية:

لقد عملت الحركة النسائية من خلال مؤسسات المجمع الإسلامي والجمعية الإسلامية وجمعية الشابات المسلمات وجمعية الصلاح الإسلامية.

وقد أدت هذه الجمعيات دور الممانعة في وجه جمعيات ومؤسسات لاقت ضخّاً مالياً هائلاً من السلطة وأجهزة الأمن السابقة؛ لتنفيذ مخططات وحملات كبيرة شملت الكثير من القضايا الاجتماعية الحساسة، ومسَّت بالكثير من الثوابت الدينية والمسلَّمات الاجتماعية؛ ومن ثم كانت المؤسسات والجمعيات الإسلامية رغم محاصرتها وحبس الأموال عنها، وإقفالها من حين إلى آخر؛ إلا أنها بقيت قوية في وجه تلك المؤسسات والجمعيات المشبوهة.

إن قوة عمل المؤسسات والجمعيات الإسلامية ووجودها ومصداقيتها مع الجمهور كل ذلك شكَّل تهديداً لأسس وقواعد وجود تلك الجمعيات المشبوهة، فانكفأت على نفسها تحيط بها قلة من المنتفعين بها دون فاعلية أو تأثير.

ثانياً: الجانب السياسي:

للحركة الإسلامية النسائية في غزة حضور سياسي جيد وكذلك رأي يُعتدُّ به في اتخاذ القرار السياسي والاستراتيجي في الحركة، وهي أيضاً صاحبة قرار حرٍّ، ولا يُفْرض عليها قرار دون موافقتها، وهذا ما أصَّله الشيخ أحمد ياسين رحمه الله.

ويتجلّى تميّز الأداء السياسي في عدة مظاهر، منها:

- الفعاليات والمهرجانات التي تقوم بها الحركة الإسلامية النسائية؛ فقد كان لها في نفوس بناتها دور كبير في تحريك الشارع الفلسطيني ضد الاحتلال ومساندة المقاومة.
- الانتخابات النقابية والكتلية.
- الانتخابات البلدية.
- الانتخابات التشريعية.

ولقد استطاعت الحركة النسائية الإسلامية بما تملكه من قاعدة عريضة وتواصل جيد مع المجتمع من خلال المساجد والرِّياض المدرسية والكتل والنقابات، ونتيجة للثقة التي حازتها خلال مشوارها الدعوي؛ استطاعت الوصول إلى كل بيت وإيصال الفكرة الإسلامية وإزالة أي لبس وغموض أو شُبَه تحوم حولها، وقُمْنَ بدور عظيم في الدعاية الانتخابية وفي يوم الانتخابات، مما كان له الأثر في النجاح الباهر الذي حققته الحركة سواء كان في البلديات أو في المجلس التشريعي.

لقد سجلت نساء الحركة الإسلامية النسائية نجاحاً نوعياً على جميع الأصعدة التي ساهمت فيها، ولها الآن حضور سياسي في كل الأروقة السياسية، ومع ذلك ضربت المثل في المحافظة على التزامها والتقيد بالشريعة الإسلامية في كل خطواتها، وهي بذلك تثبت أن العمل السياسي بالنسبة للمرأة يكون ناجحاً أكثر من خلال الدعوة والعقيدة؛ لأن ذلك يشكل انضباطاً ذاتياً للمرأة ومرجعية قوية تحميها من عواصف السياسة. ونقول نحن - نساءَ الحركة الإسلامية -: إن ديننا أفسح العمل والمشاركة للمرأة في المجالات كافة؛ فلقد أبدعت الأخوات في عطائهن بوصفهن عضوات في البلدية ونائبات في المجلس التشريعي وفي الوزارة.

كذلك سجلت الأخوات حضوراً فاعلاً ومتميزاً في كثير من المؤتمرات وورش العمل وفي المناقشات، ونافسن

بالفكرة الإسلامية القوية كل الأفكار المستغربة التي تحملها الأخريات.

ثالثاً: الجانب الجهادي:

لم تكن قضية إشراك المرأة الفلسطينية في العمل الجهادي المقاوم بأشكاله وأساليبه وأطواره كافة؛ مثارَ جدل أو إشكال حاد في تاريخ الشعب الفلسطيني وقضيته؛ فالمعاناة الفلسطينية الهائلة التي ولَّدها الاحتلال، ونالت أوجه الحياة كافة؛ جعلت منها جحيماً لا يطاق ولم تترك مساحة لأي جدل ولم تدع خياراً لأحد - رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً وأطفالاً - إلا اللحاق بالمقاومة ومحاولة رد العدوان وكف الأذى؛ فالمرأة - كما هو الرجل - تشرَّبت الألم، وتذوقت المعاناة، وعانت المصائب، ولم يراعِ الاحتلال لها أيَّ حرمة، ولم يوقر لها أمومة، ولذلك فهي باتت على خط المواجهة الساخن مع قوات الاحتلال تبادله النار بالنار، والدم بالدم، والقتل بالقتل، دون تردُّد، عبر العمليات الاستشهادية، والتصدي للاجتياحات، وإيواء المقاومين.

المظاهر الجهادية وصور الممانعة المقاومة للمرأة الفلسطينية في قطاع غزة:

المظهر الأول:

١ - تعرّض أكثر من عشرة آلاف فلسطينية للاعتقال منذ عام ١٩٦٧م.

٢ - اعتقال زوجات المجاهدين وأمهاتهم وبناتهم وأخواتهم والتحقيق معهن لإيجاد حالة من الضغط النفسي على المجاهدين ليضطروا إلى الاعتراف.

٣ - صبر زوجات الأسرى اللواتي لم يمر على زواجهن إلا أشهر قليلة، وبالرغم من ذلك فهن يرفضن الانفصال بل يؤكدن إصرارهن على المصابرة والوقوف إلى جانب أزواجهن، والنماذج في ذلك كثيرة ولكن المقام لا يسمح بذكرها.

٤ - اضطرار زوجات المجاهدين المطاردين وعوائلهم أحياناً للتنقل في الشهر الواحد لأكثر من مسكن خوفاً من الملاحقة والمطاردة، وأعتقد أن هذه قمة المعاناة، ومع ذلك فالصبر منهن في أعلى درجاته.

٥ - ونقول: إذا كانت الصحابيات قد هاجرن إلى حيث الأمان؛ فإن المرأة الفلسطينية تهاجر من بيت إلى بيت والموت والقتل والدمار يلاحقها هي وأولادها.

المظهر الثاني: وهي المشاركة الفعلية في الجهاد:

١ - فالمرأة تقوم بتجهيز ابنها وأخيها وهو خارج للرباط، وتودعه وتدعمه بالثبات، قائلةً له: (أريدك مقبلاً غير مدبر).

٢ - المرأة تحتضن المقاومة، فالمرابطون يحتمون في بيتها، وهي التي تسهر على أكلهم وشربهم، وتساعدهم إن أرادوا التنقل في حمل أمتعتهم.

٣ - المرأة على استعداد لأن تخرج إلى أيِّ عمل جهادي؛ فهي تمتلك القوة والشجاعة كما حدث في ملحمة فدائيات الحصار في بيت حانون.

٤ - المرأة تبقى في بيتها ويُهدم على رأسها ولا تتركه، بل تنصب خيمة على أنقاضه وترفع شعار التحدي والصمود: (لن أرحل).

٥ - أريد أن أقول وبشيء من الاعتزاز بقادة الحركة الإسلامية من الرجال والنساء: إنهم أول من يقدمون أبناءهم في ميادين الجهاد ويعيشون حياة المطاردة والملاحقة والمصابرة، نعم! هذه ضريبة القيادة في فلسطين.

٦ - المرأة الفلسطينية في الحركة الإسلامية النسائية تجيد استعمال السلاح؛ فقد تعلَّمت على يد ابنها أو زوجها أو أخيها؛ لأنه يجب أن تتعلم وتتدرب، ولها قدوة في تاريخها وحضارتها كما جاء في حديث الرسول ﷺ، فقد تقضي الضرورة أن تشتبك مع العدو بحيث لا تقع في يده لقمة سائغة.

أخرج مسلم عن أنس - رضي الله عنه -: «أن أم سليم - رضي الله عنها - اتخذت يوم حنين خنجراً فكان معها تحمله باستمرار، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! هذه أم سليم معها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ فقالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك».

وفي الختام نقول: إن هذا العطاء الذي تقدمه المرأة الفلسطينية في الحركة الإسلامية إنما يمتد ليتعانق مع ما قدَّمته شهيرات خنساوات الإسلام بل منافستهن.

وختاماً: حمداً لله وثناءً عليه، وصلاة وسلاماً على رسله وأنبيائه وخاتمهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.



إقرأ في هذا الكتاب

- ستون عاماً على إغتصاب اليهود لفلسطين ومازال العلمانيون يراهنون على المفاوضات.
- اربعون عاماً على ضياع القدس وأسر الأقصى .. ولا مخرج إلا الفرار إلى الله.
- حصار متواصل .. وتآمر جديد يتحالف فيه القريب مع البعيد.
- حيل الساسة ودهاليز السياسة أوصلتنا إلى طريق التيه.
- معان عظيمة في النصر والهزيمة وكيف نختصر خطوات النصر.
- طلائع الطائفة المنصورة في مواجهة طلائع الدجال.

سلسلة تصدر عن مجلة البيان

كتاب البيان

العلمانيون وفلسطين

ستون عاما من الفشل

وماذا بعد ؟

تأليف

د. عبد العزيز مصطفى كامل

الرياض. هاتف/ ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢
فاكس/ ٤٥٣٢١٢١
المشاريع/ ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة/ ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧
مكة و المدينة/ ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
الجنوبية/ ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩

في دائرة الضوء

الدولة الصفوية في إيران
التاريخ والمنهاج

أ. د. محمد أمحزون
medbak1@hotmail.com

ليس من قبيل المبالغة القول إن قيام الدولة الصفوية في إيران شكّل كارثة لإيران والعالم الإسلامي معاً، إذ ظلت إيران قرابة تسعة قرون تتبع مذهب أهل السنة والجماعة، فكانت الصبغة السنية واضحة في جميع ألوان النشاط البشري لأهلها، وهو ما مكّن هذا القُطر من المساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية بواسطة علمائها، أمثال: البخاري، ومسلم، وسيبويه، والفراهيدي، والبيروني، وغيرهم.

لكن بقيام الدولة الصفوية في إيران؛ تغيّر مسار النشاط البشري فيها تغيُّراً جذرياً في جميع مجالات الحياة: العقدية، والفكرية، والفنية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، ووُجّه الإيرانيون إلى وجهة مغايرة تتسم بالعداء الصارم لكل ما له صلة بأهل السنة.

فقد كان قيام هذه الدولة مقترناً بالقضاء على مذهب أهل السنة في إيران، كما تزامن مع ارتكاب مذابح ومظالم بحقهم، والتضييق عليهم في أغلب عهود الحكم الصفوي.

كما أن التعصب المذهبي أوقع الصفويين في محذور عقدي؛ وهو التحالف مع الدول النصرانية في أوروبا؛ أملاً في إضعاف الدولة العثمانية السنية التي كانت تقود الجهاد ضد الصليبيين؛ رافعةً راية الإسلام، فاتحةً القسطنطينية، غازيةً في أوروبا، مما أضعف الفتوحات الإسلامية في هذه الجهة وأعاقها.

وفي المقابل، رحب الصفويون بإقامة النصارى في بلادهم وعاملوهم بكل احترام وتقدير، ووثّقوا صِلاتهم الاقتصادية بالدول النصرانية في أوروبا، وسمحوا للتجار الأجانب بِحُرية الحركة في المدن الإيرانية، ومنحوهم الامتيازات التجارية، مما شجع على ازدياد النفوذ الأوروبي في منطقة الخليج، حيث مهّدوا له الطريق بعقد التحالفات العسكرية والتجارية مع البرتغاليين والهولنديين والإنجليز، فكان عهدهم بامتياز



هو عهد إدخال قوى الاستعمار الأوروبي في هذه المنطقة.

وهكذا نلاحظ موقف الرافضة في إيران من السنّة في هذا البلد أو في البلاد العثمانية، على أنهم أشد خطراً عليهم من أي عدو آخر، فنكّلوا بأهل السنّة في إيران، وجاهروا العثمانيين بالعداء، بينما أظهروا الود والموالاة للدول الأوروبية النصرانية والنصارى المقيمين في إيران. وقامت السياسة الصفوية على هذا الأساس طوال مدة حكمهم التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان من سنة ٩٠٧هـ (١٥٠٧م) إلى ١١٤٨هـ (١٧٣٥م).

• المعاملة السيئة لأهل السنة:

بعد دخول إسماعيل الصفوي مدينة تبريز؛ أصر على أن كل من يخالف التشيع ويرفضه؛ فإن مصيره القتل؛ حتى ذُكر له أن عدد سكان تبريز السُّنة لا تقل نسبتهم عن الثلثين (٦٥٪)[١]؛ فقال: إن من يقول حرفاً واحداً؛ فإنه سيسحب سيفه ولن يترُك أحداً يعيش. وقد روي أن عددَ مَنْ قُتلوا في مذبحة تبريز أكثر من عشرين ألف شخص، ومورس ضد السكان السنَّة أبشع أنواع القتل والتنكيل، حيث قُطِّعت أوصال الرجال والنساء والأطفال ومُثِّل بالجثث[٢].

وبعد هزيمته للأوزبك في محمود آباد - وهي قرية تبعد قليلاً عن مرو - سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م؛ أعمل إسماعيل الصفوي القتلَ في أهل مرو، وأمضى فصل الشتاء في هراة، وأعلن فيها المذهب الرافضي مذهباً رسمياً، على الرغم من أن أهالي هذه المناطق كانت تدين بالمذهب السني. كما سعى تعصُّباً إلى إنشاء عدد من المدارس لتدريس مذهبه ونشره بين الناس[٣].

وكان الشاه عباس الأول أيضاً شديدَ الحرص على نصرة المذهب الرافضي، مما دفعه للبطش بالمخالفين وإلحاق الأذى والضرر بهم، وبخاصة أهل السنة.

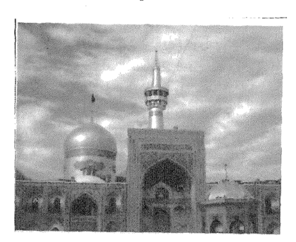
وكان عباس هذا ينتقم من أهل السنة متى واتته الفرصة لذلك. وقد وصل العداء به إلى درجة أنه حاول إقناع الإيرانيين بالتخلي عن الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، والاكتفاء بزيارة قبر الإمام الثامن علي بن موسى الرضا في مشهد؛ وذلك لأن الواجب القومي - في زعمه - يحتِّم عدم سفر الإيرانيين إلى مكة عبر أراضي العثمانيين السنة؛ حتى لا يدفعوا لهذه الدولة المعادية رسمَ عبور[٤].

(١) عبد الله الغريب: وجاء دور المجوس، ص ٨٠، (بتصرف).
(٢) احمد الخولي: الدولة الصفوية، ص ٥١.
(٣) فوزي توكر: الصفويون، شبكة المعلومات الدولية، موقع قوقل (Google).
(٤) بديع محمد جمعة: الشاه عباس الكبير، ص ١٠١، (بتصرف).

ويعلِّل رولان موسينيه هذا التصرف بالحيلولة دون خروج الذهب من البلاد[٥].

ولكي يرغِّب قومه في هذه الفكرة؛ كان عباس الأول يكثر من التردد على مشهد وزيارة قبر الإمام الثامن بها. كما أن سيْرَه على الأقدام من أصفهان إلى مشهد كان وسيلة من وسائل ترغيبهم في تقليده والحج إلى ذلك المزار القبوري، بدلاً من التوجه إلى الكعبة المشرفة في مكة[٦]. ولذلك اعتاد الفرس أن يحجوا إلى مشهد بدلاً من الحج إلى مكة المكرمة[٧].

وكانت المعاملة السيئة التي عامل بها الأكرادَ الإيرانيين



مرجعُها بالدرجة الأولى إلى تبعية هؤلاء الأكراد للمذهب السني، وعدم قبولهم الدخول في مذهب الرافضة، مما جعلهم هدفاً لغضبه وحقده، ووصل الأمر في تعنّته معهم إلى درجة التشريد في البلاد، ونقلَ عدداً كبيراً منهم من كردستان إلى خراسان، وسبَّب لهم ألماً نفسياً وإحساساً بالظلم والغربة والتشرد[٨].

وكان الشاه عباس الأول قاسي القلب، خشناً مع الأسرى السنَّة من العثمانيين والأوزبك. وكان أقل عقاب يوقع عليهم إن لم يُقتلوا هو سَمْل عيونهم. ولم يكن يصفح عن أي أسير منهم إلا إذا أعلن تخلّيه عن المذهب السني ودخوله في المذهب الرافضي[٩].

وقد نقل جلال الدين محمد اليزيدي (المنجِّم الخاص) للشاه عباس في كتابه «تاريخ عباسي» العديدَ من مظاهر

(٥) القرنان ١٦ - ١٧م (تاريخ الحضارات العام) بإشراف موريس كروزيه، ج ٤، ص٥٧٤.
(٦) بديع محمد جمعة: الشاه عباس الكبير، ص ١٠٢.
(٧) رولان موسينيه: القرنان: ١٦ - ١٧م (تاريخ الحضارات العام) ج ٤، ص ٥٧٤.
(٨) محمد أمين زكي: تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٠٢.
(٩) محمد بديع جمعة: الشاه عباس الكبير، ص ١٠٣. سَمَلَ العين: فقأها.



تعنته مع أهل السنة، منها:

- أنه نزل في عام ١٠٠٨هـ (١٥٩٩م) ببلدة سمنان؛ وبسبب تطاول حاكمها عليه وعدم امتثال أهلها لقوانينه؛ اعتُقل عدد كبير من أهل السنة بها، وأمر عباس بإطعام عوامهم بآذان علمائهم وأنوفهم، ثم حصّل ٣٠٠ تومان منهم تكفيراً لجرمهم[١].

- وفي عام ١٠١٨هـ (١٦٠٩م)، بلغه أن حاكم مدينة همذان - ويدعى (محمود الدباغ) وهو سني المذهب - كان يؤذي الشيعة هناك، فأمر بإلقاء القبض عليه والفتك به، ولكن محموداً اختفى، فأصدر الشاه أمراً مؤداه: إذا لم يظهر محمود الدباغ في ظرف ثلاثة أيام، فسيُقتل كل أفراد القبائل السنية في المدينة، ويُستولى على أموالهم ونسائهم وأطفالهم، وأخيراً ألقي القبض على الدباغ وأُعدم[٢].

- وفي عام ١٠٢٠ هـ (١٦١١م)، زار عباس قبر الشيخ زاهد الجيلاني مرشد جده صفي الدين الأردبيلي، وتصدق بأموال طائلة، وأمر أن توزع على خدام القبر وزواره؛ بشرط ألا يقدَّم منها شيء لأي سني، كما قام بلعنهم[٣].

وعلى العموم، فإن الصفويين الذين أقاموا دولة فارسية رافضية متعصبة في إيران؛ حاربوا أهل السنة الذين كانوا أكثرية في البلاد بكل الوسائل المتاحة لهم.

• تشجيع رعايا الدول النصرانية في أوروبا على القدوم إلى إيران واحترامهم وإكرامهم:

بدأ هذا التشجيع منذ عهد إسماعيل الأول، وبلغ أَوْجَه في عهد الشاه عباس الأول.

ففي رسالة بعثها البوكيرك - الحاكم البرتغالي في الهند - إلى الشاه إسماعيل الأول جاء فيها: «إني أقدِّر لك احترامك للنصرانيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند. وإذا أردت أن تنقضّ على بلاد العرب أو تهاجم مكة؛ فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي، وسأنفذ له كل ما يريد»[٤].

كما أن الصفويين في شخص عباس الأول شجّعوا لأول مرة بناءَ الكنائس، وأطلقوا العنان للمنصّرين والقسس ليفسدوا في بلاد المسلمين وليرفعوا رايات الشرك والضلال.

وقد تساهل شاه عباس الأول تساهلاً لم يُسبق له نظير مع النصارى، وأصدر مرسوماً إلى رعاياه يؤكد فيه أنهم أصدقاؤه وحلفاء بلاده، وأنه يأمرهم باحترامهم وتبجيلهم وإكرامهم أين حلوا. كما فتح بلاده للتجار الإفرنج، وأوصى ألا تؤخذ الرسوم على بضائعهم، وألا يتعرض لهم أحد من الحكام أو الأهالي بسوء. وقد اشتهر هذا السلطان بحسن معاملته للنصرانيين من كافة الأجناس[٥].

ويرى شاهين مكاريوس أنه أول من فعل مثل ذلك من سلاطين المسلمين في بلاد إيران[٦].

وقد أرسل ملوك أوروبا رسلَهم وتجارهم لزيارة إيران وعقد معاهدات سياسية وصفقات تجارية مع الشاه عباس الأول؛ لتوفير كل متطلبات الأمن والراحة لهؤلاء الأوروبيين[٧].

وفي عهد هذا الشاه، جاء اثنان من أكابر الإنجليز إلى إيران، وهما: أنتوني شرلي (SheRly) وأخوه روبرت شرلي، ومعهما خمسون فارساً، فأمر عباس باستقبالهم وإكرامهم، وقرّبهم منه وأجزل لهم العطايا. فحين وصلت هذه البعثة الإنجليزية إلى قزوين والشاه عباس موجود في خراسان؛ أصدر أوامره إلى عماله في قزوين بأن يحسنوا وفادتهم، ويبالغوا في إكرامهم حتى يعود إلى قزوين، فوجد حين عاد جميع أعضاء البعثة يقفون على مشارف المدينة مع مستقبليه من كبار رجال الدولة الصفوية، فصافحهم وصحبهم إلى داخل قزوين، وأنعم عليهم بإنعامات كثيرة، منها: مائة وأربعون من الخيل، ومائة بغل، ومائة جمل، ومبلغ عظيم من المال، ثم صحب أفراد البعثة معه إلى العاصمة أصفهان، حيث قضوا في ضيافته ستة أشهر[٨].

واستشار كبيرَهم أنتوني شرلي في أمر الحرب مع العثمانيين، فأشار عليه بتعليم جنوده مبادئ العسكرية، وبالتحالف مع دول أوروبا ضد السلطنة العثمانية، فرضي الشاه بقوله، وانتدبه سفيراً لينوب عنه أمام حكومات أوروبا في هذا الأمر، وأصدر (فرماناً) بذلك يدل على ثقته التامة

(١) المصدر السابق، ص١٠٢ (نقلاً عن تاريخ عباسي، ص ٣٧ وما بعدها).
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٤ (نقلاً عن تاريخ عباسي، ص ٣٧ وما بعدها).
(٣) المصدر السابق، ص ١٠٤ (نقلاً عن تاريخ عباسي، ص ٣٧ وما بعدها).
(٤) زكريا بيومي سليمان: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٦٣.

(٥) شاهين مكاريوس: تاريخ إيران، ص ١٥٤ - ١٥٦.
(٦) المرجع السابق، ص ١٥٤.
(٧) محمد بديع جمعة: الشاه عباس الكبير، ص ٢١٦.
(٨) عباس إقبال: تاريخ إيران قبل الإسلام، ص ٦٧١، ومحمد بديع جمعة: شاه عباس الكبير، ص ٢٥٠، (مصدره: رضا بازوكي: تاريخ إيران إزمغول تا أفشاريه، ص ٣٢٠، طهران، ١٣٢٤هـ).

بهذا الرجل الإنجليزي الذي صار من أعظم المقربين إليه[1].

وفي عهد الشـاه عباس الثاني (١٦٤٢ - ١٦٦٦م)؛ منح النـاسَ حرية الأديان، وتمتع الأوروبيـون في أيامه بالحرية وبنعمة السـلطان، فكان تجارهم أدنى مجلسـاً منه ويروون الأمور عنه[2].

وهكذا نلاحظ في عصـر الصفويين علاقات وثيقة مع الكفار، وانسـجاماً وتفاهماً معهم، واحتراماً متبادلاً، ومودة ومحبة! مع العلم بأن الولاء والبراء أصل من أصول الاعتقاد، وركـن من أركان توحيد الألوهيـة، وعروة من عُرى الإيمان، مما يعني عدم التسـاهل فيـه على الإطـلاق مهما كانت الدوافع؛ فالله - عز وجل - نهى المسـلمين عن اتخاذ اليهود والنصـارى أولياء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

بـل جعل - سـبحانه وتعالى - اتخـاذ الكافرين أولياءَ وعدمَ البراءة منهم، صفةً من صفات المنافقين، وسـبباً في دخول النار وتبوّء الدرك الأسـفل منها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٤ - ١٤٥].

• توطيد العلاقة مع الكنيسة الكاثوليكية في روما والتعاطف الشديد مع نصارى إيران:

ومن الذين اتصل بهم الشاه عباس بابا روما، وحاول عن طريقه حثّ ملوك أوروبا النصارى على وحدة الكلمة والتعاون مع إيـران للقضاء على الدولة العثمانية، كما اهتم البابا من جانبه بتوطيد علاقاته بالشاه عباس تدعيماً لموقف النصارى في إيران. وقد أرسـل البابا عدة رسائل إلى عباس يوصيه فيها بحسن معاملة نصارى إيران والسماح لهم ببناء الكنائس وإقامة الطقوس النصرانية.

ومن الرسـائل المهمة التي تبين حرص البابا على تعميق هوة الخلاف بين الشاه عباس الأول والعثمانيين؛ تلك الرسالة التي أرسـلها البابا بولس الخامس مع وفْد وصل إلى إيران ليهنّئ الشـاه عباس بانتصاره على الأوزبك السُّنّة، ويحرضه على محاربة العثمانيين.

ومن النقط الهامة الواردة في هذه الرسالة ما يلي:

١ - كم يتمنى البابا إضعافَ الدولة العثمانية، وكم يأمل فـي التعاون مع جميع القوى الراغبة في تحقيق هذا الأمل! وسيجتهد في استنفار جميع الملوك النصارى للاتحاد بينهم؛ كي يقوموا بهجمة مشتركة ضد الدولة العثمانية من الغرب، في حين يقوم الشاه عباس بهجمة أخرى من الشرق.

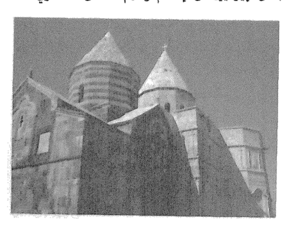
٢ - يعد البابا بإرسـال المهندسين والخبراء العسكريين للعمل من أجل تقوية جيش إيران.

٣ - يرغب البابا في إنشـاء سفارة في كلٍّ من أصفهان وروما؛ للإشراف على توطيد العلاقات بين الطرفين.

٤ - يأمل البابا من شاه إيران أن يُحْسِن معاملة نصارى إيران، وكذلك النصارى الأجانب، وألاّ يعاقب من يعتنق الدين النصراني (أي المرتدين من المسـلمين)، وألاّ يجبر النصارى على التخلي عن دينهم (أي الدخول في الإسلام)[3].

وهكـذا نجحت الكنيسـة الكاثوليكية في حمل الشـاه عباس الأول على التعاطف الشديد مع نصارى إيران، وكذلك نصارى أوروبا الذين كانـوا يفدون إلى إيران، إذ كانت لديه القابلية النفسـية لهذا التعاطف. كما جعلوه يوافق على بناء الكنائس في أصفهان وغيرها من المدن الإيرانية، بل إنه أمر ببناء كنيسة في جلفا على نفقته الخاصة[4].

كما أنه سـمح للبعثات التنصيرية بالقـدوم إلى إيران، ومنحها حرية الحركـة والتنصير. وقد أدى هذا إلى ارتداد بعض الإيرانيين عن الإسلام، ومنهم عدد من مستشاري الشاه



عباس، بل إنه أدّى إلى اتهام بعضهم الشاه عباس نفسَه بالميل إلـى النصرانية. كما أدى تعاطفه مع البعثات التنصيرية إلى أن عرض عليه أحد القساوسة الدخولَ في الدين النصراني، فردّ عليه الشاه قائلاً: لنترُك هذا إلى وقت آخر[5]!

(١) شاهين مكاريوس، تاريخ إيران، ص ١٥٤ - ١٥٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) محمد بديع جمعة: الشاه عباس الكبير، ص ٢٧١ - ٢٧٢، (مصدره: أحمد تاج بخش: إيران درزمان صفويه، ص ٢٢٠ - ٢٤١، تبريز، ١٣٤٠هـ).
(٤) المرجع السابق، ص١٠٧، (مصدره: أحمد تاج بخش: إيران درزمان صفويه، ص ٢٥٤ - ٢٥٥).
(٥) المرجع السابق، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

وكان الشاه عباس الأول حريصاً على التعاطف مع النصارى في كل مناسبة، والاشتراك معهم في احتفالاتهم الدينية، ولو أدى ذلك إلى الإقدام على أفعال تتجافى مع روح العقيدة الإسلامية.

ففي عام ١٠١٨هـ (١٦٠٩م) أرسل إلى بلاد الكرج؛ لإحضار عدد من الخنازير ليقدّمها هدية لنصرانيي جلفا في عيدهم، ثم ذهب بعد ذلك لتهنئتهم بالعيد، وشاركهم احتساءَ الخمر، وأمر جميع مرافقيه من رجال البلاط الصفوي باحتساء الخمر مشاركةً للنصارى في هذه المناسبة، على الرغم من توافق ذلك العيد النصراني مع اليوم الخامس عشر من رمضان، ثم قال موجِّهاً حديثَه إلى أحد قساوستهم: «عندما تذهب إلى روما وتمثُل أمام البابا؛ أخبره كيف شربت الخمر في نهار رمضان، وأن ذلك في محضر القاضي والمفتي، وكيف جعلت الجميع يشربون الخمر، وقل له: إنه على الرغم من أنني لست نصرانياً؛ فإنني جدير بالتقدير والاحترام»(١).

وهكذا وقَع الشاه في عدد من المخالفات العقدية، وهي: تهنئة المشركين بعيدهم، ومشاركتهم في احتفالهم، وشرب المسكر، وانتهاك حرمة الصيام، والمجاهرة بالفسق، والتبجح بإكراه مرافقيه على ارتكاب المعصية.

ومن البدهي أن المشابهة في الهَدْي الظاهر تورِث نوعَ مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر(٢).

وقد ورد النهي في الحديث الشريف عن التشبُّه بالكفار، لقول النبي ﷺ : «من تشبّه بقوم فهو منهم»(٣)، وعن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «اجتنبوا أعداء الله في دينهم»(٤).

ومعلوم أن الأعياد من أخص ما تتميز به الأديان والشرائع، والموافقة فيها للكفار قد تنتهي إلى الكفر في الجملة بشروطه(٥).

ومن مظاهر تعاطف الشاه عباس مع النصارى، حرصُه على زيارة الكنائس ولقاء القساوسة، والتباحث معهم في أمور دينهم، ومشاهدة مراسمهم الدينية وسماع مواعظهم وتراتيمهم، حتى أصبح على دراية بكثير من تعاليم النصرانية(٦).

ولأجل ذلك يمكن القول: إن الشاه عباس ارتكب هذه الأفعال الشنيعة نظراً للمغالاة في تعاطفه مع نصارى إيران، حتى عُدَّ عهده عصراً ذهبياً بالنسبة إليهم، ولرغبته في إرضاء نصارى أوروبا الذين كان يلهث وراء التقرب منهم، على أمل أن يساعدوه في حربه ضد العثمانيين السنّة.

ونتيجة لتعاطفه الشديد مع النصارى؛ طلبت منه الكنيسة الكاثوليكية السماحَ لقساوستها بإعادة النصارى الذين اعتنقوا الإسلام إلى النصرانية مرةً أخرى، فقبِل الشاه عباس هذا الطلب. ومثال ذلك: ما حدث مع أحد غلمانه ويدعى (ألكسندر)؛ فقد استطاعت الجماعات التنصيرية إعادته إلى النصرانية بعد أن كان قد أعلن إسلامه من قبل(٧).

فكيف يقبل عباس هذا الطلب، ولم يطالب هو الآخر ملكَ إسبانيا بإعادة المرتدين الثلاثة الذين كانوا ضمن بعثته الدبلوماسية إلى أوروبا؟!

ولكن ينبغي الإشارة ها هنا إلى أن تعاطف هذا السلطان الصفوي مع النصارى إلى حد كبير هو العامل المؤثر في ردة بعض رجال بلاطه.

ولم يقف عباس عند حد التعاطف القلبي مع النصارى والركون إليهم، بل إنه تمنى أن يرى جميع المساجد في البلاد العثمانية قد تحولت إلى كنائس؛ في المقولة التي وجهها إلى المبعوث الإسباني (أنتوني دي جوفا) وهو يحضه على محاربة العثمانيين: «كم أتمنى أن أرى في أقصر وقت ممكن جميع مساجد الأتراك وقد تحولت إلى كنائس! وكل أملي أن أرى سقوط الخلافة العثمانية وخرابها!»(٨).

إن أغلى أمنية لديه - كما صرح - أن يرى الصليبيين الأوروبيين قد غزوا بلاد المسلمين واحتلوها، وانتصروا عليهم، وحوّلوا مساجدهم إلى كنائس، مما يعني ظهور دين الصليب وأفول نجم الإسلام.

وهذا الموقف يدل دلالة واضحة على مظاهرة الكافرين

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٤ (مصدره: نصر الله فلسفي: زندكاني شاه عباس، ج ٢، ص ٢٦٤).
(٢) شاهين مكاريوس، تاريخ إيران، ص ١٥٤ - ١٥٦.
(٣) أخرجه أبو داود في السنن، ج ٤، ص ٣١٤، رقم ٤٠٣١. وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير: صحيح؛ ج ٢، ص ١٠٥٩، رقم ٦١٤٩.
(٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم، ج ١، ص ٥١٣.
(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٨.
(٦) محمد بديع جمعة: شاه عباس الكبير، ص ١٠٧، (مصدره: نصر الله فلسفي: زندكاني شاه عباس أول، ج ٣، ص ٧٢).
(٧) المرجع السابق، ص ٢٩٤، (مصدره نصر الله فلسفي: زندكاني شاه عباس أول، ج ٣، ص ٨١ - ٨٤).
(٨) المرجع السابق، ص ٢٩٥، (مصدره: نصر الله فلسفي: زندكاني شاه عباس أول، ج ٤، ص ١٥).

ومعاونتهم على المؤمنين، وإظهار المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ؛ وهذه من أخص صفات المنافقين والمرتدين.

ومن نافلة القول: أن الرافضة عُرفوا - على مدار التاريخ - بالكيد للسنة وأهلها ومظاهرة الأعداء عليهم، والحزن لظهور أهل السنة وعلوِّهم، والفرح بانهزامهم وانكسارهم. وقد كشف ابن تيمية عن موقفهم هذا بقوله: «... فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة، ويوالون التتار، ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة، حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيلَ المسلمين وسلاحهم، وغلمانَ السلطان وغيرَهم من الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور...»(1).

ولكن على الرغم من سقطاته وزلاته الكبيرة وأخطائه الفادحة؛ فإن الإيرانيين حتى اليوم يعتبرون الشاه عباس الأول بطلاً قومياً استطاع أن يرفع من شأن وطنه ويجسد آمال الإيرانيين ويحقق أهدافهم، وبخاصة الانتصار على أعدى أعدائهم؛ العثمانيين السنة.

أليس من الإنصاف إذاً الإطلاق على الإيرانيين المعاصرين أنهم الصفويون الجدد؟ ذلك أن الأفكار والمواقف التي كانت تهيمن على السابقين؛ هي نفسها التي توجه الحاضرين!

فالتشيع ليس إلا واجهة لتحقيق أهدافهم القومية المرتكزة على العنصر الفارسي؛ وإلا فكيف نفسر حرمان الشيعة الأذريين في إيران من حقوقهم الثقافية والسياسية ودعم النظام الإيراني للأرمن النصارى المحتلين لـ ٢٠ ٪ من أراضي جمهورية أذربيجان؟! هذا الاحتلال الذي شرّد ما يقرب من مليون مسلم أذري لا ينتظرون الدعم من إيران، وإنما يدعونها باسم الإسلام للكف عن مؤازرة المحتلين الأرمن لأراضيهم. وكذلك كيف نفسر تآمر الجمهورية الإسلامية في إيران على طالبان وتواطؤها مع الأمريكان لإسقاط حكومتهم في كابل، بينما تقدّم الدعم للفرس في أفغانستان وهم سنّة دون غيرهم من المسلمين! وهو موقف لا يمكن تفسيره إلا بأمر واحد، وهو: أن المهم بالنسبة إلى نظام الآيات أو الملالي في إيران هو العنصر الفارسي وليس الدين أو المذهب كما يدّعي، مما يكشف زيف شعاراته وادعاءاته.

وفي الختام، إن الحكومة العراقية الحالية المتحالفة مع الأمريكان المحتلين، بسبب ما ترتكبه من جرائم بحق أهل السنة في العراق من خلال أجهزتها الأمنية والميليشيات الرافضية المتعاونة معها، التي تكونت منها الحكومة العراقية مثل: فيلق بدر، وحزب الدعوة، وجُلّ جيش المهدي؛ تذكرنا بالدولة الصفوية التي اقترن قيامها بالقضاء على مذهب السنة في إيران، بعد أن كان معظم أهل هذا البلد من السنة.

وعرف عنها في التاريخ - كما مرّ بنا سابقاً - ارتكاب الصفويين مذابح يندى لها الجبين بحق أهل السنة في عهد إسماعيل الأول، ومعاملتهم إبّان حكم سلاطين هذه الدولة المتعصبة معاملةً سيئة وهم المسلمون، بينما حظي النصارى وهم الكفار بالاحترام والتقدير والتبجيل، وراح الشاهات يغدقون إنعاماتهم بسخاء على التجار النصارى! وأمّنوا لهم ممارسة شعائرهم الدينية بحُرية، وعمدوا إلى التحالف مع المماليك الأوروبية ضد السلطنة العثمانية السنية؛ أملاً في إسقاطها، وإعاقة الفتوحات الإسلامية في أوروبا!

والآن يعيد التاريخ نفسه؛ إذ نرى أن الحكومة الرافضية في العراق قد رهنت بلادها لإيران التي أحيا حكامُها بعد الثورة على الشاه كلَّ ما فعله الصفويون، ووضعت يدها في أيدي المحافظين أو الصليبيين الجدد، وتمارس ما مارسه أسلافها الصفويون بالأمس الدابر من خيانة وعمالة وظلم، وسفك دماء الأبرياء بغير حق، وتهجير العائلات والعشائر السنية من مناطقها.

إن حكام العراق الجدد بعد الغزو الأمريكي لهذا البلد المسلم؛ قد سيطروا على مفاصل الدولة العراقية بحماية القوات الأمريكية، ويستهدفون بمشروعهم القومي الصفوي الفارسي المستتر بالدين والمذهب؛ عقيدةَ أهل السنة في العراق ووجودهم ومقدساتهم وثرواتهم.

على أن حملات الإبادة لأهل السنة في كثير من مدن العراق وقراه وبواديه؛ ترمي إلى تصفية الوجود السني في بلاد الرافدين. وهذا يتطابق مع ممارسات أسلافهم الصفويين الذين تعصبوا للعنصر الفارسي، وسعوا لفرض هويتهم القومية الفارسية في إيران على حساب أهل السنة الذين كانوا يشكلون قبلَ قيام هذه الدولة معظمَ سكان إيران.

(1) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ج ٢٨، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.



استشراف المستقبل

عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

عبد الله بن محمد المديفر
fer30fer@gmail.com

استشــــراف المســــتقبل ليس حادثـاً، بل هو قديم قِدَم الإنسان؛ لأنه جزء من عملية التفكير، لكنه يقوى عند بعض الناس، ويقلُّ أو يتلاشــى عند بعضهم الآخر، ويكون مقدَّمـاً في أولويات أشــخاص ومؤخَّراً عند آخرين، وغائبـاً تمامـاً عند ثُلَّة من الناس.

لكن في هــذا العصر - وتحديداً فــي منتصف القرن الميــلادي المنصرم - برزت العناية بأســس الاستشــراف، وأساليبه، ومناهجه؛ فحاول العلماء جاهدين على أن يصلوا بفنِّ الاستشراف إلى مصاف العلوم الأخرى.

وقد كنتُ كثيراً أسمع وأقرأ عبارة شيخ الإسلام الشهيرة، التــي يُعبِّر فيها عــن توقعه المؤكد بانتصار المســلمين على التتار، يقول تلميذه ابن القيم: «أخبر الناس والأمراء ســنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام: أن الدائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر والنصر للمسلمين، وأقسم على ذلــك أكثر من ســبعين يميناً، فيقال له: قل: إن شــاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً»[1] ا. هـ.

وكنــت كلما قرأت هــذا ظننت أنه مــن الكرامات التي حباهــا الله - عز وجل - لهذا الإمام، ولا شــيء غير ذلك، لكن عندما يتعرف المرء على أســاليب استشراف المستقبل، ويدرس الحادثة التي قال فيها ابن تيمية هذا الكلام، ويتعرف على طريقة تفكير ابــن تيمية وتحليله للقضية؛ يجد أن ابن تيمية اعتمد في توقعه على بعض أساليب الاستشراف التي أصَّلها المســتقبليون[2] في العصر الحاضر؛ فهو بهذا سابق أوانه، ومتقدِّم على بني زمانه.

وفي هذا المقال يستعرض الكاتب حادثة مواجهة التتار، التي برز فيها الفكر المستقبلي عند شيخ الإسلام.

وتجلَّى نضوج استشــرافه المستقبلي في مواطن متعددة من سيرته العلمية والعملية. يقول ابن القيم: «ولقد شاهدت من فراســة شيخ الإســلام ابن تيمية - رحمه الله - أموراً عجيبة. وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم. ووقائع فراسته تستدعي سِفْراً ضخماً»[3] ا. هـ.

ثم ذكر أمثلة من استشرافاته المستقبلية، التي وقعت كما أخبــر عنها. وقال: «وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المســتقبل، ولم يعين أوقاتها، وقد رأيــت بعضها وأنا أنتظر بقيَّتها»[4] ا. هـ.

وهنــاك حادثة مشــهورة تجلَّى فيها نظره المســتقبلي الحصيف، واستشرافه الفذ المســتند إلى أساليب متعددة، وهي مواجهة التتار في الشــام، بعد انهزام المسلمين أمامهم في وقعة (قازان) عام (٦٩٩هـ).

وكانت الســنون - من عام (٦٩٩هـ) إلى (٧٠٢هـ) - من أصعب الأوقات على أهل الشــام، وارتبطت بذكريات كثيرة ســيئة عن التتار، وأحوال مشــاهدة لهم؛ من قتل، وإفساد، وتخريب، وســبي، ونهب، وانهزام قريب للمسلمين أمامهم، وفي وقــت يفرُّ فيه من البلــد أعيانه، من قضــاة وعلماء وغيرهم، فلم يبق في دمشــق من أكابرها إلا القليل، وازداد الأمر سوءاً بتأخُّر استجابة الجيش المصري لنجدة إخوانهم في الشــام. يقول ابن كثيــر: «وقلق الناس قلقــاً عظيماً، وخافوا خوفاً شــديداً، واختبط البلد لتأخُّر قدوم السلطان ببقية الجيش، وقال الناس: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء

(١) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، (القاهرة، مكتبة السنة المحمدية، ١٣٧٥هـ)، ٢/ ٤٨٩.

(٢) يطلَق لفظ: (مستقبلي) على المختص في الدراسات المستقبلية أو (استشراف المستقبل) - مثل: (نحوي) للمختص في النحو - وهو لفظ مقبول؛ لأنَّ الدراسات المستقبلية أحرزت تقدماً واضحاً، بحسب ما أثبتته دراسات نقدية متعددة، فيحق مع هذا التقدم أن يكون للمختصين فيها وصف خاص يتميزون به.

(٣) مدارج السالكين، مرجع سابق، ٢/ ٤٨٩.

(٤) المرجع نفسه: ٢/ ٤٩٠.



المصريين بلقـــاء التتار لكثرتهم، وإنما ســـبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحـــدَّث الناس بالأراجيف»(٥). ويقول ابن تيمية عن حال الناس عند قدوم التتار: «فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغـــت القلوب الحناجر؛ لعظم البلاء... وظن النـــاس بالله الظنـــون؛ هذا يظن أنه لا يقـــف قُدَّامهم أحد من جند الشـــام حتى يصطلموا أهل الشـــام... وهذا يظن أنهـــم يأخذونها، ثـــم يذهبون إلى مصر فيســـتولون عليها، فلا يقـــف قُدَّامهم أحد، فيحدِّث نفســـه بالفرار إلى اليمن ونحوها. وهذا – إذا أحسن ظنه – قال: إنهم يملكونها العام كما ملكوها عام هولاكو ســـنة ثمان وخمسين، ثم قد يخرج العســـكر من مصر فيســـتنقذها منهم، كما خرج ذلك العام، وهذا ظن خيارهم... وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع، حتى يمر الظن بفؤاده مرَّ الســـحاب، ليـــس له عقل يتفهم، ولا لسان يتكلم. وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنـــده الإرادات»(٦). فهذه الحادثة «أطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتثَّ ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنـــين أن يحلَّ بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار...»(٧).

فـــي هذا الوقـــت العصيب المدلهم، وابن تيمية يســـعى لطمأنة الناس، والرفع من معنوياتهم، وتبشيرهم بالمستقبل، وحضِّهـــم على الجهاد، والصبر والثبـــات، ووعدهم بالنصر في المواجهة القادمة مع التتار، ويلتقي الأمراء، ويســـافر إلى السلطان، ففي جمادى الأولى سنة (٧٠٠هـ)، لما جاءت أخبار بقدوم التتار، «خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية – رحمه الله تعالى –... إلى نائب الشام في المرج فثبَّتهم، وقوَّى جأشهم، وطيَّـــب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفـــر على الأعداء»(٨)، وســـار إلى مصر وأقام فيها ثمانية أيام، واجتمع بالسلطان والوزير وأعيـــان الدولة يحثهم على الجهـــاد والخروج إلى العدو، وقوَّى جأشهم وضمن لهم النصرة هذه الكرة(٩). ولكن التتار عادوا، ولم يَغزوا هذا العام.

وفي عام (٧٠٢هـ) لما وصلت الأنباء بتهديد التتار لبلاد الشـــام كان له مواقف مشابهة، يقول ابن كثير: «وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلـــف للأمراء والناس إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شـــاء الله تحقيقاً لا تعليـقاً»(١٠). ويقول ابن كثير في يوم آخر أيضاً: «وحرَّض الســـلطان على القتال وبشَّره بالنصر، وجعـــل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليـقاً»(١١).

وقـــال ابن فضل الله: «وحُكي أنه قال للســـلطان: اثبت فأنت منصور، فقال له بعض الأمراء: قل: إن شاء الله تعالى، فقال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليـقاً، فكان كما قال»(١٢).

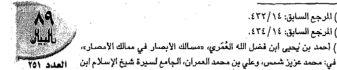
وقد صار الاستشراف حقـاً واقـعاً، فنصر الله المسلمين على التتـــار، في بضعة أيـــام من القتال. يقـــول ابن كثير: «وفي يوم الاثنين رابع الشـــهر [مـــن رمضان] رجع الناس... إلى دمشـــق فبشـــروا الناس بالنصر، وفيه دخل الشيخ تقي الدين ابن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، ففرح الناس به، ودعوا له، وهنَّؤوه بما يسَّـــر الله على يديه من الخير... ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان وبين يديـــه الخليفة، وزينت البلد، وفرح كل واحد من أهل الجمعة والسبت والأحد.. واستقرت الخواطر، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس»(١٣).

ومن خلال تتبُّع بعض المصادر نجد أن ابن تيمية اعتمد في هذا التوقع على جملة من أســـاليب الاستشراف، ولم يقتصر على واحد أو اثنين، بل تضافرت الأدلة لديه بشـــأن مستقبل المواجهـــة مع التتـــار، وكان الوحي من أهم هذه الأســـاليب؛ مما جعله يؤكد توقعه ويجزم به، ويَعِدُ الأمراء والســـلاطين والناس بالنصر تحقيقاً، وقد توصل الكاتب إلى سبعة أساليب استخدمها ابن تيمية في هذه الحادثة، وهي ما يلي:

١ - الوحي: كتاباً وسنة:

فـــإنه كـــان يلتقـــي الجند والأمـــراء ويتلو عليهم «قوله – تعالى –: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]»(١٤). يقول ابن كثير عن جزم ابن تيمية بهذا التوقع: إنه كان يتأول في ذلك أشياء من كتاب اللـــه، منها هذه الآية(١٥) ا. هـ. فابن تيمية يســـتند هنا إلى

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون (بيروت، دار المعرفة، ١٤١٦هـ)، ١٤/ ٤٣١.
(٦) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د. ت)، ٢٨/ ٤٤٦ – ٤٤٧.
(٧) المرجع السابق: ٢٨/ ٤٢٧ – ٤٢٨.
(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٤/ ٤٢٣.
(٩) المرجع السابق.



(١٠) المرجع السابق: ١٤/ ٤٣٢.
(١١) المرجع السابق: ١٤/ ٤٣٤.
(١٢) أحمد بن يحيى ابن فضل الله العُمَري، «مسالك الابصار في ممالك الامصار»، في: محمد عزيز شمس، وعلي بن محمد العمران، الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، (مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ١٤٢٠هـ)، ص ٢٦١.
(١٣) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٤/ ٤٣٤-٤٣٥.
(١٤) المرجع السابق: ١٤/ ٤٢٣.
(١٥) المرجع السابق: ١٤/ ٤٣٢.

(قاعدة مستقبلية قرآنية) في النصر.

ويقول ابن تيمية عن الذين تعارضت لديهم الأدلة والأمارات في أثناء هذه الأزمة: «ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء؛ بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الرؤية، فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء»[16].

٢ - التحديث:

التحديث: «هو ما يُلقى في القلب من الصواب والحق»[17].

وقال الراغب: المحدَّث - بفتح الدال المشددة -: «مَنْ يُلقى في رُوعه من جهة الملأ الأعلى شيء»[18] ا. هـ.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»[19]. وفي رواية: «لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ»[20].

قال ابن حجر: «كذا قاله النبي ﷺ على سبيل التوقع، وكأنه لم يكن اطَّلع على أن ذلك كائن، وقد وقع بحمد الله ما توقعه النبي ﷺ في عمر رضي الله عنه، ووقع من ذلك لغيره ما لا يحصى ذكره»[21].

يقول ابن تيمية في وصفه حال الناس في أزمة التتار: «وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية، وأهل التحديث والمبشرات أمانٍ كاذبة، وخرافات لاغية... وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات؛ لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب»[22].

ويقول أيضاً: «وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية، من الأخبار بما يكون، وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدَّثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون»[23].

٣ - الرؤى الصادقة:

الرؤى جمع رؤيا، وهي: «ما يُرى في المنام»[24].

دلَّ النصان السابقان من قوله: «المبشرات» على اعتبار ابن تيمية للرؤى في الاستشراف.

٤ - التفاؤل:

يقول ابن تيمية: «وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو»[25] ا. هـ، وهذا فيه تفاؤل له ولهم، ورفعٌ من معنوياتهم.

ويقول ابن كثير واصفاً خروج المسلمين من الشام لملاقاة التتار عام (٧٠٢هـ): «وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية... من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه»[26]. فخروجه من (باب النصر) فيه تفاؤل بالنصر، فلم يخرج من (باب الفرج)، ولا من (باب الفراديس)، ولا غيرهما.

وهذه الأعمال من التفاؤل شبيهة بشعار المجاهدين الذي كانوا يستخدمونه في صدر الإسلام، قال ابن هشام: «وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم خيبر: يا منصور! أَمِتْ أَمِتْ»[27]. «قال ابن الأثير: هو أَمْر بالموت، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة مع حصول الغَرض للشِّعَار»[28].

٥ - النية الخالصة، والهمة الصادقة:

يقول ابن تيمية: «إن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار»[29]. قاله بعد انسحاب التتار عن دمشق عام (٦٩٩هـ). وقال فيها: «وكان الله - سبحانه وتعالى - لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم؛ ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف»[30]. ويقول ابن عبد الهادي: «وفي أول شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعمائة كانت وقعة (شقحب) المشهورة، وحصل للناس شدة عظيمة، وظهر فيها

(١٦) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ٢٨/٤٤٧.

(١٧) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، (بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت)، ١/٧٢.

(١٨) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط ١، (دمشق، دار القلم، ١٤١٢هـ)، ص ٢٢٣، مادة: (حدث).

(١٩) أخرجه محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (بيروت، دار الفكر، ١٤١١هـ)، كتاب: أحاديث الأنبياء، ٤/١٧٩، ح ٣٤٦٩، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر - رضي الله عنه -، ٤/١٨٦٤، ح ٢٣٩٨.

(٢٠) البخاري، المرجع نفسه، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، ٤/٢٤١، ح ٣٦٨٩.

(٢١) فتح الباري، مرجع سابق، ٦/٥٩٦.

(٢٢) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ٢٨/٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢٣) المرجع السابق: ٢٨/٤٢٨.

(٢٤) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، مرجع سابق، ص ٣٧٥، مادة: (رأى).

(٢٥) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ٢/٤٨٩.

(٢٦) البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٤/٤٣٢.

(٢٧) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط٢، (القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ)، ٣/٣٣٣.

(٢٨) محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ)، ٧/١٨٤؛ ولم أجده لابن الأثير، النهاية، مادة: (شعر، وموت).

(٢٩) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ٢٨/٤٦٣.

(٣٠) المرجع السابق: ٢٨/٤٤٥.



كرامات الشـيخ وإجابة دعائه، وعظيم جهاده، وقوة إيمانه، وشـدة نصحه للإسـلام... وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت، ويتجاوز الوصـف. ولقد قرأت بخط بعض أصحابه - وقد ذكر هـذه الواقعة، وكثرة من حضرها من جيوش المسلمين - قال: «واتفقـت كلمة إجماعهـم على تعظيم الشـيخ تقي الدين ومحبته... ولم يبق من ملوك الشام تركي ولا عربي إلا واجتمع بالشـيخ في تلـك المدة، واعتقد خيره وصلاحه، ونصحه لله ولرسوله وللمؤمنين»(٣١).

فالنية الخالصة والهمة الصادقـة من ابن تيمية وممن حضر هذه الواقعة كانت سـبباً ودليلاً يستند إليه في جملة الأسباب التي يُتوقع بها تحقق النصر للمسلمين.

ويَشهد لهذا قول النبي ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَها يُرِيدُ إِتْلافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»(٣٢). فأناط النبي ﷺ الأمرين بالنية.

٦ - تطهير البلاد من المنكرات:

سعى ابن تيمية جاهداً لتحقيق جملة من أسباب النصر، ومنها: تطهير البلاد من المنكـرات الظاهرة، يقول ابن كثير وغيره: ففي بكيرة يوم الجمعة السـابع عشر من رجب عام (٦٩٩هـ) دار ابن تيمية وأصحابه على الخمَّـارات والحانات بدمشق، فكسروا آنية الخمور، وشـققوا الظروف، وأراقوا الخمـور، وعـزروا جماعة من أهل الحانـات المتخذة لهذه الفواحش(٣٣). و«تمكن ابن تيمية في الشـام حتى صار يحلق الرؤوس ويضرب الحدود ويأمر بالقطع والقتل»(٣٤).

٧ - الدعاء:

اسـتنزال النصر بالدعاء سُنَّة ماضية من لدن نبينا ﷺ إلى آخر الزمان.

قال أحد أصحاب ابن تيمية: أخبر «حاجب من الحجاب الشـاميين أمير من أمرائهم، ذو دين متـين، وصدق لهجة معـروف في الدولة. قال: قال لي الشـيخ يوم اللقاء، ونحن بمـرج الصُّفَّر، وقد تراءى الجمعان: يا فلان! أوقفني موقف الموت. قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم... فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرَّك شفتيه طويلاً. ثم انبعث وأقـدم على القتال. وأما أنا فخُيِّـل إليَّ أنه دعا عليهم وأن دعاءه اسـتجيب منه في تلك السـاعة. قال: ثم حال القتال بيننـا والالتحام، وما عدت رأيتـه... وكان آخر النهار. قال: وإذا أنا بالشـيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما تحريضاً علـى القتال، وتخويفاً للناس من الفرار. فقلت: يا سـيدي! لك البشارة بالنصر. فإنه قد فتح الله ونصر، وها هم التتار محصورون بهذا السـفح. وفي غدٍ - إن شـاء الله تعالى - يُؤخـذون عن آخرهم. قال: فحمـد الله تعالى، وأثنى عليـه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده»(٣٥).

٨ - القياس التاريخي:

يقول ابن تيمية عن السـنن الإلهية: الاسـتدلال بسنته وعادتـه طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق، وحقيقته: اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسـوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن، كما في قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسـف: ١١١]. وإنمـا تكون العبرة به بالقيـاس والتمثيل، فإذا عرفتَ قصـص الأنبياء، ومن اتَّبعهم، ومن كذَّبهم، وأن متَّبعيهم كانت لهم النجاة، والعاقبة، والنصر، والسـعادة، ولمكذبيهم الهلاك، والبوار؛ جعلتَ الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي؛ فعلمتَ أن من صدَّقهم كان سعيداً، ومن كذَّبهم كان شقـيّاً؛ وهذه سنة الله وعادته؛ ولهذا يقول - سبحانه - في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]. يقـول: فـإذا لم يكونوا خيراً منهـم، فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهـم لهم؟ هذا بطريق الاعتبار والقياس، ثم قال: ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُـرِ﴾ [القمر: ٤٣]، أي: معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم. فنفى الدليلين: العقلي، والسـمعي. وقد قال للمؤمنين في تحقيق سـنته وعادته: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّـةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّـتْهُمُ الْبَأْسَـاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُـولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَـى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فسنة الله وعادته في إكرام مصدقي الرسل، وإهانة مكذبيهم؛ مطَّردة لا تنتقض(٣٦). «ولولا القياس واطِّراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها. والاعتبار إنما يكون حكم الشيء حكم نظيره»(٣٧) ا. هـ.

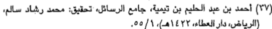
---

(٣١) ابن عبد الهادي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، (الرياض، مكتبة المؤيد، د. ت)، ١٧٥ - ١٧٦.

(٣٢) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب: في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب: من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، ٣/١١٣، ح ٢٣٨٧.

(٣٣) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٤/٤١٩. والقاسم بن محمد البرزالي، «المقتفي لتاريخ أبي شامة»، في: شمس والعمران، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٣٤) العُمَري، في: شمس والعمران، مرجع سابق، ص ٢٥٩.



(٣٥) ابن عبد الهادي، العقود الدرية، مرجع سابق/١٧٧ - ١٧٨، نقلاً عن خطٍّ لبعض أصحاب ابن تيمية.

(٣٦) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، النبوات، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، (الرياض، أضواء السلف، ١٤٢٠هـ)، ٢/٩٥٨ - ٩٧٨.

(٣٧) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق: محمد رشاد سالم، (الرياض، دار العطاء، ١٤٢٢هـ)، ١/٥٥.

قال ابن دريد:

«مــن قــاسَ مــا لــم يــره بمــا رأى

أراه ما يدنو إليه ما نــأى» (٣٨)

والقياس الذي اســتخدمه ابن تيمية في مواجهة التتار خـــاص بالمواجهة التي جرت معهم عام (٦٩٩هـ)، وصرَّح ابن تيمية بأنه كتبه بعد انصراف التتار عن الشـام(٣٩)، في نَصٍّ طويــل ماتع، وقد يُظـن أن هذا القيــاس لا يعدو أن يكون تشبيهاً فحسب، وليس قياســاً كان قبل المعركة، يقاس فيه حالة تاريخية ســابقة على أخرى حاضرة، والتوقع بأن يكون مســتقبل الحاضرة كالســابقة (الأصل المقيس عليه)، لكن بعــض كلام ابن تيمية قبل مواجهــة التتار يدل على حضور هـــذا المعنى لديه – مع ما توافــر لديه من الأدلة الأخرى – فقد قال في معرض استدلاله بالقياس التاريخي: «فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصَّبا: ريح شـــديدة باردة.... كما كان همُّ هذا العدو فتح الشـــام والاســـتيلاء على من بها من المسلمين، فردَّهم الله بغيظهم، حيث أصابهم مـــن الثلج العظيم، والبرد الشـــديد، والريح العاصف، والجوع المزعج؛ ما اللـــه به عليم. وقد كان بعض النـــاس يكره تلك الثلوج والأمطـــار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة. وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وســـر، فلا تكرهوه. فـــكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده، حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم»(٤٠) ا. هـ.

ويقول: «وإنما قصَّ الله علينا قصص مَنْ قبلنا من الأمم؛ لتكون عبرة لنا. فنشــبه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها... فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بســـنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم، لا ســـيما في مثل هذه الحادثة العظيمة»(٤١).

«فإذا قرأ الإنسان (سورة الأحزاب) وعرف من المنقولات في الحديث، والتفســـير، والفقه، والمغازي: كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القـــرآن، ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك؛ وجد مصداق ما ذكرنا... وتبين له كثير من المتشابهات»(٤٢).

وملخص هذا القياس ما يلي(٤٣):

١ – أن المســـلمين هُزموا في معركة أُحد بسبب ذنوبهم؛ وكذا هُزم المســـلمون عام (٦٩٩هـ) في وقعة (قازان) بسبب ذنوب ظاهرة، وخطايا واضحة.

٢ – ابتُلي المســـلمون بعد أُحد بأكثر من ســـنة – وقيل: بسنتين – بالأحزاب في معركة الخندق؛ وكذا ابتلي المسلمون في الشام بعدوِّهم بعد وقعة (قازان).

٣ – فـــي الخندق نصر الله عبـــده ﷺ، وهزم الأحزاب وحده بغير قتال، بل بثبـــات المؤمنين بإزاء عدوهم؛ كما كان ذلك في غزو المسلمين للتتار.

٤ – انقسم الناس عام الخندق إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين؛ وكذلك انقسموا هنا.

٥ – أن المســـلمين فـــي الأحزاب تحـــزَّب عليهم عامة المشركين الذين حولهم، فاجتمعت قريش، وحلفاؤها من بني أسد، وأشـــجع، وفزارة، وغيرهم من قبائل نجد، وكان معهم اليهـــود؛ وفي هذه الحادثة تحزَّب العـــدو من مغول، وتُرك، وفُرس، ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن، وغيرهم.

٦ – أن الكثـــرة كانت من جانب العدو في الأحزاب؛ كما كانت هنا أيضاً.

٧ – نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين ليستأصلوهم؛ ونزل هذا العدو بجانب ديار المســـلمين، ومقصوده الاستيلاء على الدار واصطلام أهلها.

٨ – دام الحصـــار على المســـلمين عـــام الخندق بضعاً وعشـــرين ليلة؛ وهذا العدو عَبَرَ الفرات ثم انصرف راجعاً عن حَلب في مثل ذلك.

٩ – «كان عام الخندق عامَ برد شديد وريح شديدة منكرة بها صرف الله الأحزاب عن المدينة... وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات... وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو؛ فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد حتى هلك مِنْ خيلهم ما شاء الله. وهلك أيضاً منهم من شاء الله. وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال».

١٠ – قال الله في شـــأن الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْـفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّـهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِـكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَـدِيدًا﴾ [الأحـــزاب: ١٠ – ١١]؛ وهكذا حصـــل مع هذا العدو، وتزلزل المسلمون على ما وُصف في بداية المقال.

---

(٣٨) محمد بن الحسن بن دريد، مقصورة ابن دريد، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (القاهرة، دار مصر للطباعة، د. ت)/١٢٨.

(٣٩) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ٢٨/٤٦٧.

(٤٠) المرجع السابق: ٢٨/٤٦٣.

(٤١) المرجع السابق: ٢٨/٤٢٥، ٤٢٧.

(٤٢) المرجع السابق: ٢٨/٤٤٠.

(٤٣) ينظر: المرجع السابق: ٢٨/٤٣١ – ٤٦٤.

١١ – «قــال الله – تعالى –: ﴿وَإِذْ يَقُــولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُــولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ١٢]. وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية والخلافة الرسالية وحزب الله المحدِّثون عنه».

١٢ – قـال – تـعـالى –: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحـزاب: ١٣]، أي: لا مقام لكم في الخندق والقتال؛ لكثرة العدو، فارجعوا إلى المدينة. وهكذا لما قدم هذا العدو قال بعض الناس: ما بقيت الدولة الإسلامية تقــوم، وقال بعضهم: ما بقيت أرض الشــام تســكن، وقال بعضهم: المصلحة الاستسلام لهؤلاء والدخول تحت حكمهم، فهذه المقالات الثلاث قد قيلت فــي هذه النازلة، كما قيلت في تلك.

١٣ – «قــال الله – تعالى –: ﴿وَيَسْــتَأْذِنُ فَرِيــقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب: ١٣]. وكان قــوم من هؤلاء المذمومــين يقولون – والناس مع النبي ﷺ عند ســلع داخل الخندق والنســاء والصبيان في آطام المدينة –: يا رســول الله! إن بيوتنا عورة. أي: مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل... قال الله – تعالى –: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ فهم يقصدون الفــرار من الجهاد ويحتجون بحجة العائلة. وهذا ما أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشــق لو دنــا العدو... وقد كان يمكنهم إرســالهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فرَّ بعد إرسال عياله؟».

١٤ – «قال – تعالى –: ﴿يَحْسَــبُونَ الأَحْــزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْــزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْــأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٠]. وصفهم بثلاثة أوصاف... وهــذه الصفات الثلاث منطبقــة على كثير من الناس في هذه الغزوة كما يعرفونه من أنفسهم ويعرفه منهم من خبرهم».

١٥ – جرى في غزوة الخندق مناوشات صغار؛ كما جرى في هذه الحادثة.

تلك كانت مجـمل أســاليـب استشراف المستقبل عند ابن تيمية في المواجهة مع التتار، ويَلحظ الكاتب من جميع ما سبق ما يلي:

١ – فــي هذه الواقعة تضافــرت الأدلة لدى ابن تيمية، واســتَخدم فيها أساليب استشــراف متعددة، لا تكاد توجد في غيرها.

٢ – يُحدِّث ابنُ تيمية الناس بهذه الأمور في وقت عصيب، ادلهمَّت فيه الأمور، وأصبــح الحليم حيران، واضطربت فيه التقديرات حول قدرة المسلمين على مواجهة التتار، مع تخاذل بعض الناس والعلماء، ومغادرتهم البلد فراراً بأنفسهم وأهليهم. وهنا تظهر حاجة الأمة إلى عالم راسخ، عليم بالكتاب والسنة، وبســنن الله الكونية، ثابت الجــأش، يُثبِّت الناس، ويقوي من عزائمهم، ويرفع من معنوياتهم، ويبشرهم، ويوحدهم.

٣ – هذه الحادثة تــدل على المقدرة القيادية الفذة لدى ابن تيمية، حيث إن من أركان القيادة – كما يقول الســويدان ومن معه –: الرؤية المستقبلية، والمقدرة على توضيحها للناس، وتحريكهم نحوها [٤٤]. وقد حققها ابن تيمية جميعها.

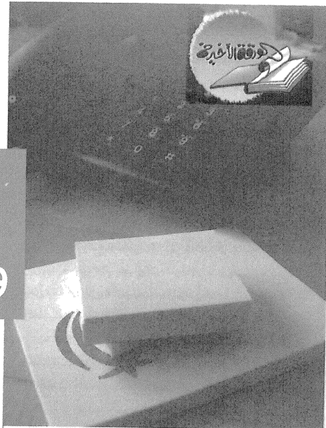
٤ – تميَّز ابن تيمية عن المســتقبليين المعاصرين بإعماله أســاليب صحـيحة لا يعدُّونها مـن أسـاليب الاستشراف – كالرؤى، والتحديث، وغيرهما – ولم تأخذ حقها من الواقع النظري أو العملي، ســوى دعــوات محدودة من بعضهم بأن ينظر المســتقبليون فيها ويجرِّبوها، إلا أنَّ هذه الدعوات لم تَخلُ من خلط الحق بالباطل من الأساليب.

٥ – يُعدُّ القياس التاريخي من الأســاليب الرئيســة في الدراسات المستقبلية المعاصرة، وقد ندر من أجاد استخدامه من الســابقين كابــن تيمية، الذي فاق في دقة اســتخدامه السابقين واللاحقين.

٦ – يُلحظ في اســتخدام ابن تيميــة للقياس التاريخي أن أكثر اعتماده كان علــى القرآن الكريم في وصف الحالة التاريخية الســابقة، وهذا من الفقــه العظيم؛ فإن الاعتماد علــى روايات تاريخية لا يُعلم صدقها من كذبها، ويقينها من وَهْمها، يؤثِّر في صحة القياس وفي نتيجته.

٧ – وختامــاً أقــول: إن عناية بعض علمائنــا الأوائل بأساليب استشراف المستقبل، وتطبيقها على واقع المسلمين في عصرهم؛ لَيشحذ من هممنا؛ لمواكبة ركبهم، بالتخصص في مجال استشراف المســتقبل، الذي انتشر اليوم في كثير مــن دول العالم، ولم يكن له لدى المســلمين اليوم إلا عناية يسيرة نادرة لا تكاد تُذكر.

(٤٤) طارق محمد السويدان، وفيصل عمر باشراحيل، صناعة القائد، (الرياض، مكتبة جرير وغيرها، ١٤٢٣هـ)، ص ٦٩ – ٧٠.





التقريب والولع بالتنقيب!

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف[*]
www.alabdlltif.net

لا نزاع في تفاقم التحديات والمخاطر التي تجتال هذه الأمة وتعصف بها، وتسعى إلى طمس معالم الإسلام والسنة، والطعن في عقائد أهل السنة وأحكام الشريعة؛ فعداوة الكفار وحربهم الشعواء على أهل الإسلام مكشوفة، ولا يزيدهم تصرُّم الأيام إلا سُعاراً في الكيد والتنكيل بالإسلام وأهله؛ فالقوم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة. وأهل البدع المغلَّظة - كالروافض وأشباههم - يجاهرون بأهوائهم بلا «تقية» ويعلنون شركهم وزندقتهم بكل صَلَف، ويسومون أهل السنة صنوف الأذى والعذاب؛ كما في بلاد الرافدين وإيران ونحوها.

ومع هذا العداء السافر بخيله ورَجْله، ومع هذا المكر الكُبّار الذي هو ملء السمع والبصر؛ إلا أنّ فئاماً من متسننة هذا العصر قد آثروا السلامة والدَّعَة، واختاروا «الإسلام المريح» الذي لا ينغّص على غرب، ولا يكدّر على مبتدع، فصارت اللغة الطافحة في أدبيات ومجلات وقنوات ونحوها لا تعدو الحديث عن استملاح الإنسانية، والهيام بحوار الأديان، والملاينة مع المبتدعة، و«الاصطلام» بالتقريب بين المذاهب الإسلامية، والولاء الفطري، والتسامح الديني، ونحو ذلك من مشتقات لا تتجاوز دائرة الحبّ والسلام والوئام مع اللئام!

ما أجمل ما حرره مفتي الديار المصرية الأسبق عبد المجيد سليم - رحمه الله - في هذا الشأن؛ قائلاً: «والناس إنما يفقدون الحماسة للحق والحرارة في الدفاع عنه؛ لواحد من أمرين: إما جهل به يصرفهم عنه، فهم لم يذوقوا حلاوته، ولم يباشروا بشاشته؛ فأنّى لهم أن يَعْبَؤُوا به فضلاً عن أن يغاروا عليه؟

وإما شُغُلٌ بغيره يملأ القلب، ولا يترك مجالاً للنضال عن الحق والكفاح في سبيله. وأولئك هم الذين يعرفون الحق ويشغلهم عنه ما آثروه من أنفسهم ومصالحهم، فهم يتظاهرون بأنّ تَرْكَهم مناصرة الحق إنما هو لتركهم التعصب، وكراهيتهم التزمُّت والتشدد، والله يعلم أن ذلك منهم نكول ونكوص، وإيثار لعاجل الدنيا على آجل الآخرة.

وأشد ما تصاب به الأمة في علمائها وأهل الرأي فيها هو التحايل بالخروج من تبعات الكتمان بالتأويل والتضليل»[1].

ما أشنع التنصل عن مدافعة هذا الواقع الموجع، والتولي عن ميادين الاحتساب والصدع بالحق ومراغمة الأعداء،

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) ظلام من الغرب، لمحمد الغزالي، ص ١٠٠.



وتحقيق البلاغ المبين!

وأشنع من ذلك كله أن لا يُعترف بهذا الخَوَر والجبن، ولا يُشهد بذاك العجز والوهن، بل تجاوزه إلى أن «يكيّف» دين الله وفق معايير الانهزامية والخنوع، و «يخضّع» هذا الإسلام لأجل أن يكون موائماً لتلك المهانة الجاثمة على فئام من متسننة هذا العصر!

والنكوص على الأعقاب، والهروب من تبعات الدعوة والإصلاح والتغيير؛ لا ينفك عن الأنفس المستكينة التي تُؤْثِر الراحة والتشهّي، وتتفلت من قيود الصراع. قال أبو الوفاء ابن عقيل: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عَدَلُوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم»(١).

والتقريب بين المذاهب الإسلامية - أو بالأحرى التقريب بين أهل السنة والرافضة - هو أنموذج صارخ للغيبوبة عن تشخيص الواقع ومعالجته، والانهماك في حديث معسول، وكلام مستهلك مكرور، لا ينصر ديناً، ولا يُصلح دنيا.

لقد ارتفعت لافتات التسامح المذهبي، ومحاربة الطائفية والمذهبية، والهَرَع لعقد المؤتمرات والندوات في سبيل تقريب موهوم، يحاكي منتظَر الرافضة وغوث الصوفية! وصرّح بعضهم بأنه: «سُنّيٌّ في التزامه، شيعي في حبّه، صوفي في روحه ونقائه»!

ودعوة التقريب من مخلّفات العقود السابقة، ومن الآثار «المطمورة» في متحف التاريخ المعاصر؛ إذ نُقِضت هذه الدعوة شرعاً، وتعثّرت واقعاً وقدراً، فما ذاك التقريب إلا خداع وتضليل، وسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. فدار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة - مثلاً - أضحت مقفرة بلاقع - منذ أكثر من ثلاثين سنة - قد سفَّتها الرياح، وسكنتها الأشباح(٢).

ولئن اعتذر بعضهم لدعاة التقريب في السابق، لغلبة الجهل بعقائد الرافضة وأصولهم، واستشرافهم إلى الإسلام ووحدة المسلمين، في مقابل المدّ الشيوعي والتغريبي، وضعف الالتزام بالمنهج السلفي آنذاك؛ فماذا يقال عن دعاة التقريب في اللاحق، وقد أشرق سبيل أهل السنة على أنحاء المعمورة وانكشف عوار وزندقة هذا المذهب للعامة والدهماء - فضلاً عن غيرهم - واستبان الحقد الدفين والعداء المستطير على أهل السنة عبر مسلسل دام من المجازر والاغتيالات؟! إضافة إلى الفشل المتتابع لمحاولات التقريب البائسة.

فأيّ تقريب مع الذين ينقُضون الأصول، فيطعنون في صحة القرآن الكريم، ويتعبّدون بالشرك الصُّراح وتأليه الأئمة، ويتديّنون بتضليل خيار الأمة من الصحابة - رضوان الله عليهم - ونهش أعراضهم، ويعتقدون أنواعاً من الضلالات والحماقات كالبداء والرجعة والإمامة والطينة؟

وأي تقريب مع قوم مَرَدوا على النفاق «والتقية»، فلا يحسنون إلا مظاهرة الكافرين والمستعمرين، ويجعلون سحق أهل السنة وتصفيتهم قُربة وديناً؟

هذا المسخ في عقائد القوم، والانتكاس عن سبيل العقل السليم والفطرة السوية، والتلوّن والتذبذب في التعامل والمواقف؛ إن ذلك أوجبَ الزهدَ في مناقشتهم واليأس من محاورتهم - كما يراه بعض أهل السنة - كما أفصح بذلك القاضي أبو يعلى قائلاً: «هذه الطائفة تقول: (إن أحداً لا يعرف حقيقة دينه ومعالمه إلا بأن يأخذه من إمامه)؛ ولو كان كذلك لم يحجب عنهم؛ لأن في ذلك تكليفَ ما لا يطاق؛ لأنه كلّفهم الاقتداء والاتّباع بمَنْ قد أحال بينهم وبينه من غير دليل؛ ولأنه إذا جاز أن يُدَّعى للحسن بن عليّ(٣) ولدٌ غائب من بعد أن مات ولم يظهر؛ جاز أن يدّعى للنبي ﷺ ولد غائب، وأن الإمامة فيه، ويمكن أن يُدّعى ذلك في كل زمان لكل من مات ولا عقب له! وما هم في دعواهم إمامةَ الغائب المعدوم إلا كقول بعض الصبيان حيث يقول:

زعم الزاعم في بلدتنا
جمل في كُوّة البيت دخل
قلت: لا أعلم ما بلدتكم
هذه الكوّة؛ فادخل يا جمل

ولو ذهب ذاهب إلى ترك مناظرة الرافضة ومكالمتهم، لكان قد ذهب مذهباً ليس ببعيد، وذلك أن المتناظرَيْن إنّما يتناظران ويردّان إلى أصل قد اتُّفق عليه. والأصول التي ترجع إليها الأمة فيما اختلفت فيه إنما هو: الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وحجج العقول. وهذه الأصول الأربعة لا يمكن الرجوع إليها على قول الرافضة؛ وذلك أن مذهبهم أنّ الكتاب مغيَّر مبدَّل، وأنه قد ذهب أكثره.. وكذلك لا يجب أن يُرجَع فيما اختلفنا فيه إلى السنّة؛ لأن النَّقَلَة فَسَقَة، الكذب غير مأمون عليهم.. وكذلك الردّ إلى الإجماع ليس

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ٤٥٥.
(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، للقفاري، ٢/١٧٣ - ١٨٥.
(٣) الحسن بن علي العسكري (العقيم) والإمام الحادي عشر عند الرافضة.



فيه حجـــة؛ لأن الأمة يجوز أن تجتمـــع على خطأ وضلال، وأنها معصومة بقول الإمام؛ فإذن ليس الحجةَ إلا قول الإمام فقط. وكذلـــك حجـج العقول؛ لأن الخلـــق كلهم قد عمَّهم النقص إلا المعصوم؛ فإذن لا يأمن أن يُرَدَّ إلى أمر من الأمور ولشـــبه يدخل علينا؛ لأن النقص والجهل قـــد عمَّنا فيردُّنا الإمام عن ذلك، فيجب أن نشك في كل ما نعتقده»(١).

وكما قال القاضي ابن العربي: «إن الرافضة انقســـمت إلى عشـــرين فرقة، أعظمهم بأســـاً من يقول: (إنّ علياً هو الله)، والغرابية يقولون: (إنه رســـول الله، لكن جبريل عدل بالرســـالة عنه إلى محمد حميةً منه معـــه).. في كفر بارد لا تســـخنه إلا حرارة الســـيف، فأما دفء المناظرة فلا يؤثر فيه»(٢).

وعندما نســـوق كلام القاضيين أبي يعلى وابن العربي، وما فيهما من شِدَّة وحِدَّة؛ فذلك إزاء ملاينة فجة للروافض، وســـذاجة مُفْرطة أمام المكر الباطنـــي، وتغافل عن الفروق الهائلة في مصـــادر التلقي وأصول العقائـــد والأحكام بين الطائفتين.

قال ابن تيميـــة: «ولا ريب أنه إذا كثُـــر المحظور احتاج الناس فيه إلى زجرٍ أكثر مما إذا كان قليلاً»(٣).

إن الحكم على الشـــيء فرع عن تصوره، وتشخيص واقع الرافضة ديناً ودنيا هو الســـبيل إلـــى تحديد الموقف العدل تجاههم والتعامل معهم، وفق قواعد الشرع وضوابط المصالح والمفاسد.

وإن الثبات على المنهج السلفي النبوي، والاعتزاز به، وكذا تبليغ مذهب أهل السنة والجماعة، وإبراز مزاياه وخصائصه، إن ذلك هو السبيل العملي في مواجهة هذا السراب الخادع، كمـا أن كشـــف عـوار مصـادر الرافـضة وبيان تـناقـضها، وما تحويه من الإفك المبين والكذب الصريح.. لهو طريق نافذ فـــي الإجهاز على هذا الدين المتهافت المهترئ. ولقد ضربت أقوال شيوخهم رقماً قياسياً في التناقض والاضطراب، حتى اعترف بذلك شيخهم الكاشاني، فقال عن اختلاف طائفته: «تـراهم يخـتلـفـون فـي المسألـة الواحـدة على عشـرين قولاً أو ثلاثين أو أزيد»(٤).

وفي المقابل؛ فإن من الوســـائل العملية النافعة: التنقيب عن الروايات الصحيحة فـــي خضم هذا الركام الكثيف من الروايات المكذوبة، واستخراجها من كتب الروافض وإظهارها لعلهم يرجعون.

يقول د. ناصر القفاري: «وهذا مســـلك ينبغي أن يُدرَّس بعنايـــة واهتمام؛ فإن القارئ لكتب الشـــيعة يتلمّس خيوطاً بيضاء وســـط ركام هائل من الضلال، ومن الممكن أن ينسج من هذه الخيـــوطِ العقيدةَ الحقة للأئمـــة، ويكون في ذلك تقريـــب وإنقاذ لمخلِصي الشـــيعة من الضيـــاع والتيه الذي يعيشونه»(٥).

إن التنقيب عن هذه الآثار الصحيحة في كتب القوم أَوْلى وأنفع من التنقيب عن «أحفورة»(٦) التقريب المطمورة، التي لم تخلِّف إلا تخديراً لأهل السنة ونفاقاً لمذهب الرافضة.

ومع أن الرافضة «ليس في جميع الطوائف المنتسبين إلى الإســـلام مـع بـدعـة وضلالة شرّ منهم، لا أجهل ولا أكذب ولا أظلم ولا أقرب إلى الكفر والفسوق والعصيان، وأبعد عن حقائـــق الإيمان منهم»(٧)؛ إلا أن أهل الســـنة يعلمون الحق، ويرحمون الخلق، فلقد عاملوا الرافضة بكل عدل وإنصاف، «بـــل هم للرافضة خير وأعدل من بعـــض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون به، ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً»(٨).

«وشـــيوخهم يقرون بألسنتهم يقولون: يا أهل السنة أنتم فيكم فُتوّة، لو قدرنا عليكم لما عاملناكم بما تعاملونا به عند القدرة علينا»(٩).

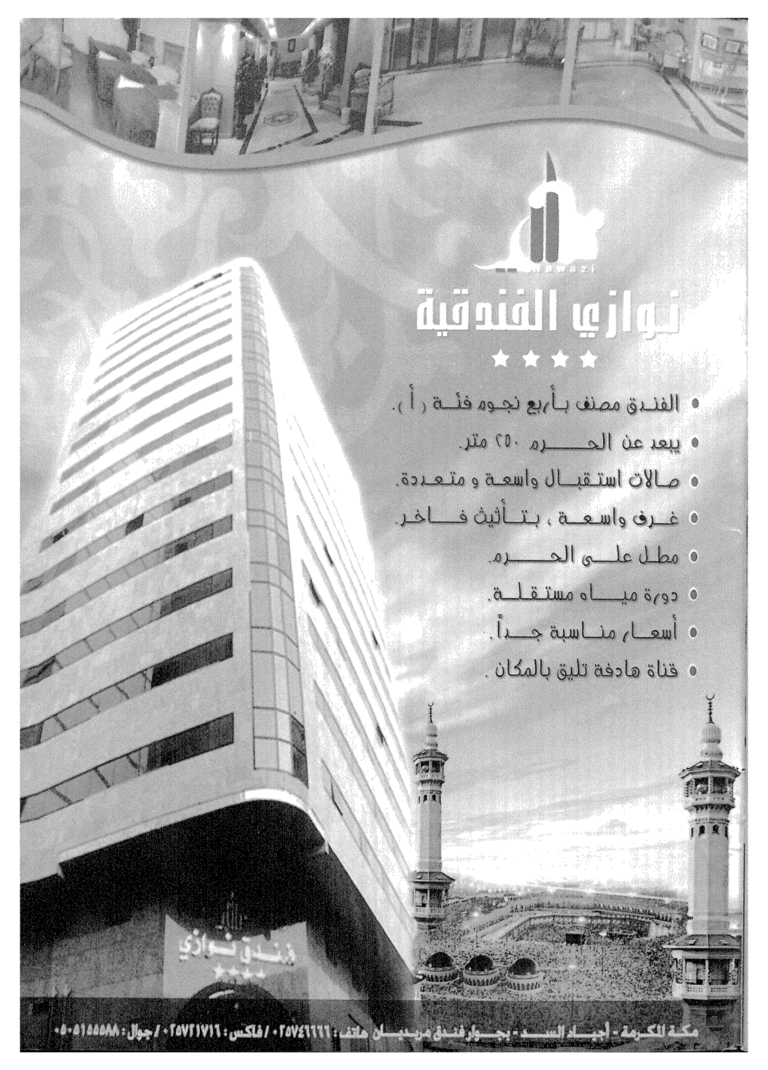
ومن الجوانـــب المهمة في هذا المقـــام أن يُعَرَّف بجهود المؤسســـات الدعوية والعلماء تجاه الرافضة، وسبل دعوتهم وهدايتهـــم، فلقد حققت هذه المناشـــط نفعـــاً كبيراً وخيراً عميماً، وأن يُعنى بتوســـيع هذه البرامج وترجمتها وتقويمها، بحيث تستوي مناطق النفوذ الرافضي وغيرها.

وكـمـا فـي وصيـــة المصطفى ﷺ لعلي - رضـي الله عـنـه - لـــما بعثه إلى خيبر: «... وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله - تعالى - فيه؛ فواللـــه لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعم»(١٠).

(١) المعتمد في أصول الدين، ٢٥٩، ٢٦٠ - خص.
(٢) العواصم من القواصم، ص ٢٤٧.
(٣) جامع المسائل، ١/ ٢٣٧.
(٤) عن كتاب مسألة التقريب للقفاري ٢/ ٢٨٦.

(٥) ٢/ ٢٩٦.
(٦) مسألة التقريب، ٢/ ٢٩٦.
(٧) منهاج السنة النبوية، ٥/ ١٦٠.
(٨) منهاج السنة النبوية، ٥/ ١٥٧.
(٩) منهاج السنة النبوية، ٤/ ١٢١.
(١٠) أخرجه البخاري ومسلم





NAWAZI
نوازي الفندقية
★ ★ ★ ★
الفندق مصنف بأربع نجوم فئة (أ).
يبعد عن الحرم ٢٥٠ متر.
صالات استقبال واسعة و متعددة.
غرف واسعة ، بتأثيث فاخر.
مطل على الحرم.
دورة مياه مستقلة.
أسعار مناسبة جداً.
قناة هادفة تليق بالمكان .
فندق نوازي
مكة المكرمة - أجياد السد - بجوار فندق مريديان هاتف : ٠٢٥٧٤٦٦٦٦ / فاكس : ٠٢٥٧٢١٧١٦ / جوال : ٠٥٠٥١٥٥٥٨٨